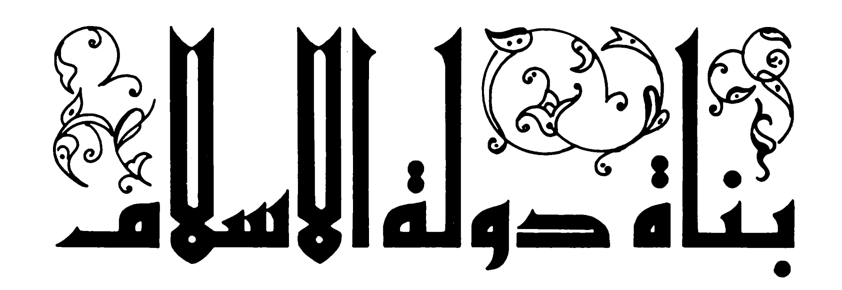


٢١ - ٣٠

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقيا : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ٢١ -

عَمّ رَسولِ اللهِ صَلى الله عَليهِ وسَلّم

العبّاس بن عبد المطلب

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ:
(هَـذَا العَبَّـاسُ عَمُّ نَبِيِّكُمْ، أَجْـوَدُ قُرَيْشٍ كَفَّـاً، وَأَوْصَلُهَا).

«رواه الحاكم»

- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
(مَا بَالُ رِجَالٍ يُؤْذُونَنِي فِي العَبَّـاسِ، وَإِنَّ عَمَّ الرَّجُـلِ صِنْوُ أَبِيهِ، مَنْ آذَى العَبَّاسَ فَقَدْ آذَانِي).

«رواه الترمذي».

مقدّمة

الحَمْدُلِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَالصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ عَلى مُحَمَّدِ بن عَبْدِ اللَّهِ رَسُولِ اللَّهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَتِهِ إلى يَوْمِ الدِّينِ.

أما بعد: فَإِنَّ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لَمْ يَكُنْ إنسَانَاً مَجْهُولاً وَلاَ رَجُلاً مَغْمُوراً وَإِنَّما كَانَ عَظِيمَاً فِي قُرَيْشٍ بَارِزَاً بَيْنَ أَبْطَالِها مَعْرُوفاً بَيْنَ رِجَالاَتِها، وَزَادَتْهُ صُحْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِزّاً، وَعُمُومَتُهُ لرسولِ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رِفْعَةً، وإِسْلاَمُهُ مَكانَةً، وعِبادتُهُ مَنْزِلَةً. وَلَكِنَّهُ لَعِبَ دَوْراً فِي الإِسْلاَمِ جَهِلَهُ الكَثِيرُونَ أَشارَتْ إليهِ كُتُبُ السِّيَرَةِ دُونَ إفْصَاحٍ، وَأَلْمَحَ إليه المُؤرِّخُونَ دُونَ الحَدِيثِ عَنْهُ، ذَلِكَ الدَّوْرُ هُوَ إِسْلاَمُهُ المُبَكِّرُ قُبَيْلَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ وَإِخْفَاءُ ذَلِكَ عَنِ النَّاسِ عَامَّةً كَيْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يُؤَدِّيَ مَا كَلَّفَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ إِخْبَارُ المَدِينَةِ مَا تَقُومُ بِهِ قُرَيْشٌ فِي مَكَّةَ، وَمَا تَنْوي عَمَلَهُ، وقدْ اسْتَمَرَّ في تَأْدِيَةِ عَمَلِهِ

عَلَى أَحْسنِ صُورَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَيْشُهُ الضخمُ عَلَى أَبْوَابِ مَكَّةَ وَلا قِبَلَ لَهَا بِهِ، وَعِنْدَهَا أَشْهَرَ إِسلاَمَهُ إِذِ انْتَهَى دَوْرُهُ، وَلَمْ تَعُدْ هُنَاكَ حَاجَةٌ لإِخْفَائِهِ، وانْضَوَى في صُفُوفِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رِضْوانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَغَدا جُنْدِيًّاً مِنْ جُنُودِ الإِسْلاَمِ يَسْعَى لِنَشْرِهِ وَالذَّبِّ عَنْهُ.

أَرْجُو أَنْ أُوَفَّقَ في إِبْرَازِ حَيَاةِ هَذَا الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ، وَإِظْهَارِ بَعْضِ جَوانِبِ حَيَاتِهِ المَجْهُولَةِ، وأَسأَلُ اللَّهَ أَنْ يُسدِّدَ خُطَانَا، وأَنْ يُهَيِّءَ لَنَا الاقْتِدَاءَ بِسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَحْبِهِ الكِرَامِ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

كَانَ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ بن هَاشِمٍ جَدِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، عَشْرَةٌ مِنْ الأَبْنَاءِ، وَسِتٌّ مِنَ البَنَاتِ مِنْ خَمْسِ نِسْوَةٍ، وَكَانَ العَبَّاسُ مِنْ أَصْغَرِهِمْ، وَأُمُّهُ نُتَيْلَةُ بِنْتُ جَنَابِ بِنِ كُلَيْبٍ الَّتِي أَنجَبَتْ أَيْضَاً ضِراراً.

وُلِدَ العَبَّاسُ قَبْلَ عَامِ الفِيلِ بِثَلاثِ سَنَواتٍ أَيّ قَبْلَ مَوْلِدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِثَلاثِ سَنَوَاتٍ، فَهُوَ أَقْرَبُ عُمُومَتِهِ إِلَيْهِ سِنَّاً. وَلَمَّا سُئِلَ العَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنْتَ أَكْبَرُ أَمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم؟ فَقَالَ: هُوَ أَكْبرُ مِنِّي، وَأَنَا أَسَنُّ مِنْهُ، مَوْلِدُهُ بَعْدَ عَقْلِي، أُتِيَ إِلَى أُمِّي، فَقِيلَ لَهَا: وَلِدَتْ آمِنَةُ غُلامَاً، فَخَرَجَتْ بِي حِينَ أَصْبَحَتْ آخِذَةً بِيَدِي، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَيْهَا، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَمْصَعُ رِجْلَيْهِ فِي عَرَصَتِهِ، وَجَعَلَ النِّسَاءُ يِجْبِذْنَني عَلَيْهِ، وَيَقُلْنَ: قَبِّلْ أَخَاكَ.

كَانَ العَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، شَرِيفَاً، مَهِيباً، عَاقِلاً،

جَمِيلاً، أَبْيَضَ، بَضاً، لَهُ ضَفِيرتَانِ، مُعْتَدِلَ القَامَةِ. وَوَصَفَهُ الذَّهَبِيُّ فَقَالَ: بَلْ كَانَ مِنْ أَطْوَلِ الرِّجَالِ، وَأَحْسَنِهِمْ صُورَةً، وَأَبْهَاهُمْ، وَأَجْهَرِهِمْ صَوْتاً مَعَ الحِلْمِ الوَافِرِ، وَالسُّؤْدُدِ.

رُوِيَ أَنَهُ كَانَ لِلْعَبَّاسِ رَاعٍ يَرْعَى لَهُ عَلى مَسِيرَةِ ثَلاَثَةِ أَمْيَالٍ فَإِذَا أَرَادَ مِنْهُ شَيْئاً صَاحَ بِهِ فَأَسْمَعَهُ حَاجَتَهُ[1].

وَكَانَ للعبَّاسِ ثَوبٌ لِعَارِي بَنِي هَاشِمٍ، وَجَفْنَةٌ لِجَائِعِهِمْ، وَمَنْظَرَةٌ لِجَاهِلِهِمْ، وَكَانَ يَمْنَعُ الجَارَ، وَيَبْذِلُ المَالَ، وَيُعْطِي فِي النَّوَائِبِ. وَكَانَ هُوَ الَّذي يَلي أَمْرَ بَنِي هَاشِمٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ. وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بنُ حَرْبٍ نَدِيمَهُ فِي الجَاهِلِيَّةِ.

وَمَعَ أَنَّ العَبَّاسَ كَانَ قَرِيبَ السِّنِّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ الصِّلَةُ وَثِيقَةً بَيْنَهُمَا، وَالمَحَبَّةُ قَائِمَةً غَيْرَ أَنَّ العَبَّاسَ لَمْ يَكُنْ لَهُ دَوْرٌ فِي الحَدِيثِ عَنِ الإِسلاَمِ فِي مَكَّةَ، لاَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَالمُؤَيِّدِينَ وَلاَ بَيْنَ الأَعداءِ الَّذِينَ عَادُوا الدَّعْوَةَ وَنَاصَبُوا أَهلَهَا العُدْوَانَ، وَقَدْ سَكَتَتْ عَنْهُ كُتُبُ السِّيرَةِ في هَذَا الدَّوْرِ رَغْمَ اللقَاءَاتِ الكَثِيرَةِ الخاصَّةِ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٩٥.

الَّتي كَانَ يَلْتقِي فِيْهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الأمْرُ الَّذي يُشِيرُ إِلَى أنَّ لَهُ دَوْراً بَقِيَ غَامِضاً نَسْتَجْلِي بَعْضَه في الحَدِيثِ عَنْ إسلامِهِ، وَفجْأَةً يَبْرُزُ العَبَّاسُ فِي بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيةِ.

في بَيْعَةِ العَقَبَةِ:

قَالَ عُوَيْمُ بنُ سَاعِدَةَ: لَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَال لِي سَعْدُ بنُ خَيْثَمَةَ وَمَعْنُ بنُ عَدِيٍّ وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ جُبَيْرٍ: يَا عُوَيْمُ انْطَلِقْ بِنَا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنُسَلِّمَ عَلَيْهِ فَإِنَّا لَمْ نَرَهُ قَطُّ وَقَدْ آمَنَّا بِهِ. فَخَرَجْتُ مَعَهُمْ فَقِيلَ لِي: هُوَ فِي دَارِ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَرحَلْنَا عَلَيْهِ فسَلَّمْنَا وَقُلْنَا لَهُ: مَتى نَلْتَقِي؟ فقَالَ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ: إِنَّ مَعكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ مَنْ هُوَ مُخَالِفٌ لَكُمْ فَأَخْفُوا أَمْرَكُمْ حَتَّى يَنْصَدِعَ هَذَا الحَاجُّ وَنَلْتَقِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فَنُوَضِّحَ لَكُمُ الأَمْرَ فَتَدْخُلُونَ عَلَى أَمْرٍ بَيِّنٍ. فَوَعَدَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اللَّيْلَةَ الَّتي فِي صُبْحِها النَّفْرُ الآخِرُ أَنْ يُوَافِيَهُمْ أَسْفَلَ العَقَبَةِ حَيْثُ المَسْجِدُ اليَوْمَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ لاَ يُنَبِّهُوا نَائِماً وَلاَ يَنْتَظِرُوا غَائِباً.

فَخَرَجَ القَوْمُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَيْلَةَ النَّفرِ الأوَّلِ بَعْدَ هَدْءٍ يَتَسَلَّلُونَ، وَقَدْ سَبَقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى ذَلِكَ

المَوْضِعِ ومَعَهُ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ لَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ غَيْرُهُ، وَكَانَ يَثِقُ بِهِ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا كَانَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ فقَالَ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ ، وَكَانَتْ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ تُدْعَى الخَزْرَجَ. إِنَّكُمْ قَدْ دَعَوْتُمْ مُحَمَّدَاً إِلَى مَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ وَمُحَمَّدٌ مِنْ أَعَزِّ النَّاسِ فِي عَشِيرَتِهِ يَمْنَعُهُ واللَّهِ مَنْ كَانَ مِنَّا عَلَى قَوْلِهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنَّا عَلَى قَوْلِهِ مَنَعَةً لَلْحَسَبِ وَالشَّرَفِ، وَقَدْ أَبَى مُحَمَّدَاً النَّاسُ كُلُّهُمْ غَيْرُكُمْ فَإِنْ كُنْتُمْ أَهْلَ قُوَّةٍ وَجَلَدٍ وَبَصَرٍ بِالْحَرْبِ وَاسْتِقْلَالٍ بَعَدَاوَةِ العَرَبِ قَاطِبَةً فَإِنَّهَا سَتَرْمِيكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ فَارْتَؤُوا رَأْيَكُمْ وَأتَمِرُوا أَمْرَكُمْ وَلاَ تَفْتَرِقُوا إِلاَّ عَنْ مَلأ مِنْكُمْ وَاجْتِمَاعٍ فَإِنَّ أَحْسَنَ الحَدِيثِ أَصْدَقُهُ، وَأُخْرَى، صِفُوا لِيَ الحَرْبَ كَيْفَ تُقَاتِلُونَ عَدُوَّكُمْ. قَالَ: فَأُسْكِتَ القَوْمُ وَتَكَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بنِ عَمْرِو بنِ حَرَامٍ فَقَالَ: نَحْنُ وَاللَّهِ أَهْلُ الحَرْبِ غُذِّينَا بِهَا وَمُرِّنَّا عَلَيْهَا وَوَرِثْنَاهَا عَنْ آبَائِنَا كَابِراً فَكَابِراً، نَرْمِي بالنَّبْلِ حَتَّى تَفْنَى، ثُمَّ نُطَاعِنُ بِالرِّمَاحِ حَتَّى تُكْسَرَ الرِّمَاحُ، ثُمَّ نَمْشِي بِالسُّيُوفِ فَنُضَارِبُ بِهَا حَتَّى يَمُوتَ الأَعْجَلُ مِنَّا أَوْ مِنْ عَدُوِّنَا.
فَقَالَ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ: أَنْتُمْ أَصْحَابُ حربٍ فَهَلْ فِيكُمْ دُرُوعٌ؟ قَالُوا: نَعَم شَامِلَةٌ. وَقَالَ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ: قَدْ سَمِعْنا مَا قُلْتَ، إِنَّا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ فِي أَنْفُسِنَا غَيْرَ مَا يُنْطَقُ بِهِ

لَقُلْنَاهُ وَلَكِنَّا نُرِيدُ الوَفَاءَ وَالصِّدْقَ وَبَذْلَ مُهَجِ أَنْفُسِنَا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَتَلا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، القُرْآنَ ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلى اللَّهِ وَرَغَّبَهُمْ فِي الإِسْلَامِ وَذَكَرَ الَّذِيْ اجْتَمَعُوا لَهُ، فَأَجَابَهُ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ بِالإِيمَانِ وَالتَّصدِيقِ فَبَايَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ، عَلَى ذَلِكَ، وَالعَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ آخِذٌ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُؤَكِّدُ لَهُ البَيْعَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عَلى الأَنْصَارِ.

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ العَبَّاسَ كَانَ آخِذاً بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَخْفُوا جَرْسَكُمْ فَإِنَّ عَلَيْنَا عُيُوناً، وَقَدِّمُوا ذَوِي أَسْنَانِكُمْ فَيَكُونُونَ الَّذِينَ يَلُونَ كَلامَنَا مِنْكُمْ فَإِنَّا نَخَافُ قَوْمَكُمْ عَلَيْكُمْ، ثُمَّ إِذَا بَايَعْتُمْ فَتَفَرَّقُوا إِلَى مَجَالِكُمْ وَاكْتُمُوا أَمْرَكُمْ فَإِنْ طَوَيْتُمْ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَنْصَدِعَ هَذَا المَوْسِمَ فَأَنْتُمُ الرِّجَالُ وَأَنْتُمْ لِمَا بَعْدَ اليَوْمِ. فَقَالَ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ: يَا أَبَا الفَضْلِ اسْمَعْ مِنَّا. فَسَكَتَ العَبَّاسُ فَقَالَ البَرَاءُ: لَكَ وَاللَّهِ عِنْدَنَا كِتْمَانُ مَا تُحِبُّ أَنْ نَكْتُمَ وَإِظْهَارَ مَا تُحِبُّ أَن نُظْهِرَ وَبَذْلَ مُهَجِ أَنْفُسِنَا وَرِضَا رَبِّنَا عَنَّا، إِنَّا أَهْلَ حَلْقَةٍ وَافِرَةٍ وَأَهْلَ مَنَعَةٍ وَعِزٍّ، وَقَدْ كُنَّا عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ

حَجَرٍ وَنَحْنُ كَذَا فَكَيْفَ بِنَا حِينَ بَصَّرَنَا اللَّهُ مَا أَعْمَى عَلَى غَيْرِنَا وَأَيَّدَنَا بِمُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ابْسُطْ يَدَكَ. فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْبَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ، وَيُقَالُ: أَبُو الهَيْثَمِ بِنِ التَيِّهَانِ، وَيُقَالُ: أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ.

وَفي رِوَايَةٍ. انْطَلَقَ النَّبِيُّ، عَلَيْهِ السَّلاَمُ، بِالعَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَكَانَ العَبَّاسُ ذَا رَأْيٍ، إِلى السَّبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ عِنْدَ العَقَبَةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَقَالَ العَبَّاسُ: لِيَتَكَلَّمَ مُتَكَلِّمُكُمْ وَلاَ يُطِلِ الخُطْبَةَ فَإِنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ عَيْنَاً وَإِنْ يَعْلَمُوا بِكُمْ يَفْضَحُوكُمْ. فَقَالَ قَائِلُهُمْ وَهُوَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ: يَا مُحَمَّدُ سَلْ لِرَبِّكَ مَا شِئْتَ ثُمَّ سَلْ لِنَفْسِكَ وَلأَصْحَابِكَ مَا شِئْتَ؟ثمَّ أَخْبِرْنَا مَا لَنَا مِنَ الثَّوَابِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكُمْ إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ: أَسْأَلُكُمْ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَسْأَلُكُمْ لِي وَلأَصحَابِي أَنْ تُؤْوُونَا وَتَنْصُرُونَا وَتَمْنَعُونَا مِمَّا تَمْنَعُونَ أَنْفُسَكُمْ، قَالَ: فَمَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ: الجَنَّةَ، قَالَ: فَلَكَ ذَلِكَ.

رُؤْيَا عَاتِكَةَ:

وَابْتَدَأَ المُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ يَتَّجِهُونَ نَحوَ المَدِينَةِ مُهَاجِرِينَ،

ثُمَّ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَقِيَ العَبَّاسُ فِي مَكَّةَ لاَ يُسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ وَلاَ يُدْرَى لَهُ دَوْرٌ حَتَّى قُبَيْلَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ. إِذْ رَأَتْ عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، قَبْلَ قُدُومِ ضَمْضَمِ مَكَّةَ بِثَلاَثِ لَيَالٍ، رُؤْيَا أَفْزَعَتْهَا، فَبَعَثَتْ إِلَى أَخِيهَا العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا أَخِي، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا أَفْظَعَتْنِي، وَتَخَوَّفْتُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى قَوْمِكَ مِنْهَا شَرٌّ وَمُصِيبَةٌ، فَاكْتُمْ عَنِّي مَا أُحَدِّثُكَ بِهِ، فَقَالَ لَهَا: وَمَا رَأَيْتِ؟ قَالَتْ: رَأَيْتُ رَاكِباً أَقْبَلَ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ، حَتَّى وَقَفَ بِالأَبْطَحِ، ثُمَّ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَلاَ انْفِرُوا يَا لِغُدُرٍ لِمَصَارِعِكُمْ فِي ثَلاَثٍ، فَأَرَى النَّاسَ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ وَالنَّاسُ يَتْبَعُونَهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ حَوْلَهُ مَثَلَ بِهِ بَعِيرُهُ عَلَى ظَهْرِ الكَعْبَةِ، ثُمَّ صَرَخَ بِمِثْلِهَا: أَلاَ انْفِرُوا يَا لِغُدُرٍ لِمَصَارِعِكُمْ فِي ثَلاَثٍ، ثُمَّ مَثَلَ بِهِ بَعِيرُهُ عَلَى رَأْسِ أَبِي قُبَيْسٍ، فَصَرَخَ بِمِثْلِهَا. ثُمَّ أَخَذَ صَخْرَةً فَأَرْسَلَهَا فَأَقْبَلَتْ تَهْوِي، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بِأَسْفَلِ الجَبَلِ ارفَضَّتْ، فَمَا بَقِيَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ مَكَّةَ، وَلاَ دَارٌ إِلاَّ دَخَلَتْهَا مِنْهَا فِلْقَةٌ، قَالَ العَبَّاسُ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا! وَأَنْتِ فَاكْتُمِيهَا، وَلاَ تَذْكُرِيهَا لأَحَدٍ.

ثُمَّ خَرَجَ العَبَّاسُ، فَلَقِيَ الوَلِيدَ بنَ عُتْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ، وَكَانَ

صَدِيقاً لَهُ ، فَذَكَرهَا لَهُ ، وَاسْتَكْتَمَهُ إِيَّاهَا . فَذَكَرهَا الوَلِيدُ لأَبِيهِ ، عُتْبَةَ ، فَفَشَا الحَدِيثُ بِمَكَّةَ ، حَتَّى تَحدَّثَتْ بِهِ قُرَيْشٌ فِي أَنْدِيَتِها .

قَالَ العَبَّاسُ : فَغَدَوْتُ لأَطوفَ بِالبَيت ، وَأَبُو جَهْلٍ بن هِشَام فِي رَهْطٍ مِنْ قُرَيْشٍ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ بِرُؤْيَا عَاتِكَةَ ، فَلَّما رَآنِي أَبُو جَهْلٍ قَالَ : يَا أَبَا الفَضْلِ إِذَا فَرَغْتَ مِنْ طَوَافِكَ فَأَقْبِلْ عَلَيْنَا ، فَلَمَّا فَرَغْتُ أَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ مَعَهُمْ ، فَقَالَ لِي أَبُو جَهْلٍ : يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ ، مَتَى حَدَثَتْ فِيكُمْ هَذِهِ النَّبِيَّةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : تِلْكَ الرُّؤْيا الَّتِي رَأَتْ عَاتِكَةُ ؛ قَالَ : قُلْتُ : وَمَا رَأَتْ ؟ قَالَ : يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ ، أَمَا رَضِيتُمْ أَنْ يَتَنَبَّأَ رِجَالُكُمْ حَتَّى تَتَنَبَّأَ نِسَاؤُكُمْ ! قَدْ زَعَمَتْ عَاتِكَةُ فِي رُؤْيَاهَا أَنَّهُ قَالَ : انْفِرُوا فِي ثَلاَثٍ ، فَسَنَتَرَبَّصُ بِكُمْ هَذِهِ الثَلاَثَ ، فَإِنْ يَكُ حَقَّاً مَا تَقُولُ فَسَيَكُونُ ، وَإِنْ تَمْضِ الثَلاَثُ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْء ، نَكْتُبُ عَلَيْكُمْ كِتَاباً أَنَّكُمْ أَكْذَبُ أَهْلِ بَيْتٍ فِي العَرَبِ . قَالَ العَبَّاسُ : فَوَاللَّهِ مَا كَانَ مِنِّي إِلَيْهِ كَبِيرٌ ، إِلاَّ أَنِّي جَحَدْتُ ذَلِكَ ، وَأَنْكَرْتُ أَنْ تَكُونَ رَأَتْ شَيْئاً . قَالَ : ثُمَّ تَفَرَّقْنَا فَلَمَّا أَمْسَيْتُ ، لَمْ تَبْقَ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ إِلاَّ أَتَتْنِي ، فَقَالَتْ : أَقْرَرْتُمْ لِهَذَا الفَاسِقِ الخَبِيثِ أَنْ يَقَعَ فِي رِجَالِكُمْ ، ثُمَّ تَنَاوَلَ النِّساءَ وَأَنْتَ تَسْمَعُ ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ غَيْرٌ

لِشيءٍ مِمَّا سَمِعْتَ! قَالَ: قُلْتُ: قدْ وَاللَّهِ فَعَلْتُ، مَا كَانَ مِنِّي إِلَيْه مِنْ كَبيرٍ. وَأَيْم ِ اللَّهِ لأَتَعَرَّضَنَّ لَهُ، فَإِنْ عَادَ لأكَفِينَّكُنَّهُ.

قَالَ: فَغَدَوْتُ فِي اليَوْم ِ الثَالِثِ مِنْ رُؤْيَا عَاتِكَةَ، وَأَنَا حَدِيدٌ مُغْضَبٌ أَرَى أَنِّي قَدْ فَاتَنِي مِنْه أَمْرٌ أُحِبُّ أَنْ أُدْرِكَهُ مِنْهُ. قَالَ: فَدَخَلْتُ المَسْجِدَ فَرأَيْتُهُ فَوَاللَّهِ إِنِّي لأَمْشِي نَحْوَهُ أَتَعرَّضُهُ، لِيَعُودَ لِبَعْضِ ِ مَا قَالَ فَأَقَعُ بِهِ، وَكَانَ رَجُلاً خَفِيفاً، حَدِيدَ الوَجْهِ، حَدِيدَ اللِّسَانِ، حَدِيدَ النَّظَرِ. قَالَ: إِذْ خَرَجَ نحو بَابِ المَسْجِدِ يَشْتَدُّ. قَالَ: فَقُلْتُ في نَفْسِي: مَا لَهُ لَعَنَهُ اللَّهُ! أَكُلُّ هَذَا فَرَقٌ مِنِّي أَنْ أُشاتِمَهُ! قَالَ: وَإِذا هُوَ قَدْ سَمِعَ مَا لَمْ أَسْمَعْ: صَوْتُ ضَمْضَم ِ بنِ ِ عَمْرٍو الغِفَارِيِّ، وَهُوَ يَصْرَخُ بِبَطْنِ ِ الوَادِي وَاقِفاً عَلى بَعِيرِهِ، قَدْ جَدَّعَ بَعِيرَهُ، وَحَوَّلَ رَحْلَهُ، وَشَقَّ قَمِيصَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: يا مَعْشَرَ قُرَيْش ٍ ، اللَّطِيمَةَ، اللَّطِيمَةَ، أَمْوالَكُمْ مَعَ أَبِي ِ سُفْيَانَ قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمَّدٌ في أَصْحَابِهِ، لاَ أَرَى أَنْ تُدْرِكُوها، الغَوْثَ الغَوْثَ. قَالَ: فَشَغَلَني عَنْهُ وَشَغَلَهُ عنِّي مَا جَاءَ مِنَ الأَمْرِ.

فَتَجَهَّزَ النَّاسُ سِراعاً، وَقَالُوا: أَيَظُنُّ مُحَمَّدٌ وَأَصْحابُهُ أَنْ تَكُونَ كَعِيرِ ابنِ ِ الحَضْرَمِيِّ، كلاَّ وَاللَّهِ لَيَعْلَمَنَّ غَيرَ ذَلِكَ[1].

---

(١) سيرة ابن هشام.

وَلَمَّا كانَتْ قُرَيْشٌ بِمَرِّ الظَّهْرانِ في طَرِيقِها إِلى بَدْرٍ هَبَّ أَبُو جَهْلٍ مِنْ نَوْمِهِ فَصاحَ فَقالَ: أَلاَ تَبَّاً لِرَأْيِكُمْ ماذا صَنَعْتُمْ، خَلَّفْتُمْ بَنِي هَاشِمٍ وَراءَكُمْ فَإِنْ ظَفِرَ بِكُمْ مُحَمَّدٌ كَانُوا مِنْ ذَلِكَ بِنَحْوِهِ، وَإِنْ ظَفِرْتُمْ بِمُحَمَّدٍ أَخَذُوا آثارَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ قَرِيبٍ مِنْ أَوْلاَدِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ، فَلاَ تَذَرُوهُمْ في بَيْضَتِكُمْ وَفِنَائِكُمْ وَلَكِنْ أَخْرِجُوهُمْ مَعَكُمْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ غَنَاءٌ، فَرَجَعُوا إِلَيْهِمْ فَأَخْرَجُوا العَبَّاسَ بنَ عبدِ المُطَّلِبِ وَنَوْفَلاً وَطَالِباً وَعَقِيلاً كُرْهاً[1].

في بَدْرٍ:

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدْ كَانَ مَنْ كَانَ مِنَّا بِمَكَّةَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ قَدْ أَسْلَمُوا فَكَانُوا يَكْتُمونَ إِسْلاَمَهُمْ وَيَخَافُونَ يُظْهِرُونَ ذَلِكَ فَرَقاً مِنْ أَنْ يَثِبَ عَلَيْهِمْ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَيُوثِقُوا كَمَا أَوْثَقَتْ بَنُو مَخْزُومٍ سَلَمَةَ بنَ هِشَامٍ وَعَيَّاشَ بنَ أَبي رَبِيعَةَ وَغَيْرِهِما فَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَليهِ وَسَلَّمَ، لأَصحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ: مَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ العَبَّاسَ وَطَالِباً وَعَقِيلاً وَنَوْفَلاً وَأَبا سُفْيَانَ[2] فَلاَ تَقْتُلُوهُمْ فَإِنَّهُمْ أُخْرِجُوا مُكْرَهِينَ[3].

(١) طبقات ابن سعد ٤/ ١٠.
(٢) أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم.
(٣) طبقات ابن سعد.

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَيْضَاً أَنَّ النَّبِيَّ، عَلَيْهِ السَّلامُ، قَالَ لإِصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ: إِنِّي عَرَفْتُ أَنَّ رِجَالاً مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كُرْهَاً لاَ حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَداً مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلاَ يَقْتُلْهُ، مَنْ لَقِيَ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمِّ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فَلاَ يَقْتُلْهُ فإنَّما أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهَاً. قَالَ: فَقَالَ أَبُو حُذَيْفَةَ بنُ عُتْبَةَ بنِ رَبيعةَ: نَقْتُلُ آباءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وإِخْوانَنا وَعَشَائِرَنا وَنَتْرُكُ العَبَّاسَ؟ وَاللَّهِ لَئِنْ لَقيتُهُ لأُلْحِمَنَّهُ السَّيْفَ. قَالَ: فَبَلَغَتْ مَقَالَتُهُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ: يَا أَبَا حَفْصٍ، قَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لأَوَّلُ يومٍ كنَّاني فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَبِي حَفْصٍ، أَيُضْرَبُ وَجْهُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ بالسَّيْفِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي وَلأَضْرِبْ عُنُقَ أَبِي حُذَيْفَةَ بِالسَّيْفِ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ نَافَقَ. قَالَ وَنَدِمَ أَبُو حُذَيْفَةَ على مَقَالَتِهِ فَكَانَ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَنا بآمِنٍ مِنْ تِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتي قُلْتُ يَوْمَئِذٍ وَلاَ أَزَالُ منها خَائِفاً إِلاَّ أَنْ يُكَفِّرُها اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، عَنِّي بالشَّهَادَةِ. فَقُتِلَ يَوْمَ اليمامَةِ شَهِيداً(١).

وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ الفَاصِلَةُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ،

---

(١) انظر الطبقات وسيرة ابن هشام.

وَحَمِيَ الوَطِيسُ وَلَمْ يُقَاتِلِ العَبَّاسُ، وَلَكِنَّهُ أُسِرَ فِيمَنْ أُسِرَ، وَكَانَ الَّذِي أَسَرَهُ أَبُو اليَسَر كَعْبُ بنُ عَمْرٍو أَخُو بَنِي سَلَمَةَ، وَكَانَ أبو اليَسرِ رَجُلاً مَجْمُوعاً وَكَانَ العَبَّاسُ رَجُلاً جَسِيماً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأَبِي اليَسَرِ: كَيْفَ أَسَرْتَ العَبَّاسَ يَا أَبا اليَسرِ؟. فَقَالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ أَعَانَنِي عَلَيْهِ رَجُلٌ مَا رَأَيْتُهُ قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ، هَيْئَتُهُ كَذَا وَهيْئَتُهُ كَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: لَقَدْ أَعَانَكَ عَلَيْهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ(١).

وَقَالَ أَبُو اليَسَرِ: نَظَرْتُ إِلَى العَبَّاسِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُوَ وَاقِفٌ كَأَنَّهُ صَنَمٌ، وَعَيْنَاهُ تَذْرُفَانِ. فَقُلْتُ: جَزَاكَ اللَّهُ مِنْ ذِي رَحِمٍ شَرًّا! أَتُقَاتِلُ ابنَ أَخِيكَ مَعَ عَدُوِّهِ؟ قَالَ: مَا فَعَلَ، أَقُتِلَ؟ قُلْتُ: اللَّهُ أَعَزُّ لَهُ وَأَنْصَرُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: مَا تُرِيدُ إِلَيَّ؟ قُلْتُ: الأَسْرُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَهَى عَنْ قَتْلِكَ. قَالَ: لَيْسَتْ بِأَوَّلِ صِلَتِهِ، فَأَسَرْتُهُ ثُمَّ جِئْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

فَالعَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَعَ قُوَّتِهِ الَّتِي عُرِفَ بِهَا،

---

(١) طبقات ابن سعد ٤/ ١٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٨١.

وَشَجَاعَتِهِ الَّتي اشْتُهِرَ بِها، لَمْ يُقَاتِلْ، وَلم يُشْهِرْ سَيْفاً، وَمَا ذَلِكَ عَنْ جُبْنٍ وَلاَ ضَعْفٍ وَلَكِنَّهُ لا يُرِيدُ أَنْ يُقاتِلَ ابنَ أخيهِ وَأَصْحابَهُ من إِخوانِهِ المُسلمينَ، وَلَو كانَ لاَ يُحِبُّ أَنْ يُحارِبَ ابنَ أَخيه فَقَطْ لَتجَنَّبَهُ فِي القِتَالِ، وَأَعْمَلَ السَّيْفَ في غَيْرِهِ، إِلاّ أَنَّهُ لا يَرْغَبُ في حَرْبِ أَحَدٍ مِنَ المُسْلِمينَ.

فِي الأَسْرِ:

لَقَدْ كَانَ العَبَّاسُ، رَضي اللَّهُ عَنْهُ، بَيْنَ الأَسْرى، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يَخْشى عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُصَابَ بِأَذى، وَعَمَلُهُ في سَبيلِ اللَّهِ. فَسَهِرَ النَّبيُّ، صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَيْلَتَهُ فقَالَ لَهُ بَعضُ أَصْحَابِهِ: مَا أَسْهَرَكَ يا نَبيَّ اللَّهِ؟ فَقَالَ: أَنِينُ العَبَّاسِ. فَقَامَ رَجُلٌ فَأَرْخَى مِنْ وَثَاقِهِ، فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا لِي لاَ أَسْمَعُ أَنِينَ العَبَّاسِ؟ فقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَومِ: إِنِّي أَرْخَيْتُ مِنْ وَثاقِهِ شَيْئاً، قَالَ: فَافْعَلْ ذَلِكَ بِالأَسَارَى كُلِّهِمْ[1].

واسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، أَصْحابَهُ في مَوْضُوعِ الأَسْرَى، فَسَأَلَ أَبا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعَليّاً،

---

(١) طبقات ابن سعد.

وَعَبْدَ اللَّهِ بنَ رَوَاحَـةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بـنَ جَحْشٍ، رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْهُمْ، فقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هؤُلاَءِ بَنُو العَمِّ والعشيرةِ والإِخْوانِ، قَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ الظَفَرَ ونَصرَكَ عَلَيْهِمْ، أَرى أَنْ تَسْتَبْقِيهِمْ وَتَأْخُـذَ الفِدَاءَ مِنْهُمْ، فَيَكُونُ مَا أَخَذْنا مِنْهُـمْ قوة لَنَـا عَلَـى الكُفَّـارِ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ بِكَ فَيَكُونُون لَنَا عَضُداً[1].

إِنَّ أَبَا بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَعْرِفُ وَحْدَهُ الدَّوْرَ الذي يَقُومُ بِهِ العَبَّاسُ فَلا يُمْكِنُ أَنْ يَقْتَرِحَ القَتْلَ، وَلاَ يَعْـرِفُ هَذا سِواهُ فاقترَحُوا القَتْلَ لأَنَّ أَكْثَرَ الأَسَارَى مِنَ الأَعْدَاءِ الأَلِدَّاءِ الَّذِينَ ذَاقَ مِنْهُمُ المُسْلِمُونَ الأَذَى الكَثِيرَ في مَكَّةَ يَوْمَ كَانُوا فِيها.

وَقَبِلَ رَسُولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيهِ وَسَلَّـمَ، الفِـدَاءَ مِنَ الأَسْـرَى، فَغَـدا مَنْ فَدَا نَفْسَـهُ وَمِنْهُـمْ مَنْ أَرْسَـلَ ذَووهُ في فِـدَائِهِ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، للعبَّاسِ: «افـدِ نَفْسَـكَ، وابـنَ أَخيكَ عَقِيلاً، وَنَوْفَلَ بـنَ الحـارِثِ، وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بنَ جَحْدَمٍ». فَأَبَى وَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ مُسْلِماً قَبْلَ ذَلِكَ، وَإِنَّما استكْرَهُونِي. قَالَ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِشَأْنِكَ، إِنْ يَكُ مَا تَدَّعِي حَقَّاً، فَاللَّهُ يُجزيكَ بِذَلِكَ، وأَمَّا ظَاهِرُ أَمْرِكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنا فافْدِ نَفْسَكَ».

---

(١) السيرة الحلبية.

وَكَانَ رسُولُ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، قَدْ عَرَفَ أَنَّ العَّباسَ أُخِذَ مَعَهُ عِشْرين أُوقيةً ذَهَباً. فَقَالَ: يا رسُولَ اللَّهِ، احْسُبْهـا لي مِنْ فِدائـي. قَالَ: «لاَ، ذَاكَ شيءٌ أَعْطَانَـا اللَّـهُ مِنْكَ». قَالَ: فَإِنَّهُ لَيْسَ لي مَالٌ! قَالَ: «فَـأَيْنَ المَـالُ الَّـذي وَضَعْتَهُ بِمَكَّةَ عِنْدَ أُمِّ الفَضْلِ، وَلَيْس مَعَكُمـا أَحَـدٌ غيرُكمـا، فَقُلْـتَ: إِنْ أُصِبْـتُ فِي سَفَـرِي فَلِلْفَضْـلِ كَذَا، لِقُثَـمَ كَذَا، وَلِعَبْدِ اللَّهِ كَذَا؟».

قَالَ: فَوَالَّذي بَعَثَكَ بِالحقِّ مَا عَلِمَ بِهَذَا أَحَدٌ مِنَ النَّـاسِ غَيرُها، وإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ[1].

إِنَّ دَوْرَ العبَّاسِ في مَكَّةَ لم يَنْتَهِ بَعْدُ، لِذَا فَقَدْ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، عِنْدَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ «اللَّهُ أَعْلَمُ بِشَأْنِكَ، إِنْ يَكُ مَا تَدَّعِي حَقّاً، فاللَّهُ يَجْزِيكَ بِذَلِكَ، وَأَمَّا ظَاهِرُ أَمْرِكَ فَقَدْ كانَ عَلينا فَافْدِ نَفْسَكَ. ولاَ يُمكِنُ لِرسُولِ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَقُولَ غَيْرَ ذَلِكَ، لأَنَّهُ لَوْ قَالَ لانْكَشَفَتِ الخِطَّةُ وَلَمْ يَعُدِ العَبَّـاسُ قَادِراً أَنْ يؤَدِّيَ أيَّ دَوْرٍ، فَلاَ بُدَّ مِنَ التَّمْويهِ كَيْ تَبْقَى الخِطَّةُ مُحْكَمَةً.

---

(١) سير أعلام النبلاء.

وَهذا كُلُّهُ يَدُلُّ على أَنَّ العَبَّاسَ، رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَدْ أَسْلَمَ قَبْلَ الهِجْرَةِ، وَأَعْتَقِدُ قَبْلَ العَقَبَةِ. وَإِنَّ مُخَاطَبَةَ البَرَاءِ بنِ مَعْرُورٍ لَهُ يَوْمَ العَقَبَةِ مَا يُنْبِىءُ عَلَى ذَلِكَ [وَقَدْ كُنَّا على مَا كُنَّا عليه من عِبَادَةِ حَجَرٍ وَنَحْنُ كَذَا فَكَيْفَ بِنَا حِينَ بَصَّرَنَا اللَّهُ مَا أَعْمَى عَلَى غَيْرِنَا...]. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى قِدَمِ إِسْلاَمِهِ مَا جَاءَ فِي طَبَقَاتِ ابنِ سَعْدٍ رِوَايَةً عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: أَسْلَمَ العَبَّاسُ بِمَكَّةَ قَبْلَ بَدْرٍ، وَأَسْلَمَتْ أُمُّ الفَضْلِ مَعَهُ حِينَئِذٍ، وَكَان مُقَامُهُ بِمَكَّةَ، إِنَّهُ كَانَ لاَ يُغَبِّي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَكَّةَ خَبَرَاً يَكُونُ إِلاَّ كَتَبَ بِهِ إِلَيْهِ، وَكَانَ مَنْ هُنَاكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ يَتَقَوَّوْنَ بِهِ وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ لَهُمْ عَوْناً عَلَى إِسْلاَمِهِمْ. وَلَقَدْ كَانَ يَطْلُبُ أَنْ يَقْدُمَ عَلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، عَلَيْهِ السَّلاَمُ: إِنَّ مُقَامَكَ مُجَاهَدٌ حَسَنٌ، فَأَقَامَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ أَطْعَمَهُ بِخَيْبَرَ مائتي وَسَقِ تَمْرٍ في كُلِّ سَنَةٍ، وَالعَبَّاسُ لَمْ يَزَلْ بِمَكَّةَ لَمْ يُعْلِنْ

---

(١) الطبقات ٤/ ٣١.

إِسْلامَهُ، فَكَيْفَ يُطْعِمُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، إِنْسَانَاً مُشْرِكاً؟.

إِنَّ العَبَّاسَ كَانَ بِمَكَّةَ، وَرَسُـولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِخَيْبَرَ قَدْ فَتَحَها، وَقَدِمَ الحَجَّاجُ بنُ عِلاَطٍ السَّلَمِيّ مَكَّةَ فَأَخْبَرَ قُرَيْشاً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا أَحَبُّوا أَنَّهُ قَدْ ظُفِرَ بِهِ وَقُتِلَ أَصْحَابُهُ فَسُرُّوا بِذَلِكَ، وَأَقْطَـعَ العَبَّـاسَ خَبَـرُهُ وَسَاءَهُ وَفَتَحَ بَابَهُ وَأَخَذَ ابنَهُ قُثَمَ فَجَعَلَهُ عَلَى صَدْرِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

يَا قُثَم يا قُثَم يَا شِبْهَ ذِي الكَرَمِ

حَتَّى جَاءَهُ الحَجَّاجُ فَأَخْبَرَهُ بِسَلاَمَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ قَدْ فَتَحَ خَيْبَرَ وَغَنَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا فيها فَسُرَّ بِذَلِكَ العَبَّاسُ وَلَبِسَ ثِيابَهُ وَغَدا إِلى المَسْجِدِ فَدَخَلَـهُ وَطَـافَ بِالبَيْتِ وَأَخْبَرَ قُرَيْشاً بِمَا أَخْبَرَهُ بِهِ الحَجَّاجُ مِنْ سَلاَمَةِ رسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ فَتَحَ خَيْبَرَ وَمَا غَنَّمَهُ اللَّهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَكُبِتَ المُشْرِكُونَ وَسَاءَهُمْ ذَلِكَ وَعَلِمُوا أَنَّ الحَجَّاجَ قَدْ كَانَ كَذَبَهُمْ في خَبَرِهِ الأَوَّلِ، وَسَرَّ ذَلِكَ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمكةَ وَأَتُوا العَبَّاسَ فَهَنَّأُوهُ بِسَلاَمَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ خَرَجَ العَبَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَحِقَ بِالنَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالمَـدِينَةِ فَأَطْعَمَهُ بِخَيْبَرَ مائتي وَسَـقَ تَمْـرٍ في كُلِّ سَنَـةٍ، ثُمَّ

خَرَجَ مَعَهُ إلَى مكَّةَ[١] فَشَهِدَ فَتْحَ مكَّةَ وَحُنَيْنٍ وَالطَّائِفِ وَتَبُوكَ، وَثَبَتَ مَعَهُ يَوْمَ حُنَيْنٍ في أَهْلِ بَيْتِهِ حِينَ انْكَشَفَ النَّاسُ عَنْهُ[٢].

إذَنْ فَالعَبَّاسُ قَدْ آمَنَ مُنْذُ مُدَّةٍ وَبَقِيَ في مَكَّةَ في مُهِمَّةٍ يُؤَدِّيها وَدَوْرٍ يَقُومُ بِهِ. فَلَمَّا انتَهَى دَوْرُهُ هَاجَرَ. فَالقِيادَةُ يُمْكِنُ أَنْ تَضَعَ عُيُوناً بَيْنَ أَعْدائِها، وَلاَ يَعْرِفُ أَحَدٌ هَذِهِ العيونَ سِوى القِيادَةِ لأَنَّ القَوَاعِدَ لَوْ عَلِمَتْ ذَلِكَ لاَنْكَشَفَتْ الخِطَّةُ، وَضَاعَت الفَائِدَةُ المرجُوَّةُ والمُرْسُومَةُ مِنْ قِبَلِ القيادَةِ. وَرُبَّما يَقُولُ أَحَدُهُمْ: إنَّ الوَحْيَ يُمكِنُ أَنْ يُنْبِىءَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَخْبَارِ قُرَيْشٍ كُلِّها. ولَكِنَّ الرِّسَالَةَ لَيْسَتْ لِمَرْحَلَةِ النُّبُوَةِ فَقَطْ وَإنَّما لِكُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنَ المَرَاحِلِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَرَسُولُ اللَّهِ، عَلَيْه السَّلامُ، قُدْوَةٌ لِلمُسْلِمِينَ جَميعاً في كُلِّ أَدْوَارِ حَيَاتِهِمْ لاَ لأَصْحَابِهِ فَحَسْبُ، فَنَحْنُ الَّذِينَ يَجِبُ أَنْ نَسيرَ عَلَى خُطَاهُ وَنَتَّبعَ نَهْجَهُ فَإذَا كَانَ الوَحْيُ يُطْلِعُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، عَلَى أَخْبَارِ أَعْدَائِهِ فَمَنْ

---

(١) كان النبيُّ، صلَّى الله عليه وسلم، في طريقه الى فتح مكة فالتقى معه، فتابع أهل العباس سيرهم إلى المدينة، ورجع العباس مع رسول اللَّه، صلَّى الله عليه وسلم، فشهد معه فتح مكة.

(٢) طبقات ابن سعد ٤/ ١٧ ـ ٧١٨

يُطْلِعُنَا عَلَى أَنْبَاءِ خُصُومِنَا، وَقَدِ انقَطَعَ الوَحْيُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ إِنَّ الإِسْلاَمَ قَدْ نَزَلَ لِيُطَبَّقَ بِجُهُودِ البَشَرِ وَمُمَارَسَتِهِمْ لاَ بِالمُعْجِزَاتِ، وَقَدْ كَانَ مَلَكٌ وَاحِدٌ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُزَلزِلَ الأَرْضَ كُلَّها بِالكُفَّارِ، وَيَقْضِي عَلَيْهِمْ جَمِيعَهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ نِهَايَةُ المُشْرِكِينَ عَلى يَدِ المُسْلِمِينَ لا بِالمُعْجِزَاتِ وَالقُوَّةِ الخَارِقَةِ. وَعَلى المُسْلِمِينَ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْ يَسْتَعِدُّوا الاستعدَادَ كُلَّهُ وَيَبْذلُوا الجُهْدَ كُلَّهُ، وَيَطْلِبُوا النَّصْرَ مِنَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ يَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَيَنْصُرُوهُ في تَطْبِيقِ مِنْهَجِهِ عَلى أَنْفُسِهِمْ وفي الأَرْضِ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ. وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلى اللَّهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ. وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالمُؤْمِنِينَ[1]﴾. وَكَذَلِكَ فَإِنَّ القِيَادَةَ تُخْفِي عَلى القَوَاعِدِ النَّوَاحِيَ الْعَسْكَرِيَّةَ كَيْ لاَ يَتَسَرَّبُ الأَمْرُ إِلى الأَعْداءِ

---

(١) سورة الأنفال ٦٠ ـ ٦٢.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ إِذَا أَرَادَ السَّيْرَ إِلى جِهَةٍ غَازِياً وَرَّى عَنْها، وَأَنَّهُ حِينَ أَرادَ التَّوَجُّهَ إِلَى مَكَّةَ لِفَتْحِها لَمْ يُعْلِنْ عَنْ ذَلِكَ، فَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَهْلَهُ أَنْ يُجَهِّزُوهُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى ابْنَتِهِ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَهِيَ تُحَرِّكُ بَعْضَ جِهَازِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّة: أَأَمَرَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ تُجَهِّزُوهُ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَتَجَهَّزَ؛ قَالَ: فَأَيْنَ تَرَيْنَهُ يُرِيدُ؟ قَالَتْ: لاَ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّهُ سَائِرٌ إِلَى مَكَّةَ، وَأَمَرَهُمْ بِالجِدِّ والتَّهَيُّؤ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ خُذِ العُيُونَ والأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتَّى نَبْغَتَها فِي بِلادِها.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ عِنْدَمَا عَلِمَ النَّاسُ وَجْهَةَ رَسُولِ اللَّه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، كَتَبَ حَاطِبُ بنُ أَبِي بَلْتَعَةَ بِالخَبَرِ إِلى قُرَيْشٍ وَأَرْسَلَ الكِتَابَ مَعَ امرأةٍ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ والزُّبَيْرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، فِي أَثَرِ المرأَةِ فَأَعَادَاهَا فَاسْتَخْرَجَتِ الكِتَابَ مِنْ بَيْنِ ضَفَائِرِها. مَعَ العِلْمِ أَنَّ حَاطِبَ بنَ أَبِي بَلْتَعَةَ مِنْ صَحابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، الكِرَامِ، وَمِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ، وَلَكِنَّهُ أَخْطَأَ.

وَالخَطَـأُ يُمْـكِنُ أَنْ يَقَـعَ دَائِمَـاً، وَالْمَوَاضِـعُ الَّتِـي يَقَـعُ فِيها الخَطَـأُ كَثِيرَةٌ، وَالمَوَاقِـعُ الَّتِـي تَزِلُّ فيهـا الأَقْـدَامُ شَتَّـى، والمَواطِنُ الَّتِي تَضْعُفُ فيها النُّفُوسُ البَشَرِيَّةُ مُتَعَدِّدَةٌ، فَالسِّرِيَّةُ يَتَجَنَّبُ بِهَا المَرْءُ هَذَا كُلَّهُ. لِذَا فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يُطْلِعْ أَحَداً عَلَى دَوْرِ العَبَّاسِ سِوى أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلِهَـذَا فقَـدْ بَقِـيَ الأَمْـرُ غَامِضَـاً وَإِنْ كَانَـتِ الأَحْداثُ كُلُّها تُشِيرُ إِلَيْهِ حَسْبَمَـا يَتَـراءَى لِيَ أَوْ هَكَذَا أَرَى. فَالقِيَادَاتُ الَّتِي تُطْلِعُ قَواعِدَهَا عَلَـى مُخَطَّطَاتِهـا وَسَيْرِ عَمَلِهَـا وَتُوَضِّحُ لَهُمُ الطَرِيقَ كَيْ يَكُونُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَيَعْرِفُـوا إِلَى أَيْنَ يَتَّجِهُونَ! وَلا يكونوا مِثْلَ بَعْضِ الجَمَاعَاتِ الَّتِي تَسِيرُ كَالسَّوَائِمِ بِإِشَارَةِ رَاعِيها إِنَّ هَذِهِ القِيادَاتِ يَجِـبُ إِنْ تُخْفِـيَ الجَوانِـبَ العَسْكَرِيَّةَ وَعُيُونَهـا بَيْنَ أَعْدَائِهـا وَإِلاَّ فَلاَ مَعْنَـى لِتَخْطِيطِها وَلاَ مَعْنَى لِتَنْظِيمِها، أَوْ تَكُونُ قَدْ أَلْقَتْ شَبَابَهـا فِي مَخَالِبِ خَصْمِها بِجَهْلِها.

وَإِنَّ الشَّبَـابَ الَّـذِينَ يُتَابِعُـونَ القِيَادَةَ فِي هَذَا الجَانِـبِ، وَيَتَحَدَّثُونَ فِي هَذَا المَوْضُوعِ دَائِمَـاً يَجِبُ الانْتِبَـاهُ عَلَيْهِـمْ وَالحَذَرَ مِنْهُمْ فَقَدْ يَكُونُ حَدِيثُهُمْ حَماسَةً وَرُبَّمـا ظَهَـرَ مِنْهُـمُ التَّهَوُّرُ وَالغُرُورُ فَأَوْقَعُوا الجَمَاعَةَ فِيمَا تَحْذَرُ مِنْهُ وَتَتَّقِيهِ هَذَا إِذَا

أَحْسَنَّا الظَنَّ . وَرُبَّمَا كَانَ حَدِيثُهُمْ الرَّغْبَةَ فِي الوُصُولِ إِلَى المَنْصِبِ، وهُنَا يَكْمُنُ الخطَرُ فالعَمَلُ كُلُّهُ لِلْمَصْلَحَةِ الذَّاتِيَّةِ وَوَرَاءَ المَكَاسِبِ. يَنْظُرُونَ إِلَى الوُصُولِ دُونَ أَنْ يُفَكِّرُوا فِيمَا تَؤُولُ إِلَيْهِ النَّتِيجَةَ. وَحَالَةٌ ثَالِثَةٌ نَتَوَقَّعُهَا هِيَ غَرْسُ فِرْقَةٍ في الجَمَاعَةِ لِيَسِيرَ بِهَا إِلى الهَاوِيَةِ وَيُنَفِّذَ العَدُوُّ مُخَطَّطَهُ عَنْ طَرِيقِهَا لِتَجُرَّهَا إِلَى مَعْرَكَةٍ غَيْرِ مُتَكَافِئَةٍ وَوَقْتٍ غَيْرِ مُنَاسِبٍ.

وَلْنَعُدْ إِلَى العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نُتَابِعُ رِحْلَةَ حَيَاتِهِ:

الفِدَاءُ:

قَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّم: اِئْذَنْ لَنَا فَلْنَتْرُكْ لابنِ أَخِينَا العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ فِدَاهُ، فقَال: لاَ، ولاَ دِرْهَماً.

وَفَدَى العَبَّاسُ نَفْسَهُ وَابنَ أَخِيهِ عَقِيلاً بِثمانين أوقية ذَهبٍ، وَيُقالُ: أَلْفَ دِينارٍ. قَالُوا: وَخَرَجَ العَبَّاسُ إِلى مَكَّةَ فَبَعَثَ بِفِدَائِهِ وَفِدَاءِ ابنِ أَخيه وَلَمْ يَبْعَثْ بِفِدَاءِ حَلِيفِهِ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَسَّانَ بنَ ثَابِتٍ فَأَخْبَرَهُ وَرَجَعَ أَبُو رَافِعٍ فَكَانَ رَسُولَ العَبَّاسِ بِفِدَائِهِ فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ: مَا

قالَ لَكَ؟ فَقَصَّ عَلَيْهِ الأَمْرَ فقَـالَ: وَأَيُّ قَوْلٍ أَشَـدُّ مِنْ هَذَا؟ احْمل ِ البَاقِي قَبْلَ أَنْ تَحُطَّ رَحْلَكَ، فَحَمَلَهُمْ فَفَدَاهُمُ العَبَّاسُ.

وَنَزَلَتْ في أَسْرَى بَدْر الآيَةَ الكَرِيمَةَ ﴿يَا أَيُّها النَّبيُّ قُلْ لِمَنْ في أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَم ِ اللَّهُ في قُلُوبِكم خيراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١). كَانَ العَبَّاسُ يَقُولُ: أُخِذَتْ مِنِّي عِشْرُونَ أُوقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ فَكَلَّمْـتُ رَسُولَ اللَّـهِ أَنْ يَجْعَلَها مِنْ فِدَايَ فَأَبَى عَلَـيَّ، فَأَعْقَبَنِـي اللَّـهُ مَكَانَها عِشْرِينَ عَبْداً كُلُّهُمْ يُضْرَبُ بِمَالٍ مَكَانَ عِشْرِينَ أُوقِيةً، وَأَعْطَانِي زَمْزَمَ وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِها جَمِيعَ أَمْوَالِ مَكَّةَ، وَأَنَـا أَرْجُو المَغْفِرَةَ مِنْ رَبِّي.

العَبَّاسُ فِي مَكَّةَ:

يَبْدُو أَنَّهُ قَدْ أَسلَمَ كُلُّ مَنْ شَهِدَ بَدْراً مَعَ المُشْرِكِينَ مِنْ بَنِي هاشِمٍ، وَقَدْ أُمِرُوا بِالعَوْدَةِ إِلَى مَكَّةَ لِيُقِيمُوا ما كانُوا يُقيمُونَ مِنْ أَمرِ السِّقَايَةِ والرِّفَادَةِ والرِّئَاسَةِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي لَهَبٍ. وَكَانَـتِ السِّقَـايَةُ والرِّفَـادَةُ والرِّئَاسَـةُ في الجَـاهِلِيَّة في بنــي

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٠.

هَاشِمٍ .وَيَبْدُو أَنَّ هَذَا الكَلاَمَ يَنْطَبِقُ عَلَى مَا كَانَ مَعَ العَبَّاسِ ، أَمَّا هُوَ فَقَدْ كَانَ سابقاً لَهُمْ فِي الإِسْلاَمِ وَمِنْ مُدَّةٍ. قَالَ أَبُو رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كُنْتُ غُلاَماً لِلْعَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَكَانَ الإِسْلاَمُ قَدْ دَخَلَنَا أَهْلَ البَيْتِ فَأَسْلَمَ العَبَّاسُ وَأَسْلَمتْ أُمُّ الفَضْلِ وَأَسْلَمْتُ، فَكَانَ العَبَّاسُ يهَابُ قَوْمَهُ وَيكْرَهُ خِلاَفَهُمْ فَكَانَ يَكْتُمُ إِسْلاَمَهُ، وَكَانَ ذَا مَالٍ مُتَفَرِّقٍ فِي قَوْمِهِ فَخَرَجَ مَعَهُمْ عَلَى بَدْرِ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ[1] .

وَكَان يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ أَخْبَارِ قُرَيْشٍ لاَ يَضِيعُ عَنْهُ خَبَرٌ وَاحِدٌ، وَقَد اسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بِالْهِجْرَةِ، فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ، وَإِنَّما طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَبْقَى مَكَانَهُ، يُؤَدِي دَوْرَهُ الَّذِي طُلِبَ مِنْهُ[2]. وَلَمْ يَخْرُجِ العَبَّاسُ مَعَ قُرَيْشٍ إِلَى الحُدَيْبِيَّةِ، وَإِنَّما بَقِيَ فِي مَكَّةَ، وَكَانَ يُسَاعِدُ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بَقُوا فِي مَكَّةَ وَلَمْ يُهَاجِرُوا.

وَقَوِيَتِ الدَّوْلَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ فِي المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ بَعْدَ صُلْحِ

---

(١) الطبقات ٤ / ١٠.

(٢) أنظر الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، وطبقات ابن سعد، وسير أعلام النبلاء.

الحُدَيبيَّةِ وَفَتْحِ خَيبَرَ، وَنَقَضَتْ قُرَيْشٌ عَهْدَهَا فَسَارَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ دَوْرُ العَبَّاسِ قَدِ انْتَهَى إِذ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بِجَيْشٍ لاَ قِبَلَ لَقُرَيْشٍ بِهِ، فَخَرَجَ العَبَّاسُ مَعَ أَهْلِهِ مُهَاجِراً عِنْدَهَا، فَالْتَقَى بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالجُحْفَةِ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مَكَّةَ فاتِحاً، فَرَجَعَ العَبَّاسُ مَعَهُ، وَتَابَعَ أَهْلُ العَبَّاسِ طَرِيقَهُمْ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ.

كَمَا الْتَقَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِنِيقِ العُقَابِ فِي طَرِيقِه إِلَى مَكَّةَ مَعَ ابنِ عَمِّهِ أَبِي سُفْيانَ بنِ الحَارِثِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَمَعَ ابنِ عَمَّتِهِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أَبِي أُمَيَّةَ المَخْزُومِيِّ، وَأُمُّهُ عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَأَسْلَمَا بَعدَ أَنْ كَلَّمَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فِيهِمَا أُمُّ المُؤْمِنِينَ أُمُّ سَلَمَةَ، وَهِيَ أُخْتُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أَبِي أُمَيَّةَ لأَبِيهِ.

فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، مَرَّ الظَّهْرَانِ، قَالَ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقُلتُ: وَاصَبَاحَ قُرَيْشٍ! وَاللَّهِ لَئِنْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، مَكَّةَ عَنْوَةً قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُ فَيَسْتَأْمِنُوهُ إِنَّهُ لَهَلاَكُ قُرَيْشٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ. قَالَ: فَجَلَسْتُ عَلى بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، البَيْضَاءِ، فَخَرَجْتُ عَلَيْهَا. قَالَ: حَتَّى جِئْتُ الأَراكَ، فَقُلْتُ: لَعَلِّي أَجِدُ بَعْضَ الحَطَّابَةِ أَو صَاحِبَ لَبَنٍ أَو ذَا حَاجَةٍ يَأْتِي مَكَّةَ فَيُخْبِرُهُمْ بِمَكَانِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِيَخْرُجُوا إِلَيْهِ فَيَسْتَأْمِنُوهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عَنْوَةً. قَالَ: فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَسِيرُ عَلَيْها، وَأَلْتَمِسُ مَا خَرَجْتُ لَهُ، إِذْ سَمِعْتُ كَلَامَ أَبِي سُفْيَانَ وَبَدِيلِ بنِ وَرْقَاءَ، وَهُمَا يَتَرَاجَعَانِ، وَأَبُو سُفْيَانَ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ نِيرانَاً قَطُّ وَلاَ عَسْكَراً! قَالَ: يَقُول بَدِيلُ: هَذِهِ واللَّهِ خُزَاعَةُ حَشَمَتْها الحَرْبُ قَالَ: يَقُولُ أَبُو سُفيَانَ: خُزَاعَةُ أَذَلُّ وَأَقَلُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ نِيرانُها وَعَسْكَرُهَا؛ قَالَ: فَعرِفْتُ صَوْتَهُ؛ فَقُلْتُ: يَا أَبَا حَنْظَلَةَ، فَعَرِفَ صَوْتِي، فَقَالَ: أَبُو الفَضْلِ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ؛ قَالَ: مَالَكَ؟ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؛ قَالَ: قُلْتُ: وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! هَذَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي النَّاسِ، وَاصَبَاحَ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ! قَالَ: فَمَا الحِيلَةُ؟ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؛ قَالَ: قُلْتُ: وَاللَّهِ لَئِنْ ظَفِرَ بِكَ لَيَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ، فَارْكَبْ فِي عَجُزِ هَذِهِ البَغْلَةِ حَتَّى آتِيَ بِكَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْتَأْمِنُهُ لَكَ؛ قَالَ: فَرَكِبَ خَلْفِي وَرَجَعَ صَاحِبَاهُ؛ قَالَ: فَجِئْتُ بِهِ، كُلَّمَا مَرَرْتُ بِنَارٍ مِنْ نِيرانِ المُسْلِمِينَ قَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَإِذَا رَأَوْا بَغْلَةَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا

عَلَيْها، قَالُوا: عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عليْهِ وَسَلَّم، عَلَى بَغْلَتِهِ، حتَّى مَرَرْتُ بِنَارِ عُمَرَ بن الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ وَقَامَ إِليَّ، فَلَمَّا رَأَى أَبا سُفْيانَ عَلَى عَجُزِ الدَّابَةِ قَالَ: أَبُو سُفْيَانَ عَدُوّ اللَّهِ! الحَمدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمْكَنَ مِنْكَ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلا عَهْدٍ، ثُمَّ خَرَجَ يَشْتَدُّ نَحْوَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَكَّضْتُ البَغْلَةَ، فَسبَقْتُهُ بِمَا تَسبِقُ الدَّابَةُ البَطِيئَةُ الرَّجُلَ البَطِيءَ. قَالَ: فَاقْتَحَمْتُ عَنِ البَغْلَةِ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا أَبُو سُفْيَانَ قَدْ أَمْكَنَ اللَّهُ مِنْهُ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلاَ عَهْدٍ، فَدَعْنِي فَلأَضْرِبْ عُنُقَهُ؛ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ أَجَرْتُهُ، ثُمَّ جَلَسْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذْتُ بِرَأْسِهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ يُنَاجِيهِ اللَّيْلَةَ دُونِي رَجُلٌ، فَلَمَّا أَكْثَرَ عُمَرُ فِي شَأْنِهِ، قَالَ: قُلْتُ: مَهْلاً يَا عُمَرُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَانَ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ بن كَعْبٍ مَا قُلْتَ هَذَا، وَلَكِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ مِنْ رِجَالِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، فَقَالَ: مَهْلاً يَا عَبَّاسُ، فَوَاللَّهِ لإِسْلاَمُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلاَمِ الخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ، وَمَا بِي إِلاَّ أَنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ إِسْلاَمَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ إِسْلاَمِ الخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِذْهَبْ بِهِ يَا عَبَّاسُ إِلـى رَحْلِكَ ، فَإِذَا أَصْبَحْـتَ فَأْتِنِي بِهِ ، قَالَ : فَذَهَبْتُ بِهِ إِلَى رَحْلِي ، فَبَاتَ عِنْـدِي ، فَلَمَّـا أَصْبَحَ غَدَوْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : وَيْحَكَ يَا أَبَـا سُفْيَانَ ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؟ قَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ! وَاللَّهِ لَقَدْ ظَنَنْـتُ أَنْ لَو كَانَ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ غَيْرُهُ لَقَدْ أَغْنَى عَنِّي شَيْئَـاً بَعْـدُ ، قَالَ : وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ! أَمَّا هَذِهِ وَاللَّهِ فَإِنَّ فِي النَّفْسِ مِنْها حَتَّى الآنَ شَيْئَاً . فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ : وَيْحَكَ! أَسْلِمْ وَاشْهَدْ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدَاً رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُكَ . قَالَ : فَشَهِدَ شَهَادَةَ الحَقِّ ، فَأَسْلَـمَ ؛ قَالَ العَبَّاسُ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الفَخْرَ ، فَاجْعَلْ لَهْ شَيْئَاً ، قَالَ : نَعَمْ ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِـي سُفْيَانَ فَهُـوَ آمِـنٌ ، وَمَـنْ أَغْلَـقَ بَابَـهُ فَهُـوَ آمِـنٌ ، وَمَـنْ دَخَلَ المَسْجِـدَ فَهُـوَ آمِـنٌ ، فَلَمَّـا ذَهَـبَ لِيَنْصَـرِفَ قَالَ رَسُـولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَبَّاسُ احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الوَادِي عِنْدَ خَطْمِ الجَبَلِ ، حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللَّهِ فَيَرَاهَا . قَالَ : فَخَرَجْتُ حَتَّى حَبَسْتُهُ بِمَضِيقِ الوَادِي ، حَيْثُ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى

اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، أَنْ أَحْبِسَـهُ. قَالَ: وَمَـرَّتِ القَبَائِـلُ عَلـى رَايَاتِها، كُلَّمَا مَرَّتْ قَبِيلَةٌ قَالَ: يَا عَبَّاسُ، مَنْ هَذِهِ؟ فَأَقُولُ: سُلَيْمُ، فَيَقُولُ: مَالِـي وَلِسُلَيْمُ، ثُمَ تَمُـرُّ القَبِيلَـةُ فَيَقُـولُ: يَا عَبَّاسُ، مَنْ هَؤُلاَءِ؟ فَأَقُولُ: مُزَيْنَةُ، فَيَقُولُ: مَالِي وَلِمُزَيْنَةُ، حَتَّى نَفَذَتْ القَبَائِلُ، مَا تَمُرُّ بِهِ قَبِيلَةٌ إِلاَّ وَيَسْأَلُنِي عَنْها، فَإِذَا أَخْبَرْتُهُ بِهِمْ، قَالَ: مَالِي وَلِبَنِي فلانٍ، حَتَّى مَرَّ رَسُولُ اللَّـهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي كَتِيبَتِهِ الخَضْرَاءِ فِيهَا المُهَاجِرُونَ والأَنْصَارُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُـمْ، لاَ يَرى مِنْهُـمْ إِلاَّ الحَـدَقَ مِنَ الحَدِيدِ، فَقَـالَ: سُبْحَـانَ اللَّـهِ. يَا عَبَّـاسُ مَنْ هَؤُلاَءِ؟ قَالَ: قُلْـتُ: هَذَا رَسُـولِ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، فِي المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ؛ قَالَ: ما لأَحَدٍ بِهَؤُلاَءِ قِبَلٌ ولاَ طَاقَةٌ؛ وَاللَّهِ يَا أَبَا الفَضْلِ، لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابنِ أَخِيكَ الغَدَاةَ عَظِيماً، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا سَفْيَانَ، إِنَّها النُّبُوَةُ. قَالَ: فَنَعَمْ إِذَنْ.

قَالَ: قُلْتُ: النَّجَاءَ إِلَى قَوْمِكَ، حَتَّـى إِذَا جَاءَهُـمْ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، هَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ فِيمـا لاَ قِبَلَ لَكُمْ بِهِ، فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ فَأَخَذَتْ بِشَارِبِهِ، فَقَالَتْ: اقْتُلُوا الحَمِيتَ الدَّسِمَ الأَحْمَسَ قُبِّحَ مِنْ طَلِيعَةِ قَومٍ! قَالَ: وَيْلَكُمْ لاَ تَغُرَّنَّكُمْ هَذِهِ مِنْ

أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَكُمْ مَا لاَ قِبَلَ لَكُمْ بِهِ ، فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، قَالُوا : قَاتَلَكَ اللَّهُ ، وَمَا تُغْنِي عَنَّا دَارُكَ ، قَالَ : وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى دُورِهِمْ وَإِلَى المَسْجِدِ[1] .

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مَكَّةَ فَاتِحاً ، وَعَفَا عَنْ أَهْلِهَا ، بِاسْتِثْنَاءِ نَفَرٍ سَمَّاهُمْ ، ثُمَّ جَاءُوا بَعْدَ مُدَّةٍ مُسْتَأْمِنِينَ مُسْلِمِينَ ، وَدَخَلَ البَيْتَ فَطَافَ بِهِ عَلَى رَاحِلَتِهِ ، وَحَطَّمَ مَا فِيهِ مِنْ أَصْنَامٍ ، وَكَانَ يَقُولُ : جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً . وَأَزَالَ كُلَّ مَعَالِمِ الشِّرْكِ وَالوَثَنِيَّةِ مِنْ بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ .

العَبَّاسُ فِي حُنَيْنٍ :

لَمَّا سَمِعَتْ هَوَازِنُ بِرَسُولِ اللَّهُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، وَمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ مَكَّةَ ، جَمَعَهَا مَالِكُ بنُ عَوْفٍ النَّضَرِيُّ ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مَعَ هَوَازِنَ ثَقِيفُ كُلُّهَا . فَلَمَّا عَلِمَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، خَرَجَ لِيَلْقَاهُمْ ، وَمَعَهُ أَلْفَانِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مَعَ عَشْرَةِ آلاَفٍ مِنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ خَرَجُوا مَعَهُ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام .

فَفَتَحَ اللَّهُ بِهِمْ مَكَّةَ ، فَكَانُوا آثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً ، وَاسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَتَّابَ بنَ أَسِيدَ بنِ أَبِي العِيصِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ عَلَى مَكَّةَ ، أَمِيراً عَلَى مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ مِنَ النَّاسِ ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَلَى وَجْهِهِ يُرِيدُ لِقَاءَ هَوَازِنَ .

قَالَ جَابِرُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ : لَمَّا اسْتَقْبَلْنَا وَادِي حُنَيْنٍ انْحَدَرْنَا فِي وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ تِهَامَةَ أَجْوَفَ حَطُوطٍ ، إِنَّمَا نَنْحَدِرُ فِيه انْحِدَاراً ، قَالَ : وَفِي عَمَايَةِ الصُّبْحِ ، وَكَانَ القَومُ قَدْ سَبَقُونَا إِلَى الوَادِي ، فَكَمَنُوا لَنَا فِي شِعَابِهِ وَأَحْنَائِهِ وَمَضَايِقِهِ ، وَقَدْ أَجْمَعُوا وَتَهَيَّئُوا وَأَعَدُّوا ، فَوَاللَّهِ مَا رَاعَنَا وَنَحْنُ مُنْحَطُّونَ إِلاَّ الكَتَائِبَ قَدْ شَدُّوا عَلَيْنَا شَدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَانْشَمَرَ النَّاسُ رَاجِعِينَ ، لاَ يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ .

وَانْحَازَ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ذَاتَ اليَمِينِ ، ثُمَّ قَالَ : أَيْنَ أَيُّها النَّاسُ ؟ هَلُمُّوا إِليَّ ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، أَنَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ . قَالَ : فَلاَ شَيْءَ ، حُمِلَتِ الإِبِلُ بَعْضُها عَلَى بَعْضٍ ، فَانْطَلَقَ النَّاسُ ، إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، نَفَرٌ مِن المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ .

وَفِيمَنْ ثَبَتَ مَعَهُ مِنَ المُهَاجِرِينَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَمِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ عَلِيٌّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَالعَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبُو سُفْيَانَ بنِ الحَارِثِ، وَابْنُهُ، والفَضْلُ بنُ العبَّاسِ، وَرَبِيعَةُ بنُ الحَارِثِ، وَأُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ، وَأَيْمَنُ بنُ أَيْمَنٍ بنُ عُبَيْدٍ، قُتِلَ يَوْمَئِذٍ[1].

وَعَنِ العَبَّاسِ أَنَّهُ قَالَ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ حُنَيْنٍ فَلَزِمْتُهُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بنُ الحَارِثِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، والنَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى بَغْلَةٍ بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بنُ نُفَاثَةَ الجُذَامِيُّ. فَلَمَّا التَقَى المُسْلِمُونَ وَالكُفَّارُ وَلَّى المُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ نَحْوَ الكُفَّارِ قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لاَ تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: يَا عَبَّاسُ نَادِ يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ. قَالَ عَبَّاسٌ: وَكُنْتُ رَجُلاً حَيِّتاً فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام.

صَوْتِي عَطْفَةُ البَقَرِ عَلَى أَوْلاَدِهَا فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ. قَالَ فَاقْتَتَلُوا هُمْ والكُفَّارُ وَالدَّعْوَةُ فِي الأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، ثُمَّ قَصُرَتْ الدَّعْوَةُ عَلى بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ فَقَالُوا: يَا بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ يَا بَنِي الحَارِثِ. قَالَ فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ، ! صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ وَهُوَ كَالمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلى قِتَالِهِمْ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا حِينَ حَمِيَ الوَطِيسُ، قَالَ ثُمَّ أَخَذَ حُصَيَّاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ: انْهَزِمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ! قَالَ فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ إِلَى القِتَالِ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، قَالَ فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَمَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِحُصَيَّاتِهِ ثُمَّ رَكِبَ فَإِذَا حَدُّهُمْ كَلِيلٌ وَأَمْرُهُمْ مُدْبِرٌ حَتَّى هَزَمَهُمُ اللَّهُ(١).

وَتَعَقَّبَ المُسْلِمُونَ مَنْ فَرَّ فِي كُلِّ جِهَةٍ، وَقَدْ سَارَ أَكْثَرُ المُنْهَزِمِينَ إِلَى الطَّائِفِ. وَجُمِعَتْ سَبَايَا حُنَيْنٍ وَأَمْوَالُهَا فَحُبِسَتْ بِالجِعْرَانَةِ.

وَلَحِقَ المُسْلِمُونَ المُنْهَزِمِيْنَ إِلَى الطَائِفِ وَكَانُوا قَدْ تَحَصَّنُوا

---

(١) انظر طبقات ابن سعد.

بِهَا وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَها فَكَانُـوا يَرْمُـونَ المُسْلِمِينَ بِالنِّبَـالِ فَقَتَلُوا عَدَداً مِنْهُمْ.

وَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ الطَّائِفِ فِي شَهْرِ ذِي القِعْدَةِ مِنْ عَامِ ثَمَانِيَةٍ، وَبَقِيَ أَهْلُ الطَّائِفِ عَلَى شِرْكِهِمْ حَتَّى شَهْرِ رَمَضَانَ مِنَ العَامِ التَاسِعِ حَيْثُ دَخَلُوا فِي الإِسْلاَمِ. وَعِنْدَمَا وَصَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى الجِعْرَانَةِ وَزَّعَ الغَنَائِمَ، وَأَعْطَى المُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُـمْ، وَكَانَ قَدْ رَدَّ سَبَايَا حُنَيْنٍ إِلَى أَهْلِيهِمْ.

وَاعْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ الجِعْرَانَةِ، وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ عُمْرَتِهِ انْصَرَفَ رَاجِعاً إِلَى المَدِينَةِ، وَاسْتَخْلَفَ عَتَّابَ بنَ أَسِيدٍ عَلَى مَكَّةَ، وَخَلَّفَ مَعَهُ مُعَاذَ بـنَ جَبَـلٍ يُفَقِّـهُ النَّاسَ فِي الدِّينِ، وَيُعَلِّمُهُمُ القُرْآنَ. وَوَصَلَ رَسُـولُ اللَّـهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى المَدِينَةِ في أَوَائِلِ ذِي الحِجَّةِ وَمعَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العَبَّاسُ فِي المَدِينَةِ:

لَمَـا قَدِمَ العَبَّاسُ بـنُ عَبْـدِ المُطَّلِـبِ وَنَوْفَلُ بـنُ الحَـارِثِ المَدِينَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُهَاجِـرَيْنَ

آخَى بَيْنَهُمَا وَأَقْطَعَهُمَا جَمِيعاً بالمَدِينَةِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وفَرَعَ بَيْنَهُمَا بِحَائِطٍ فَكَانَا مُتَجاوِرَيْنِ فِي مَوْضِعٍ ، وَكَانَا شَرِيكَيْنِ فِي الجَاهِلِيَّةِ مُتَفَاوِضَيْنِ فِي المَالِ مُتَحَابَيْنِ مُتَصَافِيَيْنِ ، وَكَانَتْ دَارُ نَوْفَلَ الَّتِي أَقْطَعَهُ إِيَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي مَوْضِعِ رَحْبَةِ الفَضَاءِ وَمَا يَلِيهَا إِلَى المَسْجِدِ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ اليَوْمَ رَحْبَةُ الفَضَاءِ، وَهِيَ تُقَابِلَ دَارَ الإِمَارَةِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا اليَوْمَ دَارُ مَرْوَانَ. وَكَانَتْ دَارُ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ الَّتِي أَقْطَعَهُ إِيَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَدِيدَها وَهِيَ الَّتي فِي دَارِ مَرْوَانَ إِلَى المَسْجِدِ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ دَارُ الإِمَارَةِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا دَارُ مَرْوَانَ. وَأَقْطَعَ العَبَّاسَ أَيْضاً دَارَهُ الأُخْرَى الَّتِي بِالسُّوقِ فِي المَوْضِعِ الَّذِي يُسَمَّى مُحْرِزَةَ ابنِ عَبَّاسٍ[1].

كَانَ العَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي المَدِينَةِ أَيَّام رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَعْدَهُ مَوْضِعَ التَّكْرِيمِ وَالاحْتِرَامِ لِدَوْرِهِ الَّذِي قَامَ بِهِ لِخِدْمَةِ الإِسْلاَمِ وَلإِيمَانِهِ

---

(١) طبقات ابن سعد.

العَمِيقِ ، وَحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَهُ، وَلِقَرَابَتِهِ. وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، يُجِلُّ العَبَّاسَ إِجْلاَلَ الوَالِدِ.

لَمَّا قَدِمَ صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ الجُمَحِيِّ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى مَنْ نَزَلْتَ يا أَبَا وَهَبٍ؟ قَالَ: نَزَلْتُ عَلَى العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، قَالَ: نَزَلْتَ عَلَى أَشَدِّ قُرَيْشٍ حُبَّاً لِقُرَيْشٍ.

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى عَمِّهِ العَبَّاسِ، وَهُوَ يَشْتَكِي، فَتَمَنَّى عَبَّاسٌ المَوْتَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ لاَ تَتَمَنَّ المَوْتَ فَإِنْ تَكُنْ مُحْسِناً فَإِنْ تُؤَخَّرْ تَزْدَدْ إِحْسَانَاً إِلَى إِحْسَانِكَ خَيْرَاً لَكَ، وَإِنْ تَكُنْ مُسِيئاً فَإِنْ تُؤَخَّرْ فَتَسْتَعْتِبْ مِنْ إِسَاءَتِكَ فَلاَ تَتَمَنَّ المَوْتَ.

وَوَقَعَ رَجُلٌ فِي أَبٍ لِلعَبَّاسِ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ فَلَطَمَهُ العَبَّاسُ فَاجْتَمَعَ قَوْمُهُ فَقَالُوا: وَاللَّهِ لِنَلْطِمَنَّهُ كَمَا لَطَمَهُ. وَلَبِسُوا السِّلاَحَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ فَصَعِدَ المِنْبَرَ فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ النَّاسِ تَعْلَمُونَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ؟ قَالُوا: أَنْتَ، قَالَ: فَإِنَّ

العَبَّاسَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، لاَ تَسُبُّوا أَمْوَاتَنا فَتُؤْذُوا أَحْيَاءَنَا. فَجَاءَ القَوْمُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَعُوذُ مِنْ غَضَبِكَ، اسْتَغْفِرْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

وَلَقِيَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَقَالَ: يَا أَبَا الفَضْلِ أَرَأَيْتَ عَبْدَ المُطَّلِبِ بنَ هَاشِمٍ وَالْغَيْطَلَةَ كَاهِنَةَ بَنِي سَهْمٍ جَمَعَهُمَا اللَّهُ جَمِيعَاً فِي النَّارِ؟ فَصَفَحَ عَنْهُ، ثُمَّ لَقِيَهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَصَفَحَ عَنْهُ، ثُمَّ لَقِيَهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَرَفَعَ العَبَّاسُ يَدَهُ فَوَجَأَ أَنْفَهُ فَكَسَرَهُ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ كَمَا هُوَ إِلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ العَبَّاسُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَجَاءَهُ فَقَالَ: مَا أَرَدْتَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ المُهَاجِرِينَ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ فِي النَّارِ وَلَكِنَّهُ لَقِيَنِي فَقَالَ: يَا أَبَا الفَضْلِ أَرَأَيْتَ عَبْدَ المُطَّلِبِ بنَ هَاشِمٍ وَالغَيْطَلَةَ كَاهِنَةَ بَنِي سَهْمٍ جَمَعَهُمَا اللَّهُ جَمِيعاً فِي النَّارِ؟ فَصَفَحْتُ عَنْهُ مِرَاراً ثُمَّ وَاللَّهِ مَا مَلَكْتُ نَفْسِي وَمَا إِيَّاهُ أَرَادَ وَلَكِنَّهُ أَرَادَنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يُؤْذِي أَخَاهُ فِي الأَمْرِ وَإِنْ كَانَ حَقّاً؟.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَالُ رِجَالٍ يُؤْذُونَنِي فِي العَبَّاسِ، وَإِنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ، مَنْ آذَى

العَبَّاسَ فَقَدْ آذَانِي»[1].

وَقَالَ العَبَّاسُ: كُنَّا نَلْقَى النَّفَرَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ، فَيَقْطَعُونَ حَدِيثَهُمْ، فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ لاَ يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّكُمْ لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي»[2].

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَعَلَ عَلَى العَبَّاسِ وَوَلَدِهِ كِسَاءً، ثُم قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْعَبَّاسِ وَوَلَدِهِ مَغْفِرَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، لاَ تُغَادِرْ ذَنْباً. اللَّهُمَّ اخْلُفْهُ فِي وَلَدِهِ»[3].

قَالَ سَهْلٌ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي القَيْظِ، فَقَامَ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ، فَقَامَ العَبَّاسُ يَسْتُرُهُ بِكِسَاءٍ مِنْ صُوفٍ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اسْتُرِ العَبَّاسَ وَوَلَدَهُ مِنَ النَّارِ»[4].

وَبَعَثَ العَلاَءُ بنُ الحَضْرَمِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَالٍ ثَمَانِينَ أَلْفاً مِنَ البَحْرَيْنِ، فَنُثِرَتْ عَلَى

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب رقم (٣٧٥٨).
(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٨٨.
(٣) رواه أبو يعلى في مسنده.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٣٢٦.

حَصِيرٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَقَفَ، وَجَاءَ النَّاسُ، فَمَا كَانَ يَوْمَئِذٍ عَدَدٌ وَلاَ وَزْنٌ، مَا كَانَ إِلاَّ قَبْضاً، فَجَاءَ العَبَّاسُ بِخَمِيصَةٍ عَلَيْهِ، فَأَخَذَ، فَذَهَبَ يَقُومُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: ارْفَعْ عَلَيَّ. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى خَرَجَ ضَاحِكُهُ، فَقَالَ: أَعِدْ فِي المَالِ طَائِفَةً، وَقُمْ بِمَا تَطِيقُ. فَفَعَلَ. فَجَعَلَ العَبَّاسُ يَقُولُ - وَهُوَ مُنْطَلِقٌ - أَمَّا إِحْدَى اللتينِ وَعَدَنَا اللَّهُ فَقَدْ أَنْجَزَنَا.

يَعْنِي قَوْلَهُ ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فَهَذَا خَيْرٌ مِمَّا أُخِذَ مِنِّي، وَلاَ أَدْرِي مَا يُصْنَعُ فِي الآخِرَةِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قُلْتُ لِلْعَبَّاسِ: سَلِ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْتَعْمِلُكَ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: «مَا كُنْتُ لأَسْتَعْمِلُكَ عَلَى غُسَالَةِ ذُنُوبِ النَّاسِ».

وَقَالَ العَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ تُؤَمِّرُنِي عَلَى إِمَارَةٍ؟ فَقَالَ: «نَفْسٌ تُنْجِيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لاَ تُحْصِيهَا».

وَأَتَى العَبَّاسُ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ أَنَا عَمُّكَ، كَبُرَتْ سِنِّي، وَاقْتَرَبَ أَجَلِي، فَعَلِّمْنِي شَيْئاً يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ، فَقَالَ: «يَا عَبَّاسُ أَنْتَ عَمِّي وَلاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْئاً وَلَكِنْ سَلْ رَبَّكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ».

وَشَهِدَ العَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غَزْوَةَ تَبُوكَ فِي شَهْرِ رَجَبَ مِنَ السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ.

وَشَهِدَ العَبَّاسُ حَجَّةَ الوَدَاعِ مَعْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

العَبَّاسُ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ:

قَالَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ: قُلْتُ لِلْعَبَّاسِ سَلْ لَنَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الحِجَابَةَ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُعْطِيكُمْ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْهَا، السِّقَايَةَ بِرَوَائِكُمْ وَلاَ تُرْزُوا بِهَا.

اسْتَأْذَنَ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَبِيتَ لَيَالِي مِنَى بِمَكَّةَ مِنْ أَجْلِ سِقَايَتِهِ فَأَذِنَ لَهُ.

طَافَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى نَاقَتِهِ بِالْبَيْتِ

مَعَهُ مِحْجَنٌ يَسْتَلِمُ بِهِ الحَجَرَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَتَى السِّقَايَةَ يَسْتَسْقِي فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ نَأْتِيكَ بِمَاءٍ لَمْ تَمسَّهُ الأَيْدِي؟ قَالَ: بَلَى فَاسْقُونِي، فَسَقُوهُ ثُمَّ أَتَى زَمْزَمَ فَقَالَ: اسْتَقُوا لِي مِنْهَا دَلْواً. فَأَخْرَجُوا مِنْهَا دَلْواً فَمَضْمَضَ مِنْهُ ثُمَّ مَجَّهُ مِنْ فِيهِ ثُمَّ قَالَ: أَعِيدُوهُ فِيهَا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّكُمْ لَعَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ، ثُمَّ قَالَ: لَوْلاَ أَنْ تُغْلَبُوا عَلَيْهِ لَنَزَلْتُ فَنَزَعْتُ مَعَكُمْ.

جَاءَ رَجُلٌ إِلى ابنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ مَا تَسْقُونَ النَّاسَ مِنْ نَبِيذِ هَذَا الزَّبِيبِ، أَسُنَّةٌ تَتَّبِعُونَهَا أَمْ تَجِدُونَ هَذَا أَهْوَنَ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّبَنِ، فَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى العَبَّاسَ وَهُوَ يَسْقِي النَّاسَ فَقَالَ: اسْقِنِي، فَدَعَا العَبَّاسُ بِعِسَاسٍ مِنْ نَبِيذٍ فَتَنَاوَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عُسّاً مِنْهَا فَشَرِبَ ثُمَ قَالَ: أَحْسَنْتُمْ هَكَذَا اصْنَعُوا، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: فَمَا يَسُرُّنِي أَنَّ سِقَايَتَهَا جَرَّت عَلَيَّ لَبَناً وَعَسَلاً مَكَانَ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَحْسَنْتُمْ هَكَذَا افعَلُوا.

وَعَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي

تَعْجِيلِ صَدَقَتِهِ قَبْلَ أَنْ تَحِلَّ فَرَخَّصَ لَهُ فِي ذَلِكَ.

وَمِمَّا قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خُطْبَةِ حَجَّةِ الوَدَاعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بالعَبَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَإِنَّ كُلَّ رِبَاً مَوْضُوعٌ وَلَكِنْ لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ، لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ. قَضَى اللَّهُ أَنَّهُ لاَ رِبا، وَإِنَّ رِبَا عَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ».

العَبَّاسُ فِي خِلاَفَةِ أَبِي بَكْرٍ:

انْتَقَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى، وَهُوَ رَاضٍ عَنْ عَمِّهِ كُلَّ الرِّضَا.

وَبَايَعَ المُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَبَايَعَ العَبَّاسُ وَلَمْ يَتَخَلَّفْ كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ. وَأَمَّا رِوَايَةُ: أَنَّ العَبَّاسَ قَالَ لِعَلِيٍّ يَوْمَهَا: امْدُدْ يَدَكَ أُبَايِعْكَ فَلَيْسَتْ صَحِيحَةً، إِذْ لَمْ يَتَحَدَّثِ المُسْلِمُونَ عَنِ البَيْعَةِ إِلاَّ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَلَمْ يَخْرُجِ المُسْلِمُونَ مِنْهَا إِلاَّ وَقَدْ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ.

وَإِذَا كَانَ حَدِيثُ العَبَّاسِ لِعَلِيٍّ بَعْدَ ذَلِكَ، فَلاَ يَقْبَلُ ذَلِكَ العَقْلُ، إِذْ لاَ يُمْكِنُ لِلْعَبَّاسِ وَلاَ لِعَلِيٍّ أَنْ يَعْمَلَ أَحَدُهُمَا أَوْ

كِلاَهُمَا عَلَى تَفْرِيقِ كَلِمَةِ المُسْلِمِينَ، وَكِلاَهُمَا يَعْلَمُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهْ». ثُمَّ إِنّ العَبَّاسَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَيْسَ عَلَى هَذِهِ الدَرَجَةِ مِنَ السَّذَاجَةِ لِيَظُنَّ أَنَّ بَيْعَتَهُ لِرَجُلٍ كَانَ مَنْ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تُغَيِّرَ مَجْرَى التَّارِيخِ، وَيَنْقُضُ المُسْلِمُونَ بَيْعَتَهُمْ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ عَلِيٌّ.

العَبَّاسُ فِي خِلاَفَةِ عُمَرَ:

كَانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَعْرِفُ لِلعَبَّاسِ قَدَرَهُ وَيُنْزِلُهُ مَنْزِلَتَهُ.

كَانَ لِلْعَبَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِيزَابٌ عَلَى طَرِيقِ عُمَرَ، فَلَبِسَ عُمَرُ ثِيَابَهُ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَقَدْ كَانَ ذُبِحَ لِلْعَبَّاسِ فَرْخَانِ، فَلَمَّا وَافَى المِيزَابَ صُبَّ فِيهِ مَاءٌ فِيهِ مِنْ دَمِ الفَرْخَيْنِ فَأَصَابَ عُمَرَ فَأَمَرَ بِقَلْعِهِ، ثُمَّ رَجعَ عُمَرُ فَطَرَحَ ثِيَابَهُ وَلَبِسَ غَيْرَهَا ثُمَّ جَاءَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ، فَأَتَاهُ العَبَّاسُ فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لَلْمَوْضِعُ الَّذِي وَضَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ عُمَرُ لِلْعَبَّاسِ: فَأَنَا أَعْزِمُ عَلَيْكَ لِمَا أَصْعَدْتَ عَلَى ظَهْرِي حَتَّى

تَضَعَهُ فِي المَوْضِعِ الَّذِي وَضَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَفَعَلَ ذَلِكَ العَبَّاسُ[1].

لَمَّا كَثُرَ المُسْلِمُونَ فِي عَهْدِ عُمَرَ ضَاقَ بِهِمُ المَسْجِدُ فَاشْتَرَى عُمَرُ مَا حَوْلَ المَسْجِدِ مِنَ الدُّورِ إِلاَّ دَارَ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَحُجَرَ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ. فَقَالَ عُمَرُ لِلْعَبَّاسِ: يَا أَبَا الفَضْلِ إِنَّ مَسْجِدَ المُسْلِمِينَ قَدْ ضَاقَ بِهِمْ وَقَدْ ابْتَعْتُ مَا حَوْلَهُ مِنْ المَنَازِلِ نُوَسِّعُ بِهِ عَلَى المُسْلِمِينَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِلاَّ دَارَكَ وَحُجَرَ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ، فَأَمَّا حُجَرُ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ فَلاَ سَبِيلَ إِلَيْهَا وَأَمَّا دَارُكَ فَبِعْنِيهَا بِمَا شِئْتَ مِنْ بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ أُوَسِّعُ بِهَا مَسْجِدَهُمْ، فَقَالَ العَبَّاسُ: مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: اخْتَرْ مِنِّي إِحْدَى ثَلاَثٍ، إِمَّا أَنْ تَبِعْنِيهَا بِمَا شِئْتَ مِنْ بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ، وَإِمَّا أَنْ أُخَطِّطُكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ المَدِينَةِ وَأَبْنِيهَا لَكَ مِنْ بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ، وَإِمَّا أَنْ تَصَدَّقَ بِهَا عَلَى المُسْلِمِينَ فَنُوَسِّعُ بِهَا فِي مَسْجِدِهِم، فَقَالَ: لاَ وَلاَ وَاحِدَةٌ مِنْهَا، فَقَالَ عُمَرُ: اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَنْ شِئْتَ، فَقَالَ: أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ. فَانْطَلَقَا إِلَى أُبَيٍّ فَقَصَّا عَلَيْهِ القِصَّةَ فَقَالَ أُبَيٌّ: إِنْ شِئْتُمَا حَدَّثْتُكُمَا بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) الطبقات.

فَقَالاَ: حَدِّثْنَا، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ أَنِ آبْنِ لِي بَيْتاً أُذْكَرُ فِيهِ، فَخَـطَّ لَهُ هَذِهِ الخِطَّـةَ خِطَّةَ بَيْتِ المَقْدِسِ فَإِذَا تَرْبِيعُهَا بَيْتُ رَجُلٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسَأَلَهُ دَاوُدُ أَنْ يَبِيعَهُ إِيَّاهُ فَأَبَى، فَحَـدَّثَ دَاوُدُ نَفْسَهُ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنْهُ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَا دَاوُدُ أَمَرْتُكَ أَنْ تَبْنِيَ لِي بَيْتاً أُذْكَرُ فِيهِ فَأَرَدْتَ أَنْ تُدْخِلَ فِي بَيْتِي الغَصْبَ وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِي الغَصْبُ، وَإِنَّ عُقُوبَتَكَ أَنْ لاَ تَبْنِيهِ، قَالَ: يَا رَبِّ فَمِنْ وَلَدِي؟ قَالَ: مِنْ وَلَدِكَ». قَالَ: فَأَخَذَ عُمَرُ بِمَجَامِعِ ثِيَابِ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ وَقَالَ: جِئْتُكَ بِشَيْءٍ فَجِئْتَ بِمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ، لَتَخْرُجَنَّ مِمَّا قُلْتَ. فَجَاءَ يَقُودُهُ حَتَّى أَدْخَلَهُ المَسْجِدَ فَأَوْقَفَهُ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيهِـمْ أَبُـو ذَرٍّ فَقَـالَ: إِنِّـي نَشَدْتُ اللَّهَ رَجُلاً سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَذْكُرُ حَدِيثَ بَيْتِ المَقْدِسِ حِينَ أَمَرَ اللَّهُ دَاوُدَ أَنْ يَبْنِيَهُ إِلاَّ ذَكَرَهُ. فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا سَمِعْتُهُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا سَمِعْتُهُ يَعْنِي مِنْ رَسُولِ اللَّـهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ، فَأَرْسَلَ عُمَرُ أُبَيّاً، قَالَ، وَأَقْبَلَ أُبَـيٌّ عَلَى عُمَرَ فَقَالَ: يَا عُمَرُ أَتَتَّهِمُنِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ عُمَرُ: يَا أَبَا المُنْذِرِ لاَ وَاللَّهِ مَا اتَّهَمْتُكَ عَلَيْهِ وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ الحَـدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، ظَاهِراً. قال، وَقَالَ عُمَرُ لِلْعَبَّاس : اذْهَبْ فَلاَ أَعْرِضُ لَكَ فِي دَارِكَ. فَقَالَ العَبَّاسُ: أَمَّا إِذْ فعَلْتَ فَإِنِّي قَدْ تَصدَّقْتُ بِهَا عَلَى المُسْلِمِينَ أُوَسِّعُ بِهَا عَلَيْهِمْ فِي مَسْجِدِهِمْ فَأَمَّا وَأَنْتَ تُخَاصِمُنِي فَلاَ. قَالَ فَخَطَّ عُمَرُ لَهُمْ دَارَهُمُ الَّتِي هِيَ لَهُمُ اليَوْمَ وَبَنَاهَا مِنْ بَيْتِ مَال المُسْلِمِينَ[١].

وَأَصَابَ النَّاسَ قَحْطٌ فَخَرَجَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسْتَسْقِي فَأَخَذَ بِيَدِ العَبَّاسِ فَاسْتَقْبَلَ بِهِ القِبْلَةَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا، عَلَيْهِ السَّلاَمُ، إِذَا قُحِطْنَا فَتَسْقِنَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا، عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَاسْقِنَا. فَمَا رَجَعُوا حَتَّى سُقُوا[٢].

وَفَرَضَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ خَمْسَةَ آلاَفٍ كَفَرَائِضَ أَهْلِ بَدْرٍ وَلَمْ يُفَضِّلْ أَحَداً عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ إِلاَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣].

وَلَمَّا دَوَّنَ عُمَرُ الدِّيوَانَ كَانَ أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِهِ فِيهِ المَدْعَى بَنِي هَاشِمٍ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلُ بَنِي هَاشِمٍ يُدْعَى العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ فِي وَلاَيَة عُمَرَ وَعُثْمَانَ[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.

تَحَفَّى العَبَّاسُ عُمَرَ فِي بَعْضِ الأَمْرِ فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنْ جَاءَكَ عَمُّ موسَى مُسْلِماً مَا كُنْتَ صَانِعاً بِهِ؟ قَالَ: كُنْتُ وَاللَّهِ مُحْسِناً إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَنَا عَمُّ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَمَا رَأْيُكَ يَا أَبَا الفَضْلِ؟ فَوَاللَّهِ لَأَبُوكَ أَحبُّ إِلَيَّ مِنْ أَبِي، قَالَ: اللَّهَ اللَّهَ لأَنِّي كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ أَحَبُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَبِي فَأَنَا أُؤْثِرُ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى حُبِّي[1].

وَبَقِيَ فِي بَيْتِ مَالِ عُمَرَ شَيْءٌ بَعْدَمَا قُسِمَ بَيْنَ النَّاسِ فَقَالَ العَبَّاسُ لِعُمَرَ وَلِلنَّاسِ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ كَانَ فِيكُمْ عَمُّ مُوسى أَكُنْتُمْ تُكْرِمُونَهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنَا أَحَقُّ بِهِ، أَنَا عَمُّ نَبِيِّكُمْ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَ عُمَرُ النَّاسَ فَأَعْطُوهُ تِلْكَ البَقِيَّةَ الَّتِي بَقِيَتْ[2].

وَلَمَّا احْتُضِرَ عُمَرُ بَعْدَ أَنْ طُعِنَ أَمَرَ مُهَيْباً أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وَأَمَرَهُ أَنْ يَجْعَلَ لِلْنَّاسِ طَعَاماً فَيُطْعَمُوا (حَتَّى يَسْتَخْلِفُوا إِنْسَاناً). فَلَمَّا رَجَعُوا مِنَ الجَنَازَةِ جِيءَ بِالطَّعَامِ وَوُضِعَتِ المَوَائِدُ فَأَمْسَكَ النَّاسُ عَنْهَا (لِلْحُزْنِ الَّذِي هُمْ فِيهِ)

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق نفسه.

فَقَالَ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ مَاتَ فَأَكَلْنَا بَعْدَهُ وَشَرِبْنَا، وَمَاتَ أَبُو بَكْرٍ فَأَكَلْنَا بَعْدَهُ وَشَرِبْنَا، وَإِنَّهُ لاَ بُدَّ مِنَ الأَجَلِ فَكُلُوا مِنْ هَذَا الطَّعَامِ. ثُمَّ مَدَّ العَبَّاسُ يَدَهُ فَأَكَلَ، وَمَدَّ النَّاسُ أَيْدِيهُمْ فَأَكَلُوا[1].

وَقَدِمَ العَبَّاسُ الشَّامَ مَعَ عُمَرَ. فَلَمَّا اقْتَرَبَ عُمَرُ مِنَ الشَّامِ تَنَحَّى وَمَعَهُ غُلاَمُهُ، فَعَمَدَ إِلَى مَرْكَبِ غُلاَمِهِ فَرَكِبَهُ، وَعَلَيْهِ فَرْوٌ مَقْلُوبٌ، وَحَوَّلَ غُلاَمَهُ عَلَى رَحْلِ نَفْسِهِ. وَإِنَّ العَبَّاسَ لَبَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى فَرَسٍ عَتِيقٍ، وَكَانَ رَجُلاً جَمِيلاً، فَجَعَلَتِ البَطَارِقَةُ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ، فَيُشِيرُ: لَسْتُ بِهِ وَإِنَّهُ ذَاكَ.

وَكَانَتْ سِنُّ العَبَّاسِ قَدْ كَبُرَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يَشْتَرِكْ بِالجِهَادِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَاكْتَفَى بِمَا قَامَ بِهِ مِنْ دَوْرٍ سَابِقٍ وَمِنْ جِهَادٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

العَبَّاسُ فِي خِلاَفَةِ عُثْمَانَ:

بَقِيَتْ مَنْزِلَةُ العَبَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَيْنَ المُسْلِمِينَ كَمَا

---

(١) المصدر السابق نفسه.

هِيَ فِي خِلاَفَةِ عُثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَتْ عُمْرُهُ قَدْ زَادَتْ عَلَى الثَمَانِينَ، فَتُوفِّيَ يَوْمَ الجُمُعَةَ لأَرْبعَ عَشَرَةْ خَلَتْ مِنْ رَجَبَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلاَثِينَ، وَهُوَ ابنُ ثَمانٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً، وَلَمَّا مَاتَ بَعَثَتْ بَنُوا هَاشِمٍ مُؤَذِناً يُؤَذِنُ أَهْلِ العَوَالِي: رَحِمَ اللَّهُ مَنْ شَهِدَ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، قَالَ فَحَشَدَ النَّاسُ وَنَزَلُوا مِنَ العَوَالِي.

وَذَهَبَ مَوْلَى لِبَنِي هَاشِمٍ يُؤَذِّنُ بِمَوْتِ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بِقِيَاءَ، ثُمَّ ذَهَبَ رَسُولُ عُثْمَانَ لِلْغَايَةِ نَفْسِهَا، فَاسْتَقْبَلَ قُرَى الأَنْصَارِ قَرْيَةً قَرْيَةً حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَافِلَةِ بَنِي حَارِثَةَ وَمَا وَلاَهَا فَحَشَدَ النَّاسُ فَمَا غَادَرْنَا النِّساءَ، فَلَمَّا أُتِيَ بِهِ إِلَى مَوْضِعِ الجَنَائِزِ تَضَايَقَ فَتَقَدَّمُوا بِهِ إِلَى البَقِيعِ، وَلَقَد احْتَشَدَتْ جُمُوعٌ كَبِيرَةٌ، حَتَّى النِّساء وَقَالَتْ أُمُّ عُمَارَةَ: حَضَرْنَا نِسَاءَ الأَنْصَارِ طُرَّاً جَنَازَةَ العَبَّاسِ وَكُنَّا أَوَّلَ مَنْ بَكَى عَلَيْهِ وَمَعَنَا المُهَاجِرَاتُ الأُوَلُ المُبَايِعَاتُ.

وَأَرْسَلَ، عُثْمَانُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى أَهْلِ العَبَّاسِ عِنْدَمَا تُوفِّيَ: إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ أَحْضُرَ غَسْلَهُ فَعَلْتُ[1] فَأَذِنُوا لَهُ،

---

(١) وهذا من أدب عثمان ومراعاته لأقارب المتوفى.

فَحضَرَ فكَانَ جَالِساً نَاحِيَةَ البَيْتِ، وَغَسَّلَهُ عَلِيٌّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ وَعُبَيْدُ اللَّهِ وَقُثَمُ بَنُوا العَبَّاسِ . وَصلَّى عَلَيْهِ عُثْمَانُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكُفِّنَ فِي بُرْدٍ حِبَرَةٍ حَسْبَمَا أَوْصَى بِذَلِكَ.

وَمَا تَخَلَّفَ عَنِ الجَنَازَةِ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.

وَرُوِيَ أَنَّ العَبَّاسَ أَعْتَقَ قُبَيْلَ مَوْتِهِ سَبْعِينَ مَمْلُوكاً.

أَوْلادُهُ:

كَانَ لِلْعَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ مِنَ الوَلَدِ تِسْعَةُ أَوْلادٍ مِنَ الذُّكُورِ وَثَلاثُ بَنَاتٍ وَهُمْ:

١ ـ الفَضْلُ: وَكَانَ أَكْبَرُ وَلَدِهِ، وَبِهِ كَانَ يُكَنَّى، وَكَانَ جَمِيلاً، وَأَرْدَفَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّتِهِ، وَمَاتَ بِالشَّامِ فِي طَاعُونِ عَمْوَاس عَامَ ١٨ هـ، وَلَيْسَ لَهُ عَقِبٌ.

٢ ـ عَبْدُ اللَّهِ: وهُوَ حَبْرُ الأُمَّةِ، وَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَاتَ بِالطَّائِفِ عَامَ ٦٨، وَلَهُ عَقِبٌ.

٣ ـ عُبَيْدُ اللَّهِ: كَانَ جَوَاداً سَخِيّاً، مَاتَ بِالمَدِينَةِ عَامَ ٨٧ هـ.

٤ ـ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: مَاتَ بِالشَّامِ، وَلَيْسَ لَهُ عَقِبٌ.

٥ ـ قُثَمُ: كَانَ يُشْبِهُ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَرَجَ مُجَاهِداً إِلَى خُرَاسَانَ، وَمَاتَ بِسَمَرْقَنْدَ عَامَ ٥٧، ولَيْسَ لَهُ عَقِبٌ. وَوَلَّاه عَلِيٌّ عَلَى مَكَّةَ فَبَقِيَ عَلَيْهَا حَتَّى قُتِلَ عَلِيٌّ.

٦ ـ مَعْبَدُ: وَخَرَجَ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ مُجَاهِداً، وَاسْتَشْهَدَ هُنَاكَ عَامَ ٣٥ هـ.

٧ ـ أُمُّ حَبِيبٍ. وَأُمُّ هَؤُلَاءِ جَمِيعاً لُبَابَةُ بِنْتُ الحَارِثِ أُمُّ الفَضْلِ وَهِيَ أُخْتُ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ لأُمِّهَا. وَكَانَ يُقَالُ: مَا رَأَيْنَا بَنِي أَبٍ وَأُمٍّ أَبْعَدَ قُبُوراً مِنْ بَنِي العَبَّاسِ بن عَبْدِ المُطَّلِبِ مِنْ أُمِّ الفَضْلِ.

وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ مِنْ غَيْرِ أُمِّ الفَضْلِ:

٨ ـ الحَارِثُ: وَأُمُّهُ حُجَيْلَةُ بِنْتُ جُنْدُبِ بن الرَّبِيعِ.

٩ ـ كَثِيرُ: وَكَانَ فَقِيهاً مُحَدِّثاً.

١٠ ـ تَمَّامُ: كَانَ مِنْ أَشَدِّ أَهْلِ زَمَانِهِ.

١١ ـ صَفِيَّةُ:

١٢ ـ أُمَيْمَةُ:

وَأُمُّ هَؤُلَاءِ الأَرْبَعَةِ أُمُّ وَلَدٍ.

وَرَوَى العَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِدَّةَ أَحَادِيثَ، مِنْهَا خَمْسَةٌ وَثَلاَثُونَ حَدِيثاً فِي مُسْنَدِ بَقِيِّ بنِ مَخْلَدٍ، وَاتَّفَقَ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ، وَانْفَرَدَ البُخَارِيُّ فِي حَدِيثٍ، وَمُسْلِمٌ فِي ثَلاَثَةِ أَحَادِيثَ.

وَرَوَى عَنِ العَبَّاسِ أَبْنَاؤُهُ عَبْدُ اللَّهِ، وكَثِيرُ وَعُبَيْدُ اللَّهِ، وَجَابِرُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ، والأَحْنَفُ بنُ قَيْسٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ الحَارِثِ بنِ نَوْفَلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ عُمَيْرَة، وَعَامِرُ بنُ سَعْدٍ، وَإِسْحَاقُ بَنُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ نَوفَلٍ، وَمَالِكُ بنُ أَوْسِ بنِ الحَدَثَانِ، وَنَافِعُ بنُ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ.

بُنَاة دَوْلَةِ الإِسْلَام

- ٢٢ -

سَعْدُ بنُ الرَّبِيع

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّهِ ربِّ العَالَمِينَ والصَّلاَةُ والسَّلاَمُ عَلَى مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِاللَّهِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَبَعْد ،

فَإِنَّ حَادِثَةً وَاحِدَةً قَدْ تُخَلِّدُ ذِكْرَى رَجُلٍ مَدَى الدَّهْرِ، وَإِنَّ قِصَّةً فِيهَا عِبْرَةٌ لَيَرْوِيهَا جِيلٌ بَعْدَ جِيلٍ ، وَإِنَّ قَصِيدَةً فِيهَا حِكْمَةٌ لَتُرَدِّدُهَا أَلْسِنَةُ البَشَرِ عَلَى مَرِّ السِّنِينَ، وَإِنَّ الكَلاَمَ العَذْبَ المُنَظَّمَ لَيَرْفَعُ قَوْماً وَيَخْفِضُ آخَرِينَ، وَيُكْسِبُ أُنَاساً صِفَةً لَيْسَتْ مِنْ طَبْعِهِمْ، وَيُعْطِي غَيْرَهُمْ سِمَةً هُمْ أَعْلَى مِنْهَا وَعَلَى تَنَاقُضٍ مَعَهَا. فَمَا خَلَّدَ ذِكْرَى مَالِكِ بنِ الرَّيْبِ إِلاَّ قَصِيدَةٌ نُسِبَتْ لَهُ. وَمَا رَفَعَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ إِلاَّ شِعْرُ المُتَنَبِّي وَهُوَ الَّذِي حَطَّ مِنْ شَأْنِ كَافُورَ، وَلِكُلٍّ صِفَةٌ تُخَالِفُ مَا ذَكَرَهُ المُتَنَبِّي. وَمَا مِنْ عَدْلٍ يُعْرَفُ إِلاَّ وَيُقْرَنُ مَعَ ابنِ الخَطَّابِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَرْوِي جِيلٌ بَعْدَ جِيلٍ قَوْلَتَهُ «مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَاراً».

وَمَا ذُكِرَتْ أُخُوَّةٌ بَيْنَ المُسْلِمينَ إلاَّ وَتَدَاعَى إلَى الذِّهْنِ مُبَاشَرَةً سَعْدُ بنُ الرَّبيعِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَا بُحِثَ فِي الإِخْلاَصِ إلاَّ وَاتَّجَهَ الفِكْرُ إِلَى هَذَا الصَّحَابِيِّ الجَليلِ أَيْضاً. إنَّ لَهُ مَوْقِفَيْنِ كَانَا عُنْوَاناً لَهُ، بَلْ يَجِبْ أَنْ يكُونَا شِعَاراً لِكُلِّ مُسْلِمٍ، أَحَدُهُمَا كَانَ يَوْمَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ المُسْلِمِينَ إِثْرَ استِقْرَارِهِ فِي المَدِينَةِ المُنَوَّرةِ بَعْدَ هِجْرَتِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكَانَ الثَّانِي قُبَيْلَ إِحْرازِهِ الشَّهَادَةَ يوْمَ أُحُدٍ بِلَحظَاتٍ. ذَلِكُمَا مَوْقِفَانِ خَالِدَانِ إِذَا عُدَّتِ المَوَاقِفُ الخَالِدَةُ كَانَا تَاجاً لَهَا. وَإِذَا بُحِثَتِ المُثُل العُلْيَا استُقِيَتْ مِنْ سَعْدِنَا هَذَا وَكَأَنَّهُ النَّبْعُ لَهَا تَتَدَفَّقُ مِنْهُ وَتَصْدُرُ عَنْهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ العَظِيمَ أَنْ أُوَفَّقَ بِإِعْطَاءِ فِكْرَةٍ عَنْ هَذَا الصَّحَابِيِّ الكَرِيمِ لِيَكُونَ عُنْوَانَ الإِخْلاَصِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُجنِّبَنَا العَثَرَاتِ، وَأَنْ يُسَدِّدَ خُطَانَا، وَأَنْ يُلْهِمَنَا الصِّدْقَ فِي القَوْلِ، وَالإِخْلاَصَ فِي العَمَلِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

كَانَ سَعْدُ بنُ الـرَّبيعِ بنِ عَمْـروِ بنِ أَبـي زُهَيْرٍ مِنْ بَنِـي الحارِثِ بنِ الخَـزْرَجِ أَحَـدِ بُطُـونِ الخَـزْرَجِ ، وَسَيِّداً مِنْ سَادَاتِهِمْ وأَحَدَ الكَتَبَةِ فِيهِمْ، وَالكِتَابَةُ قَلِيلَـةٌ يَوْمَـذَاكَ، وَأُمُّـهُ هُزَيْلَةُ بِنْتُ عِنَبَةَ بنِ عَمْروٍ مِنْ القَبِيلَةِ نَفْسِهَا، وَهِيَ أُمٌّ خَارِجَةَ ابنِ زَيْدٍ ابنِ عَمٍّ أَبِيهِ وَحَبِيبَةَ بنتِ زَيْدٍ الَّتِي تَزَوَّجَهَا أَبُـو بكْرٍ الصِّدِّيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالَّتِي أَنْجَبَتْ لَهُ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ أَبِي بكْرٍ، فَسَعْدٌ وَخَارِجَةُ وَحَبِيبَةُ إِخْوَةٌ لأمٍّ.

إِنَّ العُقُولَ السَّلِيمَةَ الخَيِّرَةَ تَسْتَجِيبُ لِلْحَقِّ بِسُرْعَـةٍ وَتَلْهَفُ إِلَيْهِ، وَتَطْلُبُهُ وَتَدْعُو لَهُ وَتَسْتَنِيرُ بِهُدَاهُ بَيْنَمَـا العُقُـولُ القَـاسِيَةُ تَتَوَقَّفُ عَنْ قُبُولِ الحَقِّ وَتَسُدُّ مَنَافِذَ النُّورِ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَتَحْتَجِبُ عَنْهُ وَتَبْقَى مُظْلِمَةً وَفَوْقَ هَذَا تَظَـلُّ مُتَمَسِّكَةً بِالبَاطِـلِ مُتَعَنِّتَـةً بِالْغَيِّ مُدَافِعَةً عَنْ كُلِّ فَسَادٍ. وَلَقَدْ كَانَ عَقْلُ سَعْدِ بنِ الرَّبِيعِ من النَّوْعِ الأَوَّلِ نَاضِجَاً، وَكَانَ كَبِيرَاً وَاسِعَاً، وَفُؤَادُهُ يَهْفُـو

نَحْوَ السُّمُوِّ والإرْتِقَاءِ، فَمَا أَنْ سَمِعَ بالدَّعْوَةِ إِلى الإِسْلاَمِ فِي مَدِينَتِهِ حَتَّى أَدْرَكَ صفَاءَهَا وَشَعَرَ بِفِطْرَتِهِ بِصِدْقِهَا وَأَحَسَّ أَنَّهَا مُبْتَغاهُ فَأَقْبَلَ نحْوَهَا مُسْلِماً مُسْتَسْلِماً.

وَجَاءَ مَوْسِمُ الحَجِّ وَخَرَجَ سَعْدُ إِلَيْهِ مَعَ مَنْ خَرَجَ مِنَ المُسْلِمينَ مَعَ قَوْمِهِمُ الَّذِينَ لاَ يَزَالُونَ عَلَى شِرْكِهِمْ وَوَثَنِيَتِهِمْ فِي عِبَادَةِ الأَصْنَامِ. وَانْطَلَقَ الحَجِيجُ وَلِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ هَدَفُهُ وَقَصْدُهُ. وَكَانَتْ نَفْسُ سَعْدٍ تَوَّاقَةً لِرُؤْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَلِكَ النَّبِيِّ الَّذِي يَأْتِيهِ النُّورُ مِنَ السَّمَاءِ، وَيَدْعُو إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ، وَإِلَى إِنْقَاذِ البَشَرِيَّةِ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ التَّدَنِّي وَالهُبُوطِ فِي الفِكْرِ، فَلَمْ تُصَدِّقْ نَفْسُهُ تِلْكَ السَّاعَةَ الَّتِي تَلْتَقِي فِيها مَعَ حَامِلِ مِشْعَلِ ذَلِكَ النُّورِ.

فِي العَقَبَةِ:

وَكَانَ مَوْعِدُ اللِّقَاءِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العَقَبَةَ، مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فِي الثُّلُثِ الثَّانِي مِنَ اللَّيْلِ. وَقَدْ نَامَ المُسْلِمُونَ مِنْ حُجَّاجِ يَثْرِبَ مَعَ قَوْمِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجُوا مِنْ رِحَالِهِمْ لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُتَسَلِّلِينَ مُسْتَخْفِينَ حَتَّى اجْتَمَعُوا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ العَقَبَةِ وَعَدَدُهُمْ ثَلاَثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلاً، وَمَعَهُمْ

امْرَأَتَانِ. ثُمَّ جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ. فتكَلَّمَ العَبَّاسُ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فقَالَ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، إنَّ مُحَمَّداً مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا، مِمَّنْ هُوَ عَلى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنعَةٍ فِي بَلَدِهِ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إلاَّ الإِنْحِيَازَ إِلَيْكُمْ، وَاللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ، وَمَا نِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ. وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسَلِّمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَمِنَ الآنَ فَدَعُوهُ فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ. قَالُوا: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فتكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ. فتكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَلاَ القُرآنَ، وَدَعَا إِلى اللَّهِ، وَرَغَّبَ فِي الإِسْلاَمِ، ثُمَّ قَالَ: أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ. فَأَخَذَ البَرَاءُ بنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِيْ بَعَثَكَ بِالحَقِّ نَبِيَّاً لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَزُرَنَا (نِسَاءَنَا)، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَنَحْنُ وَاللَّهِ أَبْنَاءُ الحُرُوبِ وَأَهْلُ الحَلْقَةِ، وَرِثْنَاهَا كَابِراً عَنْ كَابِرٍ. فَاعْتَرَضَ القَوْلَ أَبُو الهَيْثَمِ بنُ التَّيِّهَانِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا - يَعْنِي اليَهُودَ - فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ

أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدعَنا؟ فَتبسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: بَلْ الدَمَ الدَمَ، وَالْهَدْمَ الهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ. أَخرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُم اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ. فَأَخرَجُوا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، تِسْعَةً مِنَ الخَزْرَجِ، وَثَلاثَةً مِنَ الأَوْسِ. وَكَانَ سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَدَ نُقَبَاءِ الخَزْرَجِ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلنُّقَبَاءِ: أَنْتُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ بِمَا فِيهِمْ كُفَلاءَ، كَكَفَالَةِ الحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي يَعْنِي المُسْلِمِينَ.

وَقَالَ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بنِ نَضْلَةَ الأَنْصَارِيِّ مِنْ بَنِي سَالِمِ بنِ عَوْفٍ يَوْمَ التَقَوْا بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالْعَقَبَةِ لِلْبَيْعَةِ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، هَلْ تَدْرُونَ عَلامَ تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلِ؟ قَالُوا: نَعَمْ؛ قَالَ: إِنَّكُمْ تُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ إِذَا نُهِكَتْ أَمْوَالُكُمْ مُصِيبَةً، وَأَشْرَافُكُمْ قَتلاً أَسْلَمْتُمُوهُ، فَمِنَ الآنَ، فَهُوَ وَاللَّهِ إِنْ فَعَلْتُمْ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ عَلَى نَهْكَةِ الأَمْوَالِ،

وَقَتْلِ الأشْرَافِ، فَخُذُوهُ، فَهُوَ وَاللَّهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مُصِيبَةِ الأمْوَالِ، وَقَتْلِ الأشْرَافِ؛ فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ نَحْنُ وَفَيْنَا بِذَلِكَ؟ قَالَ: الجَنَّةُ. قَالُوا: ابْسُطْ يَدَكَ، فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعُوهُ. وَكَانَ العَبَّاسُ يَقُولُ ذَلِكَ لِيَشُدَّ العَقْدَ فِي أَعْنَاقِ الأنْصَارِ.

كَانَ سَعْدُبْنُ الرَّبِيعِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَسْمَعُ هَذَا وَلاَ يَتَكَلَّمُ، فَإِنَّ الكَلاَمَ جَمِيلٌ، وَهُوَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا لِيُقَالَ عَنْهُمْ أَنَّهمْ مِنَ المُتَكَلِّمِينَ، وَلاَ يُحِبُّ أَنْ يَظْهَرَ، فَفِي الكَلاَمِ مَا يُغْنِيهِ عَنِ الحَدِيثِ، وَلَوْ رَأَى مَا يَسْتَدْعِي إِلَى الكَلاَمِ لَتَحَدَّثَ وَأَجَادَ وَسُمِعَ لَهُ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَمِنْ سَادَةِ الخَزْرَجِ وَلِهَذَا كَانَ اخْتِيَارُهُمْ لَهُ بَيْنَ النُّقَبَاءِ.

وَبَعْدَ البَيْعَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِمَنْ بَايَعَهُ: ارْفَضُّوا إِلَى رِحَالِكُمْ، فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بنِ نَضْلَةَ، وَقَدَ شَعَرَ بِقُوَّةِ الإِيمَانِ وَعِزَّةِ الإِسْلاَمِ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَصْبَحُوا أَقْوَى مِنَ الدُّنْيَا كُلِّهَا: وَاللَّهِ الَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنَى غَداً بِأَسْيَافِنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ،

وَلَكِنْ ارْجَعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ. فَرَجَعُوا إِلَى رِحَالِهِمْ، وَنَامُوا لَمْ يَشْعُرْ بِهِمْ أَحَدٌ، وَلَمْ يَعْرِفْ مَاتَمَّ رَجُلٌ مِنْ حَجِيجِهِمْ الَّذِينَ لاَ يَزَالُونَ عَلَى الشِّرْكِ. وَلَوْ أَحَسَّ بِهِمْ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِمْ لَحَدَثَتْ مُشْكِلاَتٌ، وَتَعَقَّدَ الأمْرُ، وَرُبَّمَا أَصْبَحَ مَا فِي المَدِينَةِ لاَ يَخْتَلِفُ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ فِي مَكَّةَ مِنْ أَذَى الَّذِين أَسْلَمُوا وَاضْطِهَادِهِمْ مِنْ قِبَلِ ذَوِيهِمْ وَعَدَمِ إِمْكَانِيَّةِ هِجْرَةِ المُسْلِمِينَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، وَهَذِهِ فَائِدَةُ السِّرِّيَّةِ فِي العَمَلِ وَالدَّعْوَةِ لِتَحْقِيقِ مَا يُخَطَّطُ لَهُ بَعِيداً عَنْ أَعْيُنِ الأَعْدَاءِ، وَتَنْفِيذِ مَا يُرْسَمُ دُونَ عِلْمِ الخُصُومِ.

وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يَتْرُكْ أَمْراً يَتِمُّ فِيه طَاعَةُ اللَّهِ دُونَ أَنْ يُحَاوِلَ إِفْسَادَهُ، فَقَدْ وَسْوَسَ لِقُرَيْشٍ مَا حَدَثَ، فَمَا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ حَتَّى جَاءَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى الخَزْرَجِ فِي رِحَالِهِمْ فَقَالُوا لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا مِنْ حَيٍّ مِنْ العَرَبِ أَبْغَضُ إِلَيْنَا، أَنْ تَنْشَبَ الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، مِنْكُمْ، فَقَامَ مُشْرِكُو يَثْرِبَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا عَلِمُوا شَيْئاً. وَأَتَى القُرَشِيُّونَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الأَمْرَ جَسِيمٌ،

مَا كَانَ قَوْمِي لِيَتَفَوَّتُوا عَلَيَّ بِمِثْلِ هَذَا، وَمَا عَلِمْتُهُ كَانَ. فَانْصَرَفَ القُرَشِيُّونَ وَفِي النَّفْسِ شَيْءٌ فَتَقَصَّوْا الخَبَرَ بَعْدَ أَنْ نفر النَّاسُ مِنْ مِنىً فَوَجَدُوا الأمْرَ صَحِيحاً. فَخَرَجُوا فِي طَلَبِ القَوْمِ فَأَدْرَكُوا اثْنَيْنِ هُمَا: سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ وَالمُنْذِرُ بنُ عَمْروٍ وَكِلاَهُمَا مِنَ النُّقَبَاءِ، وَقَدْ أُفْلِتَ مِنْهُمُ المُنْذِرُ، وَأَخَذُوا سَعْدَاً فَرَبَطُوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ، وَأَدْخَلُوهُ مَكَّةَ، وَأَوْجَعُوهُ ضَرْبَاً، فَجَاءَ إِلَيْهِ جُبَيْرُ بنُ مُطْعِمٍ، وَالحَارِثُ بنُ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ فَخَلَّصَاهُ مِنْ قُرَيْشٍ إِذْ كَانَ يُجِيرُ لَهُمَا، فَعَادَ إِلَى المَدِينَةِ.

وَعِنْدَمَا رَجَعَ حُجَّاجُ يَثْرِبَ إِلَى مَدِينَتِهِمْ أَظْهَرَ المُسْلِمُونَ مِنْهُمْ إِسَلاَمَهُمْ. وَفِي مَكَّةَ أَمَر رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَصْحَابَهُ بِالخُرُوجِ إِلَى المَدِينَةِ، وَالهِجْرَةِ إِلَيْهَا، وَاللُّحُوقِ بِإِخْوَانِهِمْ مِنَ الأَنْصَارِ. ثُمَّ أُذِنَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالهِجْرَةِ فَهَاجَرَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، آخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ. فَآخَى بَيْنَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّهِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ، وَآخَى بَيْنَ عَمِّهِ حَمْزَةَ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَبَيْنَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيدِ بنِ حَارِثَةَ وَكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ،

وَآخَى بَيْنَ الزُّبيرِ بنِ العَوَّامِ وَعَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ وكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ، وَآخَى بَيْنَ بِلاَلِ بنِ رَبَاحٍ وَبَيْنَ عَبْدِاللَّـهِ الخَثْعَمِـيِّ وكِلاَهُمَا مُهَاجِرٌ، وَآخَى بَيْنَ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ وَجَعْفَرَ بنِ أَبِـي طَالِبٍ، وَجَعْفَرُ غَائِبٌ.

كَانَ سَعْدُ بنُ الرَّبيعِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَنْتَظِرُ دَوْرَ مُؤَاخَاتِـهِ وَيَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَعَ أَحَدِ الأنْصَارِ إِخْوَانِهِ وَبَنِي قَوْمِـهِ فَهُـوَ رَغْمَ مَحَبَّتِهِ الشَّدِيدَةِ لَهُمْ وَمَحَبَّةِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ إِلاَّ أَنَّ كُلَّ وَاحِـدٍ يُحِـبُّ أَنْ تَكُونَ مُؤَاخَاتُـهُ مَعَ المُهَاجِـرِينَ لِمَحَبَّتِهِـمُ الشَّدِيدَةِ لَهُمْ بِصِفَتِهِمْ مِنْ قَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنَ السَّابِقِينَ فِي الإِسْلاَمِ، فَعَسَى أَنْ يَسْتَفِيدُوا أيضـاً مِنْ تَرْبِيَتِهِمْ الَّتِي اسْتَفَادُوهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِقُرْبِهِمْ مِنْهُ، وَعَلَّهُمْ يَحْصُلُوا عَلَى بَعْضِ العِلْمِ مِنَ المُهَاجِرِينَ مِمَّا اقْتَبَسُوهُ مِنْ رَسُـولِ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَلِيُظْهِـرَ الأنْصَـارُ صِدْقَ مَا بَايَعُـوا عَلَيْهِ وَمَـا عَاهَـدُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ. وَلِتَظْهَـرَ قُوَّةُ الإِيمَـانِ وَلِتَظْهَرَ الأخُوَّةُ الصَّحِيحَةُ الصَّادِقَةُ بَيْنَ المُسْـلِمِينَ. كَمَـا كَانَ يَخْشَى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنْ تَكُونَ مُؤَاخَاتُهُ مَعَ أَحَدِ الغَائِبِينَ مِثْلَ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ.

وَلَمَّـا كَانَـتْ مُؤَاخَـاةُ سَعْدِ بـنِ الـرَّبيعِ مَعَ أَحَـدِ سَادَاتِ قُرَيْشٍ وَأَحَدِ السَّابِقِينَ إِلَى الإِسْـلاَمِ وَهُـوَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بـنُ عوفٍ كَادَ يَطِيرُ مِنَ الفَـرَحِ أَوْ لَمْ تَكَدْ نَفْسُـهُ تُصَـدِّقُ مَا تَمَّ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلى دَارِهِ، وَقُـدِّمَ الطَّعَـامُ لَهُمَـا، وَلَـمْ يَعْـرِفْ كَيْفَ يُكْرِمُهُ؟ كيف يُعَامِلُهُ؟ مَا هِيَ الطَّرِيقَةُ المُثْلَى لِلأُخُوَّةِ الصَّادِقَةِ؟ فَقَالَ لَهُ: يَا أَخِي، لِيَ امْرَأَتَانِ وَأَنْتَ أَخِي فِي اللَّهِ لاَ امْرَأَةَ لَكَ فَأَنْزِلُ لَكَ عَنْ إِحْدَاهُمَا فَانْظُرْ أَيُّهُمَا أَحْسَـنُ لَكَ [وَلَـمْ يَكُنِ الحِجَابُ قَدْ ضُرِبَ] فَأَتْرُكُهَا فَإِنِ انْقَضَـتْ عِدَّتُهَـا فَتَزَوَّجْهَـا، وَهُمَـا مُسْلِمَتَـانِ ـ وَلِلَّـهِ الحَمْـدُ ـ وَكُلٌّ مِنْهُمَـا مُسْتَعِدَّةٌ لِلْتَّضْحِيَةِ فِي نَفْسِها وَمَا تَمْلِكُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِرْضَاءِ إِخْوَانِنَا فِي اللَّهِ مِنَ المُهَاجِرِينَ إِلَيْنَا. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لا، وَاللَّهِ! وَقَالَ سَعْدُ: هَلُمَّ إِلَى حَدِيقَتِي أُشَاطِرْكَهَا، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لاَ، بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ. فَانْطَلَقَ فَاشْتَرَى سَمْنَاً وَأَقِطَاً وَبَاعَ، وَلَقِيَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ، فِي أَحَدِ طُرُقَاتِ المَدِينَةِ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ: مَهْيَمْ؟ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى وَزْنِ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ.

وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ الكُبْرَى فَشَهِدَهَا سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ، رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُ، وَأَبْلَى فِيها البَلاَءَ الوَاسِعَ، وَلَمْ يَتكَلَّمْ لاَ في المَعْرَكَةِ وَلاَ قَبْلَهَا وَلاَ بَعْدَهَا، يَكِرُّ عَلَى الأعَـداءِ صَامِتـاً، وَتَـرَاه بَعْـدَ القِتَالِ هَادِئاً.

وَاسْتَدَارَ العَامُ وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ، وَكَانَ سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ بَيْنَ أُسُودِهَا فَانْطَلَقَ بَيْنَ صُفُوفِ المُشْرِكِينَ يَعْمَلُ فِيهِمْ قَتْلاً لاَ يُبَالِي حَتَّى تَنَاوَشَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَسُيُوفُهُمْ وَسَقَـطَ صَرِيعَـاً بَيْنَهُـمْ، وَجَلَسَ يَتَقَلَّبُ على جِرَاحِهِ، ولكنَّهُ لاَ يُفَكِّرُ فِي آلاَمِهِ وَإِنَّما يُفَكِّرُ فِي رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ، صَاحِبَ الدَّعْوَةِ الَّتِي تَتَعَثَّرُ إِنْ أَصَابَهُ مَكْرُوهٌ إِذْ لاَ تَزَالُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا، وَسَعْـدٌ قَدْ عَاشَ لِلدَّعْوَةِ، وَلاَ يَرَى حَيَاتَهُ إلاَّ لَهَا. وَلَمْ يُفَكِّرْ بِالمَوْتِ إِذْ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا شَهَادَةٌ وَهِيَ مَا يَسْعَى لَهُ، وَيُحِبُّ السُّرْعَةَ لِلْوُصُولِ إِلَى الجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ المُتَّقِينَ وَالشُّهَدَاءَ، وَلاَ يُفَكِّرُ فِي أَهْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ وَلِيُّهُمْ. وَيُفَكِّرُ وَهُـوَ جَرِيحٌ يُنَـازِعُ سَكَرَاتِ المَوْتِ فِي رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي الدَّعْوَةِ وَفِي مِثْلِ هَذَا الوَقْتِ لاَ يُفَكِّرُ النَّاسُ عَادَةً إلاَّ بِحَالَتِهِمُ الَّتِي هُمْ فِيها وَآلاَمِهِمُ يُقَاسُونَهَا مِنْ جِرَاحِهِمْ، غَيْرَ أَنَّ نَفْسَهُ قَدْ سَمَـتْ فَارْتَفَعَتْ عَنْ دُنْيَاهُ وَرُوحَهُ قَدْ شَفَّـتْ فَلَـمْ يَعُـدْ يَحُسُّ بالآلامِ وَالجِرَاحِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ: مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ سَعْدِ بن ِ الرَّبِيع ِ؟ قَالَ رَجُلٌ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَطُوفُ بَيْنَ القَتْلَى، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بنُ الرَّبِيع ِ: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لآتِيهِ بِخَبَرِكَ، قَالَ: فَاذْهَبْ إِلَيْهِ فَأَقْرِئْهُ مِنِّيَ السَّلاَمَ، وَأَخْبِرْهُ أَنِّي قَدْ طُعِنْتُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ طَعْنَةً وَأَنْ قَدْ أُنْفِذَتْ مَقَاتِلِي، وَأَخْبِرْ قَوْمَكَ أَنَّهُ لاَ عُذْرَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَحَدٌ مِنْهُمْ حَيٌّ. وَمَاتَ سَعْدُ بنُ الرَّبِيع ِ مِنْ جِرَاحَاتِهِ تِلْكَ. وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ أَخُوهُ لأُمِّهِ خَارِجَةُ بنُ زَيْدِ بن ِ أَبِي زُهَيْرٍ فَدُفِنَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ.

مَاتَ سَعْدُ بنُ الرَّبِيع ِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وَلَيْس لَهُ سِوَى ابْنَتَيْن ِ، وَقَدْ ذَهَبَتْ امْرَأَةُ سَعْدٍ عَمْرَةُ بنتُ حَزْم ٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدٍ قُتِلَ أَبُوهُمَا يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيداً، وَإِنَّ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَالَهُمَا فَاسْتَفَادَهُ فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالاً، وَاللَّهِ لاَ تُنْكَحَانِ إِلاَّ وَلَهُمَا مَالٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ المِيرَاثِ، فَدَعَا عَمَّهُمَا فَقَالَ لَهُ: اعْطِ ابْنَتَيْ

سَعْدٍ الثُلُثَيْنِ ، واعْطِ أُمَّهُمَا الثُمُنَ وَلَكَ مَا بَقِيَ .

هَكَذَا كَانَ حُبُّ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، رِضْوَانُ اللَّهِ عَنْهُمْ ، لِلْنَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهَكَذَا كَانَتْ نَظْرَتُهُمْ إِلَى الدُّنْيَا فَدَانَتْ لَهُمْ وَمَلَكُوهَا ، فَعِنْدَمَا تَغَيَّرَتْ تِلْكَ النَّظْرَةُ مَلَكَتْهُمُ الدُّنْيَا واسْتَعْبَدَتْهُمْ فَعَاشُوا فِيهَا عَبِيداً أَذِلاَّءَ .

عُبَادَة بن الصَّامِت

رَضِيَ الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

وُلِدَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ فِي المَدِينَةِ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِثَمَانٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً، فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِخَمْسَةَ عَشَرَ عَاماً، وَعَاشَ حَتَّى تُوفِّيَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلاَثِينَ لِلْهِجْرَةِ فِي خِلاَفَةِ عُثْمَانَ بن عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَتَكُونُ حَيَاتُهُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً.

كَانَ رَجُلاً طَوِيلاً، جَسِيماً، ضَخْماً، أَسْوَدَ اللَّوْنِ، مَهِيباً، قَوِيَّ البُنْيَةِ، يَهْتَمُّ بِحُسْنِ لِبَاسِهِ.

أَمَّا أَبُوهُ الصَّامِتُ بنُ قَيْسِ بنِ أَصْرَمَ مِنْ بَنِي سَالِمِ بنِ عَوْفٍ مِنَ الخَزْرَجِ فَلَمْ يُدْرِكِ الإِسْلاَمَ، وَقَدْ تُوفِّيَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ.

وَأَمَّا أُمُّهُ فَهِيَ قُرَّةُ العَيْنِ بِنْتُ عُبَادَةَ بنِ نَضْلَةَ بنِ مَالِكٍ مِنَ الخَزْرَجِ أَيْضاً فَقَدْ أَسْلَمَتْ وَبَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ تُعْرَفْ غَيْرُ أُمِّهِ بِهَذَا الاسْمِ «قُرَّةُ العَيْنِ» فِي

تِلْكَ المَرْحَلَةِ. وَهِـيَ أُخْـتُ العَبَّاس بـن عُبَادَةَ بـن نَضْلَـةَ الأنْصَارِيِّ الَّذِيْ شَهِدَ بَيْعَةَ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ.

فِي الإِسْلاَمِ:

كَانَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ أَوَائِلِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنَ الأنْصَارِ، وَذَلِكَ فِي السَّنَةِ العَاشِرَةِ مِنْ بِعْثَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِسَنَوَاتٍ ثَلاَثٍ. وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، كَانَ يُوَافِـي المَوَاسِـمَ فِي كُلِّ عَامٍ، وَيَتْبَـعُ الحَـاجَّ فِي مَنَازِلِهِـمْ، وَفِـي الأَسْوَاقِ، فِي عُكَاظ، وَذِيْ مَجَنَّـةَ، وَذِيْ مَجَـازٍ، وَيَعْـرِضُ نَفْسَهُ عَلَى القَبَائِلِ كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهُ الفُرْصَةُ يَدْعُوهُـمْ إِلَـى أَنْ يَمْنَعُوهُ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَهَ رَبِّهِ، وَلَهُمُ الجَنَّةُ، وَيَقُولُ لَهُمْ: (يَا أَيُّهَا النَّـاسُ قُولُـوا: لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللَّـهَ تُفْلِحُـوا، وَتَمْلِـكُوا بِهَـا العَـرَبَ، وَتَـذِلُّ لَكُمُ العَجَـمُ، وَإِذَا آمَنْتُـمْ كُنْتُـمْ مُلُـوكاً فِي الجَنَّةِ). وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ مَنْ يَسْمَعْ مِنْهُ، وَلَمْ يَجِدْ نَاصِرَاً لَهُ إِلاَّ اللَّهَ. وَيَجِدُ أَحْيَاناً الرَدَّ القَبِيحَ بَلْ رُبَّما يَصِلُ الأَمْرُ إِلَى الأَذَى إِذْ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ فِيمَا تَقُولُ خَيْرَاً لاَ تَّبَعَكَ أَهْلُكَ فَهُمْ أَعْلَمُ بِكَ وَأَدْرَى، حَيْثُ كَانَ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ عَبْدُ العُزَّى بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ يَسِيرُ وَرَاءَهُ وَيُكَذِّبُهُ، وَيُسَفِّهُ رَأْيَهُ، وَيَقُولُ لِرِجَالِ القَبَائِـلِ:

«لاَ تَسْمَعُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ صَابِىءٌ كَاذِبٌ» وَيَقُولُ أَحْيَاناً «إِنَّهُ مَجْنُونٌ».

وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ لِدِينِهِ أَنْ يَنْتَشِرَ وَلِنَبِيِّهِ أَنْ يَنْتَصِرَ، وَأَنْ يُنْجِزَهُ مَا وَعَدَهُ، وَكَانَ قَدْ كَتَبَ لِلأَنْصَارِ هَذَا الخَيْرَ العَمِيمَ، فَوَجَّهَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى نَفَرٍ مِنْهُمْ وَهُمْ يَحْلِقُونَ رُؤُوسَهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ وَمِنْ قَوْمِهِ قُرَيْشٍ بَلْ أَعْمَاهُمُ اللَّهُ عَنْهُ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَؤُلاَءِ الأَنْصَارَ إِلَى اللَّهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَاسْتَجَابُوا إِلَيْهِ، وَصَدَّقُوهُ، وَكَانُوا دُونَ العَشْرَةِ ـ عَلَى اخْتِلاَفٍ فِي الرِّوَايَاتِ ـ وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، وَكُلُّهُمْ مِنَ الخَزْرَجِ.

وَعِنْدَمَا عَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الإِسْلاَمَ عَلَى هَؤُلاَءِ الخَزْرَجِ أَسْلَمُوا، فَقَالَ لَهُمْ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَمْنَعُونَ لِي ظَهْرِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي؟). فَقَالُوا لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْنُ مَجْتَهِدُونَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَنَحْنُ أَعْدَاءٌ مُتَبَاغِضُونَ، وَإِنَّمَا كَانَتْ وَقْعَةُ بُعَاثٍ[1] عَامَ الأَوَّلِ، يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِنَا اقْتَتَلْنَا فِيهِ، فَإِنْ تَقْدُمْ، وَنَحْنُ كَذَا، لاَ يَكُونُ لَنَا عَلَيْكَ

(١) بعاث: يوم من الأيام التي اقتتل فيها الخزرج والأوس، ودارت الدائرة على الخزرج، وكاد الأوس يستأصلونهم.

اجْتِمَاعٌ، فَدَعْنَا حتَّى نَرْجعَ إلِى عَشَائِرِنَا، لَعَلَّ اللَّهَ يُصْلِحُ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَمَوْعِدُكَ المَوْسِمُ المُقْبِلُ.

وَرَجَعَ هَؤُلاَءِ المُسْلِمُونَ إِلَى المَدِينَةِ، وَدَعُوا قَوْمَهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، فَأَسْلَمَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ مِنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إلاَّ فِيهَا ذِكْرٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمُنْذُ أَنْ أَسَلَمَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ارْتَبَطَ بِالإِسْلاَمِ ارتِبَاطَاً وَثِيقَاً، وَتَعَلَّقَ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَعَلُّقَاً شَدِيداً فَلَمْ يَكُنْ مَشْهَدٌ مِنْ مَشَاهِدِ الإِسْلاَمِ إلاَّ وَحَضَرَهُ، وَلَمْ يَغْزُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غَزْوَةً، وَلَمْ يَسِرْ إِلَى مَكَانٍ إلاَّ وَكَانَ مَعَهُ.

فِي العَقَبَةِ الأُولَى:

وَاسْتَدَارَ العَامُ عَلَى إِسْلاَمِ تِلْكَ الفِئَةِ المُؤْمِنَةِ القَلِيلَةِ مِنَ الأَنْصَارِ، وَسَارَ حُجَّاجُ المَدِينَةِ إِلَى المَوْسِمِ، وَكَانَ بَيْنَهُمُ اثْنَا عَشَرَ مُسْلِمَاً سَارُوا مَعَ الرَّكْبِ، وَالرَّكْبُ لاَ يَعْرِفُ إِسْلاَمَهُمْ، وَكَانَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ، بَيْنَهُمْ، كَانَ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ مِنَ الخَزْرَجِ وَاثْنَانِ مَنِ الأَوْسِ، وَالْتَقَى هَؤُلاَءِ

المُسْلِمُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالعَقَبَةِ، وَبَايَعُوهُ بَيْعَةَ العَقَبَةِ الأولَى، أَوْ كَمَا عُرِفَتْ بِبَيْعَةِ النِّسَاءِ. قَالَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ مِمَّنْ حَضَرَ العَقَبَةَ الأولَى، وَكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً، فَبَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُفْتَرَضَ الحَرْبُ، عَلَى أَنْ لاَ نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئَاً، وَلاَ نَسْرِقَ، وَلاَ نَزْنِيَ، وَلاَ نَقْتُلَ أَوْلاَدَنَا، وَلاَ نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلاَ نَعْصِيَهُ فِي مَعْرُوفٍ. فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمُ الجَنَّةُ، وَإِنْ غَشِيتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئَاً فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَ وَإِنْ شَاءَ غَفَـر.

وَقَدْ سُمِّيَتْ هَذِهِ البَيْعَةُ بِبَيْعَةِ النِّسَاءِ لأَنَّ المُؤْمِنَاتِ كُنَّ إِذَا هَاجَرْنَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُمْتَحَنَّ بِهَذَا حَسْبَ الآيَةِ الكَرِيمَةِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ المُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئَاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ ولا يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة الممتحنة الآية ١٢.

وَلَمَّا انْصَرَفَ الأنْصَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعَثَ مَعَهُمْ مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُقْرِئَهُمُ القُرْآنَ، وَيُعَلِّمَهُمُ الإسْلاَمَ، وَيُفَقِّهَهُمْ فِي الدِّينِ، فَكَانَ يُسَمَّى مُصْعَبُ بِالمَدِينَةِ بِالمُقْرِىءِ، وَكَانَ مَنْزِلُهُ عَلَى أَسْعَدِ بنِ زُرَارَةَ.

وَقَدْ وَصَلَ عَدَدُ المُسْلِمِينَ إلَى أَرْبَعِينَ مُسْلِمَاً وَكَانَ أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ أَوَّلَ مَنْ جَمَّعَ بِهِمْ فِي المَدِينَةِ وَبَدَأَ العَدَدُ يَزْدَادُ، وَمَا جَاءَ المَوْسِمُ إلاَّ وَكَثُرَ المُسْلِمُونَ فَخَرَجَ مِنْهُمْ ثَلاَثَةٌ وَسَبْعُونَ مُسْلِمَاً إلَى الحَجِّ مَعَ امْرَأَتَينِ وَكَانَ مَوْعِدُهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالعَقَبَةِ بِأَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الثُّلُثِ الأوَّلِ مِنَ اللَّيْلِ. أَمَّا عَدَدُ حَجِيجِ المَدِينَةِ مُسْلِمُهُمْ وَمُشْرِكُهُمْ فَقَدْ بَلَغَ خَمْسمَائَةِ حَاجٍّ. وَحِينَ وَعَدَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَرَهُمْ أَنْ لاَ يُنَبِّهُوا نَائِماً وَلاَ يَنْتَظِرُوا غَائِبَاً.

فِي العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ:

فَلَمَّا هَدَأَ اللَّيْلُ وَنَامَ النَّاسُ قَامَ المُسْلِمُونَ يَتَسَلَّلُونَ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَيْنِ لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا

اجْتَمَعُوا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ بنُ عَبْد المُطَّلِبِ، فَكَانَ أَوَّلَ المُتَكَلِّمِينَ، وَتَكَلَّمَ مِنَ الأنْصَارِ مَنْ تَكَلَّمَ، ثُمَّ تَمَّتْ بَيْعَةُ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي فِيهَا النَّصرُ وَالحِمَايَةُ، قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نُبَايِعُكَ. فَقَالَ: (تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَالنَّفَقَةِ فِي العُسْرِ وَاليُسْرِ، وَعَلَى الأمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ، لاَ تَخَافُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَأَزْوَاجَكُمْ، وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمْ الجَنَّةُ)، فَبَايَعُوهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِلأَنْصَارِ: أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ، فَأَخْرَجُوا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، تِسْعَةً مِنَ الخَزْرَجِ، وَثَلاَثَةً مِنَ الأوْسِ، وَكَانَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَدَ نُقَبَاءِ الخَزْرَجِ.

فِي المَدِينَةِ:

وَرَجَعَ الأنْصَارُ إِلَى المَدِينَةِ، وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى المُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي مَكَّةَ بِالهِجْرَةِ إِلَى إِخْوَانِهِمْ فِي المَدِينَةِ فَبَدَأَتْ هِجْرَةُ المُسْلِمِينَ، ثُمَّ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ، وَآخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ مُؤَاخَاةُ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ مَعَ أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوِيِّ كَنَّازِ بنِ الحُصَيْنِ. وَكَانَتْ هَذِهِ المُؤَاخَاةُ بِمَثَابَةِ صَهْرِ المُسْلِمِينَ جَمِيعاً فِي كُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ أَمَامَ أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ، ثُمّ وَادَعَ يَهُودَ فَكَانَ أَهْلُ المَدِينَةِ جَمِيعُهُمْ قُوَّةً تَقِفُ أَمَامَ أَيِّ غَزْوٍ لِمَدِينَتِهِمْ أَوْ أَيِّ هُجُومٍ تَتَعَرَّضُ لَهُ سَوَاءٌ أَكَانَ مِنْ قُرَيْشٍ أَمْ مِنْ أَيَّةِ قَبِيلَةٍ مِنْ قَبَائِلِ العَرَبِ أَوْ أَيَّةِ فِئَةٍ مِنَ النَّاسِ.

أَصْبَحَتِ المَدِينَةُ دَاراً لِلإِسْلَامِ وَمَعْقِلاً يَلْجَؤُونَ إِلَيْهِ، وَعِنْدَهَا شَرَعَ اللَّهُ جِهَادَ الأَعْدَاءِ إِذْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

بَدَأَ المُسْلِمُونَ يَسْتَعِدُّونَ لِلْجِهَادِ فَمَسَحُوا الأَرْضَ الَّتِي

(١) سورة الحج ٣٩ ـ ٤٠.

تَوَقَّعُوا أَنْ تَكُونَ مَيْدَاناً لِلْقِتَالِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ ، مَسَحُوهَا بِالسَّرَايَا وَالغَزَوَاتِ الَّتِي جَاسَتْهَا، وَتَعَرَّفُوا عَلَى سُكَّانِهَا مِنَ القَبَائِلِ ، وَعَقَدُوا اتِّفَاقَاتٍ مَعَ بَعْضِ هَذِهِ القَبَائِلِ ، وَأَظْهَرُوا قُوَّتَهُمْ لِقُرَيْشٍ وَأَبْدُوا فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ اسْتَعْدَادَهُمْ لِلنِّزَالِ بِتَعَرُّضِهِمْ لِلْقَوَافِلِ الغَادِيَةِ وَالرَّائِحَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالشَّامِ حَتَّى إِذَا قَضَى اللَّهُ وُقُوعَ القِتَالِ تَعَرَّضَ المُسْلِمُونَ لِعِيرِ أَبِي سُفْيَانَ لَكِنَّهَا نَجَتْ، وَهَبَّتْ قُرَيْشٌ لإِنْقَاذِ قَافِلَتِهَا وَعَمِلَتْ عَلَى تَأْدِيبِ المُسْلِمِينَ عَلَى زَعْمِهَا فَكَانَ القِتَالُ، وانْتَصَرَ الحَقُّ وَهُزِمَ البَاطِلُ، وَكَانَتِ الخَسَارَةُ الجَسِيمَةُ لِقُرَيْشٍ إِذْ خَلَّفَتْ عَلَى أَرْضِ المَعْرَكَةِ صَنَادِيدَ الشِّرْكِ وَأَبْطَالَ الْكُفْرِ صَرْعَى، وَسَلَّمَتْ زُعَمَاءَ البَاطِلِ وَكِبَارَ الطُّغَاةِ أَسْرَى لِلْمُسْلِمِينَ. وَكَانَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَطَلاً مِنْ أَبْطَالِ المُسْلِمِينَ فِي بَدْرٍ.

وَرَجَعَ المُسْلِمُونَ إِلَى المَدِينَةِ يَسُوقُونَ أَمَامَهُمُ الأَسَارَى، وَيَحْمِلُونَ مَعَهُمُ الغَنَائِمَ، وَرَأَى ذَلِكَ المُنَافِقُونَ فَكَانَتْ صَدْمَةً إِلَيْهِمْ كَبِيرَةً وَكَانُوا قَدْ كَذَّبُوا البَشِيرَ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ بَدْرٍ إِثْرَ مَعْرَكَتِهَا مِنْ قِبَلِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ كَانَ قَدْ بَعَثَ عَبْدَاللَّهِ بنَ رَوَاحَةَ بَشِيراً إِلَى أَهْلِ العَالِيَةِ وَزَيْدَ بنَ

حَارِثَةَ إِلَى أَهْلِ السَّافِلَةِ فَكَذَّبُوهُمَا. وَشَاهَدَ يَهُودُ مَا أَصَابَ المُسْلِمُونَ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَكَانَتْ لَطْمَةً عَنِيفَةً لَهُمْ أَذْهَلَتْهُمْ فَرَأَوْا أَنْ يَتَقَوَّوْا بِكَلاَمِهِمْ وَيَفْتَخِرُوا بِقَوْلِهِمْ خَوْفاً وَجَزَعاً فَقَالَ قَائِلُهُمْ وَهُوَ مَالِكُ بنُ الصَّيْفِ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ رَدّاً عَلَى حُلَفَائِهِمْ مِنَ الخَزْرَجِ حِينَ قَالُوا لَهُمْ: أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِيَوْمٍ مِثْلِ يَوْمِ بَدْرٍ، قَالَ: أَغَرَّكُمْ إِنْ أَصَبْتُمْ رَهْطاً مِنْ قُرَيْشٍ لاَ عِلْمَ لَهُمْ بِالقِتَالِ، أَمَا لَوْ أَسْرَرْنَا العَزِيْمَةَ أَنْ نَسْتَجْمِعَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَدٌ أَنْ تُقَاتِلُونَا. وَمَا أَنْ يَسْمَعَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هَذَا القَوْلَ مِنْ حُلَفَائِهِ اليَهُودِ حَتَّى يَتَحَرَّكَ الإِيمَانُ فِي نَفْسِهِ وَيَرْتَفِعَ عَنِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا، وَيُسْرِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَوْلِيَائِي مِنَ اليَهُودِ كَانَتْ شَدِيدَةً نُفُوسُهُمْ، كَثِيراً سِلاَحُهُمْ، شَدِيدَةً شَوْكَتُهُمْ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وَلاَيَةِ يَهُودٍ وَلاَ مَوْلَىً لِي إِلاَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ مِنَ الخَزْرَجِ وَكَانَ زَعِيماً مِنْ زُعَمَائِهِمْ وَلَهُ مَوَالِي مِنْ يَهُودَ كَمَا لِعُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ لَكِنِّي لاَ أَبْرَأُ مِنْ وَلاَيَةِ يَهُودَ إِنِّي رَجُلٌ لاَ بُدَّ لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَا أَبَا الحُبَابِ أَرَأَيْتَ الَّذِيْ نَفَسْتَ بِهِ مِنْ وَلاَيَةِ يَهُودَ عَلَى عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ فَهُوَ لَكَ دُونَهُ) فَقَالَ: إِذَنْ أَقْبَلُ،

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ. وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾[1].

وَقِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَأَى الشَّرَّ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ فَجَمَعَهُمْ بِسُوقِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، احْذَرُوا مِنَ اللَّهِ مِثْلَ مَا نَزَلَ بِقُرَيْشٍ مِنَ النَّقْمَةِ، وَأَسْلِمُوا، فَإِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنِّي نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ وَعَهْدِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ؛ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ: إِنَّكَ تَرَى أَنَّا قَوْمُكَ! لاَ يَغُرَّنَكَ أَنَّكَ لَقِيتَ قَوْماً لاَ عِلْمَ لَهُمْ بِالحَرْبِ، فَأَصَبْتَ مِنْهُمْ فُرْصَةً، إِنَّا وَاللَّهِ لَئِن حَارَبْنَاكَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّا نَحْنُ النَّاسَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ. قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَقَتَا، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي

---

(١) سورة المائدة ٥١ ـ ٥٣.

سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ العَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ﴾[1].

وَقِيلَ: إِنَّ امْرَأَةً مِنَ العَرَبِ قَدِمَتْ بِجَلَبٍ لَهَا، فَبَاعَتْهُ بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعٍ، وَجَلَسَتْ إِلَى صَائِغٍ بِهَا، فَجَعَلُوا يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ، فَعَمَدَ الصَّائِغُ إِلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا، فَعَقَدَهُ إِلَى ظَهْرِهَا، فَلَمَّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ سَوْأَتُهَا، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَتْ. فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِغِ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ يَهُودِيّاً، وَشَدَّتِ اليَهُودُ عَلَى المُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ، فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ المُسْلِمِ المُسْلِمِينَ عَلَى اليَهُودِ، فَغَضِبَ المُسْلِمُونَ، فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعٍ.

فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بن أُبَيٍّ بن سَلُولٍ، حِينَ أَمْكَنَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ، وَكَانُوا حُلَفَاءَ الخَزْرَجِ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرْسِلْنِي،

---

(١) سورة آل عمران ١٢ ـ ١٣.

وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى رَأَوْا لِوَجْهِهِ ظُلَلاً، ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ أَرْسِلْنِي؛ قَالَ: وَاللَّهِ لاَ أُرْسِلُكَ حَتَّى تُحْسِنَ فِي مَوَالِيَّ، أَرْبَعُمِائَةِ حَاسِرٍ، وَثَلاَثُمائَةِ دَارِعٍ قَدْ مَنَعُونِي مِنَ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ، تَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، إِنِّي وَاللَّهِ امْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَائِرَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هُمْ لَكَ.

وَقَدِ اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى المَدِينَةِ أَثْنَاءَ حِصَار بَنِي قَيْنُقَاعٍ الَّذِي اسْتَمَرَّ خَمْسَ عَشَرَةَ لَيْلَةً بَشِيرَ بنَ عَبْدِ المُنْذِرِ. وَقَدْ تَشَبَّثَ عَبْدُاللَّهِ بنِ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ بِبَنِي قَيْنُقَاعٍ، وَقَامَ دُونَهُمْ، وَمَشَى عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ لَهُ مِنْ حِلْفِهِمْ مِثْلُ الَّذِيْ لَهُمْ مِنْ عَبْدِاللَّهِ بنِ أُبَيٍّ، فَخَلَعَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَبَرَّأَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ حِلْفِهِمْ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ، وَأَبْرَأُ مِنْ حِلْفِ هَؤُلاَءِ الكُفَّارِ وَوَلاَيَتِهِمْ. وَفِي هَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي

القَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾[1] . وَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَنِي قَيْنُقَاعٍ مِنَ المَدِينَةِ.

وَشَهِدَ عُبَادَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، المَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ حَضَرَ بَعْدَ بَدْرٍ، أُحُداً، وَالخَنْدَقَ، وَصُلْحَ الحُدَيْبِيَةِ، وَفَتْحَ خَيْبَرَ و. . .

وَاسْتَعْمَلَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى جِبَايَةِ

(١) سورة المائدة ٥١ ـ ٥٦.

الصَّدَقَاتِ، وَقَالَ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ يَا أَبَا الوَلِيدِ، اتَّقِ اللَّـهَ، لاَ تَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٍ لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةٍ لَهَا ثُؤَاجٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ؟ قَالَ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ ذَلِكَ لِكَذَلِكَ، إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَعْمَلُ عَلَى اثْنَيْنِ أَبَداً.

وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، وَهُـوَ عَنْـهُ رَاضٍ.

فِي الشَّامِ:

خَرَجَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ مَعَ الجُيُوشِ الفَاتِحَةِ إِلَى الشَّامِ، وَاسْتَقَرَّ هُنَاكَ. وَكَتَبَ يَزِيدُ بـنُ أَبِـي سُفْيَانَ أَمِيرُ الشَّـامِ إِلَـى عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أَمِيرِ المُـؤْمِنِينَ كِتَابـاً يَقُـولُ فِيهِ: إِنَّ أَهْـلَ الشَّامِ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُعَلِّمَهُمُ الإِسْلاَمَ، وَيُفَقِّهُهُمْ فِي الدِّينِ، فَأَشَارَ عُمَرُ إِلَى يَزِيدَ بِأَنْ يَكُونَ المُرْشِدُونَ مُعَاذَ بـنَ جَبَـلٍ، وَعُبَادَةَ بنَ الصَّامِتِ، وَأَبَا الدَرْدَاءِ.

وَلَّى أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ أَمِيرُ جُيُوشِ الشَّامِ عُبَادَةَ بـنَ الصَّامِتِ إِمْرَةَ حِمْصَ، ثُمَّ صَرَفَهُ إِلَى الجِهَادِ فَفَتَحَ اللاَّذِقِيَّةَ، وَجَبْلَةَ، وَانْطَرْطُوسَ (طَرْطُوسَ) سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ.

فِي مِصْرَ:

وَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِطَاعُونِ عَمْوَاسَ سَنَةَ ثَمَانِي عَشْرَةَ أَعَادَهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ إِلَى إِمْرَةِ حِمْصَ ثَانِيَةً ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ صَرَفَهُ إِلَى الجِهَادِ حَيْثُ سَيَّرَهُ إِلَى مِصْرَ، لأَنَّ عَمْرَو بنَ العَاصِ كَانَ قَدْ وَجَدَ فِي حِصْنِ بَابِلْيُون عَقَبَةً أَمَامَهُ، فَكَتَبَ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ يَسْتَمِدُّهُ، وَيعْلِمُهُ بِذَلِكَ، فَأَمَدَّهُ بِأَرْبَعَةِ آلافِ رَجُلٍ عَلَى كُلِّ أَلْفِ رَجُلٍ مِنْهُمْ رَجُلٌ يَقُومُ مَقَامَ الأَلْفِ: الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وَالمِقْدَادُ بنُ عَمْرو، وَعُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، وَمَسْلَمَةُ بنُ مُخَلَّدِ، وَقِيلَ بَلْ خَارِجَةُ بنُ حُذَافَةَ بَدَلاً مِن مَسْلَمَةَ وَقَالَ عُمَرُ لَهُ: اعْلَمْ أَنَّ مَعَكَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً مِنْ قِلَّةٍ. فَلَمَّا أَبْطَأَ الفَتْحُ عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ كَتَبَ إِلَى عَمْرو بنِ العَاصِ، أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ عَجِبْتُ لإِبْطَائِكُمْ عَنْ فَتْحِ مِصْرَ، إِنَّكُمْ تُقَاتِلُونَهُمْ مُنْذُ سَنَتَيْنِ؛ وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لِمَا أَحْدَثْتُمْ وَأَحْبَبْتُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَحَبَّ عَدُوُّكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لاَ يَنْصُرُ قَوْماً إِلا بِصِدْقِ نِيَّاتِهِمْ، وَقَدْ كُنْتُ وَجَّهْتُ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ، وَأَعْلَمْتُكَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ مَقَامَ أَلْفِ رَجُلٍ، عَلَى مَا كُنْتُ أَعْرِفُ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ غَيَّرَهُمْ مَا غَيَّرَهُمْ! فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي، فَاخْطُبِ النَّاسَ، وَحُضَّهُمْ

عَلَى قِتَالِ عَدُوِّهِمْ، وَرَغِّبْهُمْ فِي الصَّبْرِ والنِّيَةِ، وَقَـدِّمْ أُولَئِـكَ الأَرْبَعَةَ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، وَمُرِ النَّاسَ جَمِيعَاً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ صَدْمَةٌ كَصَدْمَةِ رَجُـلٍ وَاحِـدٍ، وَلْيَكُنْ ذَلِكَ عِنْـدَ الـزَّوَالِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَإِنَّهَا سَاعَةٌ تَنْزِلُ الرَّحْمَةُ فِيهَـا، وَوَقْـتُ الإِجَابَـةِ، وَلْيَعُجَّ النَّاسُ إِلَى اللَّهِ، وَيَسْأَلُوهُ النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ.

فَلَمَّا أَتَى عَمْرَاً الكِتَابَ، جَمَعَ النَّاسَ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَـابَ عُمَرَ، ثُمَّ دَعَا أُولَئِكَ النَّفَرَ، فَقَدَّمَهُمْ أَمَامَ النَّاسِ ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، وَيُصَلُّوا رَكْعَتَينِ ، ثُمَّ يَرْغَبُوا إِلَى اللَّـهِ تَعَالَـى، وَيَسْأَلُوهُ النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَفَعَلُوا فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

وَحِينَ حَاصَـرَ المُسْلِمُـونَ حِصْـنَ بَابِلْيُونَ وَكَانَ قَوِيَّاً وَفِيهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الرُّومِ يُدَافِعُونَ عَنْـهُ بِجَانِـبِ القِبْـطِ، والقِبْـطُ قَدْ حَشَدُوا فِيهِ أَمْهَرَ فُرْسَانِهِمْ وَأَقْوَى أَبْطَالِهِمْ وَعَلَيْهِـمْ المُقَـوْقَسُ حَاكِمُ مِصْرَ، لِذَا فَقَدْ تَأَخَّرَ الفَتْحُ وَطَالَ الحِصَارُ إِذْ دَامَ شَهْرَاً كَامِـلاً. وَلَمَّـا رَأَى القِبْـطُ عَزِيمَـةَ المُسْلِمينَ عَلَـى الفَتْـحِ وَإِصرَارِهِمْ عَلَى دُخُولِ الحِصْنِ ، وَصَبْرِهِـمْ عَلَـى الحِصَـارِ وَقُوَّتِهِمْ فِي الجِلاَدِ خَرَجَ المُقَوْقِسُ وَمَعَهُ أَكَابِرُ القِبْطِ مِنْ بَابِ الحِصْنِ القِبْلِيِّ، وَتَرَكُوا بِهِ حَامِيَةً لِلدِّفَاعِ عَنْهُ، وَالْتَجَؤُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي النِّيلِ ، وَأَمَرُوا بِقَطْعِ الجِسْرِ الَّذِي يَصِلُهَا بِالْبَـرِّ،

وَكَانَ النِّيلُ فِي أَوْجِ فَيضَانِهِ، وَكَانَ قَائِدُ حَامِيَةِ الحِصْنِ مِنْ قِبَلِ المُقَوْقِسِ قَائِدٌ يُدْعَى «الأعَيْرِجُ» فَلَمَّا خَافَ مِنِ اقْتِحَامِ المُسْلِمِينَ الحِصْنَ عَلَيْهِ، رَكِبَ هُوَ وَأَهْلُ القُوَّةِ وَالشَّرَفِ مِنْ أَتْبَاعِهِ السُّفُنَ المُلْصَقَةَ بِالحِصْنِ وَلَحِقُوا بِالمُقَوْقِسِ فِي الجَزِيرَةِ.

رَأَى المُقَوْقِسُ مُفَاوَضَةَ المُسْلِمِينَ، وَظَنَّ أَنَّهُ يُمْكِنُهُ تَخْوِيفَهُمْ فَيَقْبَلُونَ الصُّلْحَ، وَيَحْصَلُ عَلَى شُرُوطٍ أَفْضَلَ فَكَتَبَ إلَى قَائِدِ المُسْلِمِينَ عَمْرِو بنِ العَاصِ كِتَاباً يَقُولُ فِيْهِ: «إِنَّكُمْ قَدْ وَلَجْتُمْ فِي بِلاَدِنَا، وَأَلْحَحْتُمْ عَلَى قِتَالِنَا، وَطَالَ مُقَامُكُمْ فِي أَرْضِنَا، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ عُصْبَةٌ يَسِيرَةٌ، وَقَدْ أَظَلَّكُمُ الرُّومُ وَجَهَّزُوا إِلَيْكُمْ، وَمَعَهُمْ مِنَ العُدَّةِ والسِّلاَحِ، وَقَدْ أَحَاطَ بِكُمْ هَذَا النِّيلُ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ أُسَارَى فِي أَيْدِينَا، فَأَرْسِلُوا إِلَيْنَا رِجَالاً مِنْكُمْ نَسْمَعُ مِنْ كَلاَمِهِمْ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَأْتِيَ الأمْرُ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ عَلَى مَا تُحِبُّونَ وَنُحِبُّ، وَيَنْقَطِعُ عَنَّا وَعَنْكُمْ هَذَا القِتَالُ قَبْلَ أَنْ تَغْشَاكُمْ جُمُوعُ الرُّومِ، فَلاَ يَنْفَعُنَا الكَلاَمُ، وَلاَ يُقْدَرُ عَلَيْهِ. وَلَعَلَّكُمْ تَنْدَمُوا إِنْ كَانَ الأمْرُ مُخَالِفاً لِمَطْلَبِكُمْ وَرَجَائِكُمْ، فَابْعَثُوا إِلَيْنَا رِجَالاً مِنْ أَصْحَابِكُمْ، نُعَامِلُهُمْ عَلَى مَا نَرْضَى نَحْنُ وَهُمْ بِهِ مِنْ شَيْءٍ».

وَصَلَتْ رُسُلُ المُقَوْقِسِ إِلَى عَمْرِو بنِ العَاصِ تَحْمِلُ إِلَيْهِ كِتَابَ سَيِّدِهَا، فَأَحَبَّ أَنْ يُبْقِيهِمْ بَيْنَ المُسْلِمِينَ لِيَرَوْا قُوَّتَهُمْ وَيَعْرِفُوا طَاعَتَهُمْ، فَتَضْعَفَ مَعْنَوِيَّاتُ القِبْطِ فَاسْتَبْقَاهُمْ عِنْدَهُ يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنَ مَعَ لَيَالِيهِمَا حَتَّى خَشِيَ المُقَوْقِسُ عَلَى رُسُلِهِ، وَتَسَاءَلَ مَعَ نَفْسِهِ وَسَأَلَ أَصْحَابَهُ: «أَتَرَوْنَ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ الرُّسُلَ وَيَحْبِسُونَهُمْ، وَيَسْتَحِلُّونَ ذَلِكَ فِي دِينِهِمْ».

وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ أَطْلَقَ عَمْرُو بنُ العَاصِ الرُّسُلَ وَمَعَهُمُ الرَّدُّ إِلَى المُقَوْقِسِ وَفِيهِ: لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ سِوَى خِصَالٍ ثَلاَثٍ عَلَيْكُمْ اخْتِيَارَ إِحْدَاهَا.

١ ـ الدُّخُولُ فِي الإِسْلاَمِ، وَعِنْدَهَا تَكُونُونَ إِخْوَةً لَنَا، لَكُمْ مَالَنَا وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْنَا.

٢ ـ إِنْ أَبَيْتُمُ الإِسْلاَمَ، عَلَيْكُمْ إِعْطَاءَ الجِزْيَةِ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ.

٣ ـ وَإِمَّا القِتَالُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ.

وَقَدْ تَنَاسَى الإِنْذَارَ أَوْ أَفْهَمَهُمْ بِهَذَا أَنَّ المُسْلِمِينَ لاَ يَهْتَمُّونَ بِإِنْذَارٍ وَلاَ يُبَالُونَ بِتَهْدِيدٍ فَهُمْ يُقَاتِلُونَ لِلَّهِ، وَيَطْلُبُونَ النَّصْرَ مِنْهُ وَحْدَهُ، وَلاَ يُبَالُونَ إِلاَّ بِرِضَاهُ.

وَصَلَتْ إِلَى المُقَوْقِس رُسُلُهُ فَاسْتَقْبَلَهُمْ بِسُرْعَةٍ وَسَأَلَهُمْ عَنْ حَالَةِ المُسْلِمِينَ فَقَالُوا: «رَأَيْنَا قَوْمَاً المَوْتُ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الحَيَاةِ، وَالتَّوَاضُعُ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الرِّفْعَةِ، لَيْسَ لأَحَدِهِمْ فِي الدُّنْيَا رَغْبَةٌ وَلاَ نَهْمَةٌ، وَإِنَّمَا جُلُوسُهُمْ عَلَى التُّرَابِ، وَأَكْلُهُمْ عَلَى رُكَبِهِمْ، وَأَمِيرُهُمْ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ، مَا يُعْرَفُ رَفِيعُهُمْ مِنْ وَضِيعِهِمْ، وَلاَ السَّيِّدُ فِيهِمْ مِنَ العَبْدِ. وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ، يَغْسِلُونَ أَطْرَافَهُمْ بِالمَاءِ، وَيَتَخَشَّعُونَ فِي صَلاَتِهِمْ».

وَكَانَ لِهَذَا الوَصْفِ أَثَرُهُ فِي إِضْعَافِ مَعْنَوِيَّاتِ القِبْطِ إِذْ قَالَ المُقَوْقِسُ بَعْدَ أَنْ سَمِعَ مَا سَمِعَ عَنْ حَالَةِ المُسْلِمِينَ: «وَالَّذِيْ يُحْلَفُ بِهِ، لَوْ أَنَّ هَؤُلاَءِ اسْتَقْبَلُوا الجِبَالَ لأَزَالُوهَا، وَلاَ يَقْوَى عَلَى قِتَالِ هَؤُلاَءِ أَحَدٌ، وَلَئِنْ لَمْ نَغْتَنِمْ صُلْحَهُمُ اليَوْمَ، وَهُمْ مَحْصُورُونَ بِهَذَا النِّيلِ، لَمْ يُجِيبُونَا بَعْدَ اليَوم إِذَا أَمْكَنَتْهُمُ الأَرْضُ، وَقَوُوا عَلَى الخُرُوجِ مِنْ مَوْضِعِهِمْ». وَرَدَّ رُسُلَهُ إِلَى عَمْرٍو وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَقُولُوا لَهُ: ابْعَثْ إِلَيْنَا رُسُلاً مِنْكُمْ نُعَامِلُهُمْ وَنَتَدَاعَى نَحْنُ وَهُمْ إِلَى مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ.

بَعَثَ عَمْرُو بنُ العَاص عَشَرَةَ رِجَالٍ عَلَيْهِمْ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ مُتَكَلِّمَ القَوْمِ، وَأَلاَّ يُجِيبَهُمْ إِلَى

شَيْءٍ دَعُوهُ إلاَّ إِلَى إِحْدَى ثَلاَثٍ: الإِسْلاَمِ، أَوِ الجِزْيَةِ أَوِ القِتَالِ، فَإِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ قَدَ تَقَدَّمَ فِي ذَلِكَ إِليَّ، وَأَمَرَنِي أَلاَّ أَقْبَلَ شَيْئاً سِوَى خِصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَلاَثِ خِصَالٍ.

رَكِبَ الوَفْدُ السَّفِينَةَ، وَوَصَلَ إِلَى الجَزِيرَةِ، وَدَخَلَ عَلَى المُقَوْقِسِ، وَتَقَدَّمَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ لِيُكَلِّمَهُ فَهَابَهُ المُقَوْقِسُ بِسَوَادِهِ وَطُولِهِ، إِذْ كَانَ أَسْوَدَ يَقْرُبُ طُولُهُ مِنَ المِتْرَيْنِ، فَقَالَ المُقَوْقِسُ: نَحُّوا عَنِّي هَذَا الأَسْوَدَ، وَقَدِّمُوا غَيْرَهُ يُكَلِّمُنِي. فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الأَسْوَدَ أَفْضَلُنَا رَأْياً وَعِلْماً، وَهُوَ سَيِّدُنَا وَخَيْرُنَا، وَالمُقَدَّمُ عَلَيْنا، وَإِنَّا نَرْجعُ جَمِيعاً إِلَى قَوْلِهِ وَرَأْيِهِ، وَقَدْ أَمَّرَهُ الأَمِيرُ دُونَنَا بِمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَأَمَرَنَا أَلاَّ نُخَالِفَ رَأْيَهُ وَقَوْلَهُ.

وَيَبْدُو أَنَّ المُقَوْقِسَ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ صُفُوفَ الوَفْدِ أَوْ يَخْتَبِرَ بِنَفْسِهِ طَاعَتَهُمْ، فَقَالَ: وَكَيْفَ رَضِيتُمْ أَنْ يَكُونَ هَذَا الأَسْوَدُ أَفْضَلَكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ دُونَكُمْ؟ قَالُوا: كَلاَّ! وَإِنْ كَانَ أَسْوَدَ كَمَا تَرَى، فَإِنَّه مِنْ أَفْضَلِنَا مَوْضِعاً وَأَفْضَلِنَا سَابِقَةً وَعَقْلاً وَرَأْياً، وَلَيْسَ يُنْكَرُ السَّوَادُ فِينَا.

فَلَمَّا فَشِلَ المُقَوْقِسُ فِيمَا أَرَادَ قَالَ لِعُبَادَةَ: تَقَدَّمْ يَا أَسْوَدُ

وَكَلِّمْنِي بِرِفْقٍ ، فَإِنِّي أَهَابُ سَوَادَكَ ، وَإِنِ اشْتَدَّ عَلَيَّ كَلاَمُكَ ، ازْدَدْت لَكَ هَيْبَةً .

تَقَدَّمَ عبادة ، رضي اللّه عنه ، فقال : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ ، وَإِنَّ فِيمَنْ خَلَّفْتُ مِنْ أَصْحَابِي أَلْفَ رَجُلٍ أَسْوَدُ كُلُّهُمْ مِثْلِي ، وَأَشَدُّ سَوَاداً مِنِّي وَأَفْظَعُ مَنْظَراً ، وَلَوْ رَأَيْتَهُمْ لَكُنْتَ أَهْيَبَ لَهُمْ مِنِّي ، وَأَنَا قَدْ وَلَّيْتُ وَأَدْبَرَ شَبَابِي ، وَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ بِحَمْدِ اللّهِ مَا أَهَابُ مائَةَ رَجُلٍ مِنْ عَدُوِّي لَوِ اسْتَقْبَلُونِي جَمِيعاً ، وَكَذَا أَصْحَابِي . وَذَلِكَ إِنَّمَا رَغْبَتُنَا الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللّهِ ، وَاتِّبَاعَ رِضْوَانِ اللّهِ ، وَلَيسَ غَزْوُنَا عَدُوَّنَا مِمَّنْ حَارَبَ اللّهَ لِرَغْبَةٍ فِي الدُّنْيَا ، وَلاَ طَلَباً لِلاسْتِكْثَارِ مِنْهَا ؛ إِلاَّ أَنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحَلَّ ذَلِكَ لَنَا ، وَجَعَلَ مَا غَنِمْنَا مِنْ ذَلِكَ حَلاَلاً ، وَمَا يُبَالِي أَحَدُنَا : أَكَانَ لَهُ قِنْطَارٌ مِنْ ذَهَبٍ ، أَمْ كَانَ لاَ يَمْلِكُ إِلاَّ دِرْهَماً ! لأَنَّ غَايَةَ أَحَدِنَا مِنَ الدُّنْيَا أَكْلَةٌ يَأْكُلُهَا ، يَسُدُّ بِهَا جَوْعَتَهُ ، وَشَمْلَةٌ يَلْتَحِفُهَا ، فإن كان لا يملك إلا ذلك كَفَاهُ ، وَإِنْ كَانَ لَهُ قِنْطَارٌ مِنْ ذَهَبٍ أَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ اللّهِ ، وَاقْتَصَرَ عَلَى هَذَا الَّذِي بِيَدِهِ ، لأَنَّ نَعِيمَ الدُّنْيَا لَيسَ بِنَعِيمٍ ، وَرَخَاءَهَا لَيسَ بِرَخَاءٍ ، إِنَّمَا النَّعِيمُ وَالرَّخَاءُ فِي الآخِرَةِ ، وَبِذَلِكَ أَمَرَنَا رَبُّنَا ، وَأَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ، وَعَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ تَكُونَ هِمَّةُ أَحَدِنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ فِيمَا يُمْسِكُ

جَوْعَتَهُ، وَيَسْتُرُ عَوْرَتَهُ، وَتَكُونُ هِمَّتُهُ وَشُغْلُهُ فِي رِضَا رَبِّهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ.

فَلَما انتَهَى عُبَادَةُ مِنْ كَلاَمِهِ، قَالَ المُقَوْقِسُ لِمَنْ حَوْلَهُ: هَلْ سَمِعْتُمْ مِثْلَ كَلاَمِ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ! لَقَدْ هِبْتُ مَنْظَرَهُ، وَإِنَّ قَوْلَهُ عِنْدِي لأَهْيَبُ مِنْ مَنْظَرِهِ، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ أَخْرَجَهُمُ اللَّهُ لِخَرَابِ الأَرْضِ، وَمَا أَظُنُّ مَلِكَهُمْ إِلاَّ سَيَغْلِبُ عَلَى الأَرْضِ كُلِّها.

وَعَادَ المُقَوْقِسُ إِلَى التَّهْدِيدِ بِصُورَةٍ هَادِئَةٍ بَعْدَ أَنِ اسْتَجْمَعَ قُوَاهُ فَقَالَ لِعُبَادَةَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ، وَمَا ذَكَرْتَ عَنْكَ وَعَنْ أَصْحَابِكَ، وَلَعَمْرِي مَا بَلَغْتُمْ إِلاَّ بِمَا ذَكَرْتَ، وَلاَ ظَهَرْتُمْ عَلَى مَنْ ظَهَرْتُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ لِحُبِّهِمُ الدُّنْيَا وَرَغْبَتِهِمْ فِيهَا، وَقَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْنَا لِقِتَالِكُمْ مِنْ جَمْعِ الرُّومِ مَا لاَ يُحْصَى عَدَدُهُ، قَوْمٌ مَعْروفُونَ بِالنَّجْدَةِ وَالشِّدَّة مِمَّنْ لاَ يُبَالِي أَحَدُهُمْ مَنْ لَقِيَ وَلاَ مَنْ قَاتَلَ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَنْ تَقْوَوا عَلَيْهِمْ وَلَنْ تَطِيقُوهُمْ لِضَعْفِكُمْ وَقِلَّتِكُمْ، وَقَدْ أَقَمْتُمْ بَيْنَ أَظْهُرِنَا أَشْهُراً، وَأَنْتُمْ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ فِي مَعَاشِكُمْ وَحَالِكُمْ، وَنَحْنُ نَرِقُّ عَلَيْكُمْ لِضَعْفِكُمْ وَقِلَّتِكُمْ وَقِلَّةِ مَا بِأَيْدِيكُمْ، وَنَحْنُ تَطِيبُ أَنْفُسُنَا أَنْ نُصَالِحَكُمْ عَلَى أَنْ نَفْرِضَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ دِينَارَيْنِ

دِيْنَـارَيْنِ ، وَلأَمِيرِكُمْ مائـةَ دِينَـارٍ، وَلِخَلِيفَتِـكُمْ أَلْفَ دِينَـارٍ، فَتَقْبِضُونَهَا وَتَنْصَرِفُونَ إِلَى بِلاَدِكُمْ قَبْـلَ أَنْ يَغْشَـاكُمْ مَا لاَ قُوَّةَ لَكُمْ بِهِ.

فَقَالَ عُبَادَةُ: يَا هَذَا لاَ تَغُرَّنَّ نفسَكَ وَلاَ أَصْحَابَكَ. أَمَّا مَا تُخَوِّفُنا بِهِ مِنْ جَمْعِ الرُّومِ وَعَدَدِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ، وَأَنَّا لاَ نَقْوَى عَلَيْهِمْ، فَلَعَمْرِي مَا هَذَا الَّذِيْ تُخَوِّفُنَا بِهِ، وَلاَ بِالَّذِي يَكْسِرُنَا عَمَّا نَحْنُ فِيهِ. إِنْ كَانَ مَا قُلْتُمْ حَقّاً فَذَلِكَ وَاللَّهِ أَرْغَبُ مَا يَكُونُ فِي قِتَالِهِمْ، وَأَشَدُّ لِحِرْصِنَا عَلَيْهِمْ؛ لأِنَّ ذَلِكَ أَعْذَرُ لَنَا عِنْـدَ رَبِّنَا إِذَا قَدِمْنَا عَلَيْهِ، وَإِنْ قُتِلْنَا مِنْ آخِرِنَـا كَانَ أَمْكَنَ لَنَـا فِي رِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَقَرُّ لأِعْيُنِنا، وَلاَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّا مِنْكُمْ حِينَئِذٍ عَلَى إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ.

إِمَّا أَنْ تَعْظُمَ لَنَا بِذَلِكَ غَنِيمَةُ الدُّنْيَا إِنْ ظَفِرْنَا بِكُمْ، أَوْ غَنِيمَةُ الآخِرَةِ إِنْ ظَفِرْتُمْ بِنَا، وَإِنَّهَـا لأَحَـبُّ الخِصْلَتَينِ إِلَيْنَـا بَعْـدَ الاجْتِهَادِ مِنَّا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لَنَا فِي كِتَابِهِ: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وَمَا مِنَّا رَجُلٌ إِلاَّ وَهُوَ يَدْعُو رَبَّهُ صَبَاحـاً مَسَـاءً أَنْ يَرْزُقَـهُ الشَّهَادَةَ، وَأَلاَّ يُرَدَّ إِلَى بَلَدِهِ، وَلاَ إِلَـى أَهْلِـهِ وَوَلَـدِهِ، وَلَيْس لأِحَدٍ مِنَّا هَمٌّ فِيمَا خَلَّفَهُ، وَقَدِ اسْتَوْدَعَ كُلُّ واحدٍ مِنَّا رَبَّهُ أَهْلَهُ

وَوَلَدَهُ، وَإِنَّمَا هَمُّنَا مَا أَمَامَنَا.

وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ مِنْ مَعَاشِنَا وَحَالِنَا، فَنَحْنُ فِي أَوْسَعِ السَّعَةِ، لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا كُلُّهَا لَنَا مَا أَرَدْنَا لأَنْفُسِنَا مِنْهَا أَكْثَرَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ. فَانْظُرِ الَّذِي تُرِيدُ، فَبَيِّنْهُ لَنَا، فَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ خِصْلَةٌ نَقْبَلُهَا مِنْكُمْ وَلاَ نُجِيبُكَ إِلَيْهَا إِلاَّ خِصْلَةٌ مِنْ ثَلاَثٍ، فَاخْتَرْ أَيُّهَا شِئْتَ، وَلاَ تُطْمِعْ نَفْسَكَ فِي البَاطِلِ؛ بِذَلِكَ أَمَرَنِي الأَمِيرُ، وَبِهَا أَمَرَهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ؛ وَهُوَ عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ قَبْلُ إِلَيْنَا.

أَمَّا إِنْ أَجَبْتُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ الَّذِيْ هُوَ الدِّينُ الَّذِيْ لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ، وَهُوَ دِينُ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، أَمَرَنَا اللَّهُ أَنْ نُقَاتِلَ مَنْ خَالَفَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ حَتَّى يَدْخُلَ فِيهِ، فَإِنْ فَعَلَ كَانَ لَهُ مَالَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا، وَكَانَ أَخَانَا فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنْ قَبِلْتَ ذَلِكَ أَنْتَ وَأَصْحَابَكَ فَقَدْ سَعِدْتُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَرَجَعْنَا عَنْ قِتَالِكُمْ، وَلَمْ نَسْتَحِلَّ أَذَاكُمْ وَلاَ التَّعَرُّضَ لَكُمْ.

وَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ الجِزْيَةَ، فَأَدُّوا إِلَيْنَا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ، نُعَامِلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ نَرْضَى بِهِ نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِي كُلِّ عَامٍ أَبَداً مَا بَقِينَا وَبَقِيتُمْ، وَنُقَاتِلُ عَنْكُمْ مَنْ نَاوَأَكُمْ وَعَرَضَ لَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَرْضِكُمْ وَدِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَنَقُومُ بِذَلِكَ عَنْكُمْ، إِذْ كُنْتُمْ

فِي ذِمَّتِنا، وَكَانَ لَكُمْ بِهِ عَهْدُ اللَّهِ عَلَيْنَا.

وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلاَّ المُحَاكَمَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى نَمُوتَ عَنْ آخِرِنَا أَوْ نُصِيبَ مَا نُرِيدُ مِنْكُمْ.

هَذَا دِينُنَا الَّذِي نَدِينُ اللَّهَ تَعَالَى بِهِ، وَلاَ يَجُوزُ لَنْا فِيمَا بَيْننا وَبَيْنَهُ غَيْرُهُ، فَانْظُرُوا لأَنْفُسِكُمْ. فَقَالَ المُقَوْقِسُ: هَذَا مِمَّا لاَ يَكُونُ أَبَداً، مَا تُرِيدُونَ إِلاَّ أَنْ تَتَّخِذُونَا عَبِيداً مَا كَانَتِ الدُّنْيَا. فَقَالَ عُبَادَةُ: هُوَ ذَاكَ، فَاخْتَرْ مَا شِئْتَ.

فَقَالَ المُقَوْقِسُ: أَفَلاَ تُجِيبُونَا إِلَى خِصْلَةٍ غَيْرِ هَذِهِ الخِصَالِ الثَّلاَثِ؟ فَرَفَعَ عُبَادَةُ يَدَيْهِ، وَقَالَ: لاَ، وَرَبِّ السَّمَاءِ وَرَبِّ هَذِهِ الأَرْضِ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ، مَالَكُمْ عِنْدَنَا خِصْلَةٌ غَيْرُهَا، فَاخْتَارُوا لأَنْفُسِكُمْ.

الْتَفَتَ المُقَوْقِسُ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَقَالَ: قَدْ فَرَغَ القَوْلُ فَمَا تَرَوْنَ؟ فَقَالُوا: أَوَ يَرْضَى أَحَدٌ بِهَذَا الذُّلِّ؟ أَمَّا مَا أَرَادُوا الدُّخُولَ فِي دِينِهِمْ؛ فَهَذَا لاَ يَكُونُ أَبَداً، وَلاَ نَتْرُكُ دِينَ المَسِيحِ ابنِ مَرْيَمَ، وَنَدْخُلُ فِي دِينٍ لاَ نَعْرِفُهُ، وَأَمَّا مَا أَرَادُوا أَنْ يَسْبُونَا وَيَجْعَلُونَا عَبِيداً أَبَداً، فَالمَوْتُ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ لَوْ رَضُوا أَنْ نُضَاعِفَ لَهُمْ مَا أَعْطَيْنَاهُمْ مِرَاراً، كَانَ أَهْوَنَ عَلَيْنَا.

فَقَالَ المُقَوْقِسُ لِعُبَادَةَ: قَدْ أَبَى القَوْمُ، فَمَا تَرَى؟ فَرَاجِعْ صَاحِبَكَ، عَلَى أَنْ نُعْطِيَكُمْ فِي مَرَّتِكُمْ هَذِهِ مَا تَمَنَّيْتُم وَتَنْصَرِفُونَ.

فَقَامَ عُبَادَةُ وَأَصْحَابُهُ.

فَقَالَ المُقَوْقِسُ لِمَنْ حَوْلَهُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَطِيعُونِي، وَأَجِيبُوا القَوْمَ إِلى خِصْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَلاَثِ، فَوَاللَّهِ مَالَكُمْ بِهِم طَاقَةٌ! وَإِنْ لَمْ تُجِيبُوا طَائِعِينَ لَتُجِيبُنَّهُمْ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمَ مِنْهَا كَارِهِينَ.

فَقَالُوا: أَيُّ خِصْلَةٍ نُجِيبُهُمْ إِلَيْهَا؟

قَالَ: إِذَنْ أُخْبِرُكُمْ... أَمَّا دُخُولُكُمْ فِي غَيْرِ دِينِكُمْ، فَلاَ آمُرُكُمْ بِهِ؛ وَأَمَّا قِتَالُهُمْ فَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ، وَلَنْ تَصْبِرُوا صَبْرَهُمَ، وَلاَ بُدَّ مِن الثَالِثَةِ.

قَالُوا: فَنَكُونُ لَهُمْ عَبِيداً أَبَداً؟ قَالَ: نَعَمْ تَكُونُونَ عَبِيداً مُسَلَّطِينَ فِي بِلاَدِكُمْ، آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَذَرَارِيكُمْ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَمُوتُوا عَنْ آخِرِكُمْ، وَتَكُونُوا عَبِيداً، وَتُبَاعُوا وَتُمَزَّقُوا فِي البِلاَدِ مُسْتَبْعَدِينَ أَبَداً، أَنْتُمْ وَأَهْلُوكُمْ وَذَرَارِيكُمْ.

قَالُوا: فَالمَوْتُ أَهْوَنُ عَلَيْنَا. وَأمَرُوا بِقَطْعِ الجِسْرِ بَيْنَ الجَزِيرَةِ وَالبَرِّ، وَفِي الحِصْنِ حِصْنِ بَابِلْيُونَ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الرُّومِ وَالقِبْطِ.

وَاسْتَعَدَّ المُسْلِمُونَ لِلْقِتَالِ وَهَاجَمُوا الحِصْنَ بِحَمَاسَةٍ وَشَجَاعَةٍ فَتَمَكَّنُوا مِنْ فَتْحِهِ، وَقَدْ قَتَلُوا كَثِيراً مِنْ أَعْدَائِهِمْ وَأَسَرُوا الكَثِيرَ، ثُمَّ طَلَبَ المُقَوْقِسُ عَقْدَ صُلْحٍ مَعَ المُسْلِمِينَ، فَتَمَّ الصُّلْحُ عَلَى فَرْضِ جِزْيَةٍ عَلَى السُّكَانِ بِمُعَدَّلِ دِينَارَيْنِ عَلَى الفَرْدِ الوَاحِدِ. وَبَقِيتِ الأَرْضُ بِيَدِ أَهْلِهَا، وَوُضِعَ الخَرَاجُ عَلَى الأَرْضِ، وَالجِزْيَةُ عَلَى الأَشْخَاصِ.

وَبَعْدَ أَنْ تَمَكَّنَ المُسْلِمُونَ فِي مِصْرَ وَجَّهَهُ عَمْرُو بنُ العَاصِ عَلَى رَأْسِ حَمْلَةٍ إِلَى الإِسْكَنْدَرِيَّةِ فَتَمَّ لَهُ فَتْحَهَا.

العَوْدَةُ إِلَى الشَّامِ:

بَعْدَ فَتْحِ مِصْرَ رَجعَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى الشَّامِ، وَأَقَامَ فِي مِنْطَقَةِ فِلِسْطِينَ، وَكَانَ أَوَّلَ قَاضٍ فِيهَا، وَكَانَ مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَمِيرَ الشَّامِ. وَكَانَ يَغْزُو بِلاَدَ الرُّومِ بَيْنَ المُدَّةِ وَالأخْرَى، ثُمَّ بَنَى أُسْطُولاً بَعْدَ أَنِ استَشَارَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ، رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُ، وَبَدَأَ يُنَازِلُ الرُّومَ بَحْـراً، وَكَانَ أَوَّلَ غَزْوَةٍ لَهُ غَزْوُ قَبْرُص عَامَ ٢٧، وَكَانَ الغَزْوُ اخْتِيَارِيَّاً، فَتَطَوَّعَ فِيْهِ فِيمَنْ تَطَوَّعَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، وَكَانَتْ مَعَهُ زَوْجُهُ أُمُّ حَرَامٍ، وَقَدْ تُوفِّيَتْ هُنَاكَ بَعْدَ أَنْ وَقَعَتْ عَنِ دَابَّتِهَا، وَدُفِنَتْ فِي جَزِيرَةِ قُبْرُصَ.

وَرَجَعَ عُبَادَةُ مِنَ الجِهَادِ فَأَقَامَ بِالرَّمْلَةِ بِفِلَسْطِينَ وَبَقِيَ فِيهَا حَتَّى تُوفِّيَ عَامَ ٣٤ فِي خِلاَفَةِ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ، وَإِمْرَةِ مُعَاوِيَةَ عَلَى الشَّامِ، وَدُفِنَ هُنَاكَ. وَتَقُولُ بَعْضُ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ دُفِنَ فِي القُدْسِ، وَبَعْضُهَا تَجْعَلُ وَفَاتَهُ عَامَ ٤٥ فِي خِلاَفَةِ مُعَاوِيَةَ، وَبَعْضُهَا الآخَرُ يَجْعَلُ وَفَاتَهُ بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ.

فِي القِتَالِ:

كَانَ انْضِمَامُ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ إِلَى جَيْشٍ مِنْ جُيُوشِ الفَتْحِ كَفِيلاً بِزِيَادَةِ مَعْنَوِيَّاتِهِ، إِذْ كَانَ يَتَقَدَّمُ المُقَاتِلِينَ، وَيَنْطَلِقُ كَالسَّهْمِ، لاَ يُبَالِي بِأَيِّ عَدُوٍّ أَمَامَهُ، وَكَانَ طُولُهُ يُسَاعِدُهُ لِيَنَالَ مِنْ خُصُومِهِ قَبْلَ أَنْ يَنَالُوا مِنْهُ هَذَا إِضَافَةً إِلَى شَجَاعَتِهِ، وَطَلَبِهِ لِلشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَشْتَرِكُ فِي هَذِهِ المِيِّزَةِ كَثِيرٌ مِنْ جُنْدِ الإِسْلاَمِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ نُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ عَدَمَ الْتِفَاتِهِ إِلَى الغَنَائِمِ مَهْمَا

كَثُرَتْ، وَلاَ يُبَالِي بِمَا يُخَلِّفُهُ الأعْدَاءُ مَهْمَا عَظُمَ، فَيُرْوَى أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي أَثْنَاءَ حِصَارِ حِصْنِ بَابِلْيُونَ فِي مِصْرَ، وَفَرَسُهُ عِنْدَهُ، فَرَآهُ قَوْمٌ مِنَ الرُّومِ فَطَمِعُوا فِيهِ فَخَرجُوا إِلَيْهِ، وَعَلَيْهِمْ حُلْيَةٌ وَبِزَّةٌ، فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهُ، سَلَّمَ مِنَ الصَّلاَةِ، وَوَثَبَ عَلَى فَرَسِهِ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْهُ وَلُّوا هَارِبِينَ فَتَبِعَهُمْ، فَجَعَلُوا يُلْقُونَ مَنَاطِقَهُمْ وَمَتَاعَهُمْ لِيُشْغِلُوهُ بِذَلِكَ عَنْ طَلَبِهِمْ؛ فَصَارَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ حَتَّى دَخَلُوا إِلَى الحِصْنِ، وَرُمِيَ عُبَادَةُ مِنْ فَوْقِ الحِصْنِ بِالحِجَارَةِ، فَرَجَعَ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِشَيْءٍ مِمَّا طَرَحُوهُ مِنْ مَتَاعِهِمْ، حَتَّى رَجَعَ إِلَى مَوْضِعِهِ الَّذِيْ كَانَ فِيْهِ، فَاسْتَقْبَلَ الصَّلاَةَ، وَخَرَجَ الرُّومُ إلى مَتَاعِهِمْ فَجَمَعُوهُ.

مِنْ مَوَاقِفِهِ:

١ ـ غَزَا عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ مَعَ مُعَاوِيَةَ أَرْضَ الرُّومِ، فَنَظَرَ إِلَى النَّاسِ، وَهُمْ يَتَبَايَعُونَ كِسَرَ الذَّهَبِ بِالدَّنَانِيرِ، وَكِسَرَ الفِضَّةِ بِالدَّرَاهِمِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَأْكُلُونَ الرِّبَا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: (لاَتَبْتَاعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إلاَّ مِثْلاً بِمِثْلٍ، لاَ زِيَادَةَ بَيْنَهُمَا، وَلاَ نَظِرَةَ)، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: يَا أَبَا الوَلِيدِ، لاَ أَرَى الرِّبَا فِي هَذَا إلاَّ مَا كَانَ مِنْ

نَظِرَةٍ. فَقَالَ عُبَادَةُ: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُحَدِّثُنِي عَنْ رَأْيِكَ! لَئِنْ أَخْرَجَنِي اللَّهُ لاَ أُسَاكِنُكَ بِأَرْضٍ لَكَ عَلَيَّ فِيهَا إِمْرَةٌ.

وَرَجَعَ عُبَادَةُ إِلَى المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: مَا أَقْدَمَكَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟ فَقَصَّ عَلَيْهِ القِصَّةَ وَمَا قَالَ مِنْ مُسَاكَنَتِهِ. فَقَالَ لَهُ: ارْجَعْ يَا أَبَا الوَلِيدِ إِلَى أَرْضِكَ، فَقَبَّحَ اللَّهُ أَرْضاً لَسْتَ فِيهَا وَأَمْثَالُكَ. وَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ: لاَ إِمْرَةَ لَكَ عَلَيْهِ، وَاحْمِلِ النَّاسَ عَلَى مَا قَالَ، فَإِنَّهُ هُوَ الأَمْرُ.

٢ ـ خَطَبَ مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَذَكَرَ الفِرَارَ مِنَ الطَّاعُونِ[١] فِي خُطْبَتِهِ، فَقَالَ لَهُ عُبَادَةُ: أُمُّكَ هِنْدُ أَعْلَمُ مِنْكَ، فَأَتَمَّ مُعَاوِيَةُ خُطْبَتَهُ، ثُمَّ صَلَّى، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى عُبَادَةَ، فَقَال لَهُ: أَلَمْ تَتَّقِ اللَّهَ وَتَسْتَحِي إِمَامَكَ؟ فَقَالَ عُبَادَةُ: أَلَيْسَ قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى

---

(١) حديث الطاعون: قال عبد الرحمن بن عوف: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدُمُوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه). رواه البخاري، ومسلم، وأخرجه أبو داود، ومالك في الموطأ. وكذا روي عن أسامة بن زيد، وأخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، والطبراني.

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَيْلَةَ العَقَبَةِ، أَنِّي لاَ أَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ؟.

ثُمَّ خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عِنْدَ العَصْرِ، فَصَلَّى العَصْرَ، ثُمّ أَخَذَ بِقَائِمَةِ المِنْبَرِ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ: إِنِّي قَدْ ذَكَرْتُ لَكُمْ حَدِيثاً عَلَى المِنْبَرِ، فَدَخَلْتُ البَيْتَ، فَإِذَا الحَدِيثُ كَمَا حَدَّثَنِي عُبَادَةُ، فَاقْتَبِسُوا مِنْهُ فَهُوَ أَفْقَهُ مِنِّي[1].

رِوَايَتُهُ لِلْحَدِيثِ:

رُوِيَ لَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مائةٌ وَوَاحِدٌ وَثَمَانُونَ حَدِيثاً، اتَّفَقَ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْهَا عَلَى سِتَّةٍ، وَانْفَرَدَ البُخَارِيُّ بِحَدِيثَيْنِ، وَمُسْلِمٌ بِآخَرَيْنِ. وَرَوى أَكْثَرُ الأَحَادِيثِ عَنْه الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

رَوَى عَنْهُ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ، وَأَبُو أُمَامَةُ البَاهِلِيُّ، وَجَابِرُ بنُ عَبْدِاللَّهِ، وَفَضَالَةُ بنُ عُبَيْدٍ، وَأَبُو أُبَيٍّ بنُ أُمِّ حَرَامٍ عَبْدُاللَّهِ بنُ عَمْرٍو.

وَرَوَى عَنْهُ مِنَ التَّابِعِينَ أَبُو إِدْرِيسَ الخَوْلاَنِيُّ، وَأَبُو مُسْلِمٍ الخَوْلاَنيُّ، وَجَنَادَةُ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ، وَأَبُو الأَشْعَثُ الصَّنْعَانِيُّ،

(١) تهذيب ابن عساكر.

وَجُبَيْرُ بنُ نَضِيرٍ الحَضْرَمِيُّ الحِمْصِيُّ، وَحَطَّانُ بنُ عَبْدِاللَّهِ الرَّقَاشِيُّ البَصْرِيُّ، وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ عُسَيْلَةَ أَبُو عَبْدِاللَّهِ الصَّنَابِحِيُّ، وَعَطَاءُ بنُ يَسَارٍ المَدَنِيُّ وَغَيْرُهُمْ، وَمِنْهُمْ أَوْلاَدُهُ الوَلِيدُ، وَعَبْدُاللَّهِ، وَدَاوُدُ.

نِسَاؤُهُ وَأَوْلاَدُهُ:

تَزَوَّجَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ امْرَأَتَيْنِ أَنْجَبَتَا لَهُ عِدَّةَ أَوْلاَدٍ، فَقَدْ تَزَوَّجَ:

١ ـ جَمِيلَةَ بنتَ أَبِي صَعْصَعَةَ، وَأَبُو صَعْصَعَةَ: هُوَ عَمْرُو بنُ زَيْدِ بنِ عَوْفٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، وَقَدْ أَسْلَمَتْ جَمِيلَةُ، وَبَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْجَبَتْ لِعُبَادَةَ الوَلِيدَ فِي أَوَاخِرِ عَهْدِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَخَلَفَ عُبَادَةَ عَلَيْهَا الرَّبِيعُ بنُ سُرَاقَةَ بنِ عَمْرٍو الخَزْرَجِيِّ الأَنْصَارِيِّ فَوَلَدَتْ لَهُ عَبْدَاللَّهِ، وَمُحَمَّداً، وَبُثَيْنَةَ. وَبَعْدَ سُرَاقَةَ تَزَوَّجَهَا خَلْدَةُ بنُ أَبِي خَالِدِ بنِ قَيْسِ بنِ خَالِدٍ الخَزْرَجِيِّ الأَنْصَارِيِّ.

٢ ـ أُمَّ حَرَام بِنْتَ مَلْحَانَ بنِ خَالِدٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ مِنَ

الخَزْرَجِ ، وَقَدْ أَسْلَمَتْ وَبَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْجَبَتْ لِعُبَادَةَ مُحَمَّداً. وَكَانَ قَدْ تَزَوَّجَهَا عَمْرُو بنُ قَيْسِ بنِ زَيْدٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، فَأَنْجَبَتْ لَهُ قَيْساً وَعَبْدَ اللَّهِ، وَذَلِكَ قَبْلَ زَوَاجِ عُبَادَةُ بِهَا.

وَأُمُّ حَرَامٍ خَالَةُ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ خَادِمِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ رَوَى عَنْهَا أَنَّها قَالَتْ: قَالَ[1] رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بَيْتِي فَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ هَذَا البَحْرَ كَالمُلُوكِ عَلَى الأسِرَّةِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: أَنْتِ مِنْهُمْ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ فَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ بَضْحَكُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ هَذَا البَحْرَ كَالمُلُوكِ عَلَى الأسِرَّةِ، قَالَتْ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ. فَغَزَتْ مَعَ زَوْجِهَا عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ قُبْرُصَ فَوَقَصَتْهَا رَاحِلَتُهَا فَمَاتَتْ، وَدُفِنَتْ فِي قُبْرُصَ.

وَمِنْ أَوْلَادِهِ عَبْدُ اللَّهِ وَدَاوُدُ مِنْ أُمَّهاتِ أَوْلَادٍ.

---

(١) قال يقيل قيلولة: نام في الظهيرة.

إِخْوَتُهُ:

لَهُ مِنَ الإِخْوَةِ الأَشِقَّـاءِ أَوْسُ بـنُ الصَّامِـتِ، وَهُـوَ الَّـذِي تَزَوَّجَ خَوْلَةَ بِنْتَ ثَعْلَبَةَ، واخْتَلَفَتْ مَعَهُ فَظَاهَرَ مِنْهَا فَاشْتَكَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا، وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ـ من سورة المجادلة ـ.

وَخَوْلَةُ بِنْتُ الصَّامِتِ: وَأَسْلَمَتْ وَبَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَزَوَّجَهَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَزِيدُ بـنُ ثَعْلَبَةَ مِنْ بَلِي فَوَلَدَتْ لَهُ عَامِراً وَأُمَّ عُثْمَانَ.

- ٢٤ -

عَبْدُ الله بن رَوَاحَة

رَضِيَ الله عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

يَنْتَمِي عَبْدُ اللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ إِلَى بَنِي الحَارِثِ أَحَدِ بُطُونِ الخَزْرَجِ المَعْرُوفِينَ، وَتُعَدُّ أُسْرَتُهُ مِنْ أَهْلِ الوَجَاهَةِ فِي يَثْرِبَ. وَأُمُّهُ خَزْرَجِيَّةٌ أَيْضاً، وَهِيَ كَبْشَةُ بِنْتُ وَاقِدٍ يَلْتَقِي نَسَبُهَا بِنَسَبِهِ فِي الجَدِّ الخَامِسِ.

نَشَأَ عَبْدُ اللَّهِ فِي بَيْتِ عِزٍّ فَتَعَلَّمَ الكِتَابَةَ، وَهِيَ قَلِيلَةٌ يَوْمَذَاكَ، وَنَظَمَ الشِّعْرَ وَوَصَلَ إِلَى مَرْتَبَةٍ فِيهِ حَتَّى غَدَا شَاعِرَ الخَزْرَجِ يُدَافِعُ عَنْهُمْ. وَكَانَتْ وَقَائِعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِمُ الأَوْسِ الَّذِينَ يُمَثِّلُهُمْ فِي الشِّعْرِ قَيْسُ بنُ الخَطِيمِ، فَكَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا يُنَاقِضُ الآخَرَ فِي شِعْرِهِ وَيَرُدُّ بَعْضُهُمَا عَلَى بَعْضٍ، وَيَتَغَزَّلُ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِأُخْتِ الآخَرِ، فَعَبْدُ اللَّهِ يَتَغَزَّلُ بـ (لَيْلَى) أُخْتِ قَيْسٍ، وَقَيْسُ يَتَغَزَّلُ بـ (عَمْرَةَ) أُخْتِ عَبْدِاللَّهِ.

إِسْلَامُه:

وَانْتَشَرَ الإِسْلَامُ فِي المَدِينَةِ بَيْنَ أَوْسِهَا وَخَزْرَجِهَا بَعْدَ أَنِ

التَقَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِبَعْضِ أَفْرَادٍ مِنَ الخَزْرَجِ فِي مَوْسِمِ السَّنَةِ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ لِلْبِعْثَةِ، وَلَمَّا عَادَ هَؤُلاَءِ الأَفْرَادُ إِلَى مَدِينَتِهِمْ بَدَؤُوا يَدْعُونَ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَفِي مَوْسِمِ السَّنَةِ التَالِيَةِ كَانَتْ بَيْعَةُ العَقَبَةِ الأولَى بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالأَنْصَارِ، وَعِنْدَمَا رَجَعُوا إِلَى المَدِينَةِ كَانَ مَعَهُمْ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ لِيُقْرِئَهُمُ القُرْآنَ، وَيُعَلِّمُهُمُ الإِسْلاَمَ، وَيُفَقِّهُهُمْ فِي الدِّينِ، فَكَثُرَ عَدَدُ الَّذِينَ اعْتَنَقُوا الإِسْلاَمَ سَوَاءٌ أَكَانُوا مِنَ الأَوْسِ أَمْ مِنَ الخَزْرَجِ، وَانْتَهَتِ الوَقَائِعُ بَيْنَ الحَيَّيْنِ المُتَنَافِسَيْنِ، وَأَصْبَحُوا إِخْوَةً فِي اللَّهِ، فَقَدْ أَسْلَمَتْ لَيْلَى بِنْتُ الخَطِيمِ أُخْتُ قَيْسٍ، وَكَانَتْ أَوَّلَ امْرَأَةٍ بَايَعَهَا النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهَا ابْنَتَاهَا وَابْنَتَانِ لابْنَتَيْهَا، وَوَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا أَسْلَمَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ شَقِيقَةُ عَبْدِ اللَّهِ، وَكَانَتْ قَدْ تَزَوَّجَتْ بَشِيرَ بنَ سَعْدٍ الَّذِي أَسْلَمَ، وَهِيَ أُمُّ النُّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَأَسْلَمَ عَبْدُاللَّهِ وَارْتَحَلَ إِلَى المَوْسِمِ لِيَلْتَقِي بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالأَنْصَارِ، وَقَدْ طَلَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ الأَنْصَارِ أَنْ يَخْتَارُوا مِنْ بَيْنِهِمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، فَكَانَ أَن

اخْتَـارُوا عَبْدَاللَّـهِ بنَ رَوَاحَـةَ بَيْنَ النُّقَبَـاءِ، وَكَانَ عَبْـدُ اللَّـــهِ وَسَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ مِنْ بَنِي الحَارِثِ.

بَدَأَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي مَكَّةَ يُهَاجِرُونَ إِلَى المَدِينَةِ بِنَاءً عَلَى تَوْجِيهَاتِ رَسُولِهِـمُ الـكَرِيمِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ والسَّلاَمِ، وَأَخِيراً هَاجَرَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَآخَـى بَيْنَ المُسْـلِمِينَ فَآخَـى بَيْنَ عَبْدِاللَّـهِ بنِ رَوَاحَةَ وَالمِقْدَادِ بنِ عَمْرٍو، وَكِلاَهُمَا بَطَلٌ مَعْرُوفٌ، وَفَارِسٌ مَشْهُورٌ. فَكَان عَبْدُ اللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ مِنَ المُقَرَّبِينَ إِلَى رَسُـولِ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ كَانَ مِنْ كَتَبَةِ الوَحْيِ، وَمِنْ شُعَرَاءِ الدَّعْوَةِ. وَعَاشَ عَبْدُاللَّهِ سَعِيداً لِقُرْبِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فِي بَدْرٍ:

وَخَرَجَ المُسْلِمُـونَ بِقِيَادَةِ رَسُـولِ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ المَدِينَةِ يُرِيدُونَ عِيرَ أَبِي سُفْيَانَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ فَقَدْ نَجَتِ العِيرُ، وَهَبَّ أَهْلُ مَكَّةَ يُرِيدُونَ إِنْقَاذَ قَافِلَتِهِمْ، والْتَقَى الجَمْعَانِ وَلاَ تَكَافُؤَ بَيْنَهُمَا فِي مِيزَانِ قُوَى الأَرْضِ، وَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، يُنَاشِدُ رَبَّهُ فِي العَرِيشِ الَّذِي بُنِيَ لَهُ، وَيَقُولُ فِيمَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ اليومَ لاَ تُعْبَدْ، وَأَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ: بَعْضَ مُنَاشَدَتِكَ رَبَّكَ، فَإِنَّ اللَّهَ مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَكَ. وَكَانَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ جَرِيئاً يَغْلِي إِيماناً وَثِقَةً بِاللَّهِ تَعَالَى، فَلَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ أَن يَقُولَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُشِيرُ عَلَيْكَ إِنَّ اللَّهَ أَجلُّ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُنْشَدَ وَعدَهُ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَا ابنَ رَوَاحَةَ، أَلاَ أَنْشُدُ اللَّهَ وَعْدَهُ؟ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ المِيعَادَ)[1].

وَبَدَأَ القِتَالُ بِالمُبَارَزَةِ، وَخَرَجَ مِنْ جِهَةِ المُشْرِكِينَ عُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ بَيْنَ أَخِيهِ شَيْبَةَ وَوَلَدِهِ الوَلِيدِ بن عُتْبَةَ، وَهَبَّ مِنْ جِهَةِ المُسْلِمِينَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، وَعَوْفُ وَمُعَوِّذُ ابْنَا الحَارِثِ وَأُمُّهُمَا عفْرَاءُ. فَقَالَ عُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ: مَنْ أَنْتُم؟ فَقَالُوا: رَهْطٌ مِنَ الأَنْصَارِ؛ قَالَ: مَا لَنَا بِكُمْ مِنْ حَاجَةٍ. ثُمَّ نَادَى مُنَادِيهِمْ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بنُ الحَارِثِ، وَقُمْ يَا حَمْزَةُ، وَقُمْ يَا عَلِيُّ، فَخَرَجَ الصَحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَعَرَّفُوا أَنْفُسَهُمْ، فَقَالَ عُتْبَةُ: نَعَمْ أَكْفَاءٌ كِرَامٌ. والتَحَمَ المُبَارِزُونَ،

---

(١) الإمتاع: ص ٨٤.

وَصُرِعُ المُشْرِكُونَ الثلاَثَةُ، وَتزَاحَفَ النَّاسُ وَدَنَا بَعْضُهُـمْ مِنْ بَعْضٍ، ومَا هِيَ أَلاَّ سُوَيْعَاتٍ حَتَّى انْجلَتِ المَعْرَكَةُ وَخَلَّفَ المُشْرِكُونَ وَرَاءَهُمْ سَبْعِينَ مِنَ القَتْلَى، وَوَقَعَ مِثْلُهُمْ أَسْرَى بِيَدِ المُسْلِمِينَ، وَهُزِمَ الجَمْـعُ وَوَلُّـوا الدُّبُـرَ، وَنَصَـرَ اللَّـهُ عِبَـادَهُ المُؤْمِنِينَ. وَسَاقَ المُسْلِمُونَ الأسْرَى أَمَامَهُمْ مُوَثَّقِينَ. وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، عَبْدَاللَّهِ بـنَ رَوَاحَـةَ وَزَيْدَ بنَ حَارِثَةَ يُبَشِّرَانِ أَهْلَ المَدِينَةِ بِنَصْرِ المُؤْمِنينَ وَمَا فَتَـحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَسَارَ عَبْدُاللَّهِ إِلَى أَهْلِ العَالِيَةِ فَنَادَى فِيهِـمْ: يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، أَبْشِرُوا بِسَلاَمَةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَقَتْلِ المُشْرِكِينَ وَأَسْرِهِمْ، ثُمَّ اتَّبَعَ دُورَ الأنْصَارِ فَبَشَّرَهُمْ وَهُمْ: بَنُو عَمْرِو بنِ عَوْفٍ، وَخَطْمَةَ، وَوائِلُ. وَقَـدِمَ زَيْدُ بـنُ حَارِثَـةَ عَلَـى نَاقَـةِ الرَّسُولِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، القَصْوَاءِ يُبَشِّرُ أَهْلَ السَّافِلَةِ.

وَلَمَّا جِيءَ بالأسْرَى المُشْرِكِينَ، سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْضَ الصَّحَابَةِ، وَمِنْهُمْ أَبُـو بَكْرٍ، وَعُمَـرَ، وَعَلِيَّ، وَعَبْدِاللَّهِ بنَ رَوَاحَةَ، وَعَبْدَاللَّهِ بنَ جَحْشٍ، فَقَـالَ: (مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلاَءِ الأسَارَى؟). فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَوْمُكَ وَأَهْلُكَ، اسْتَبْقِهِمْ واسْتَتِبْهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ. وَقَـالَ عُمَـرُ: يَا رَسُـولَ اللَّـهِ، كَذَّبُـوكَ وَأَخْرَجُـوكَ،

فَقَدِّمْهُمْ وَاضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ. وَكَانَ جَوَابُ عَلِيٍّ وَعَبْدِاللَّهِ بنِ جَحْشٍ قَرِيباً مِنْ إِجَابَةِ عُمَرَ. أَمَّا عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ فَقَدْ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْتَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الحَطَبِ فَأَضْرِمِ الوَادِي عَلَيْهِمْ نَاراً ثُمَّ أَلْقِهِمْ فِيهِ. وَقَدْ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِجَوَابِ أَبِي بَكْرٍ إِذْ قَبِلَ الفِدَاءَ مِنَ الأَسْرَى.

فِي أُحُدٍ:

واسْتَدَارَ العَامُ، وَكَانَتْ غَزْوَةُ أُحُدٍ، وَقَاتَلَ فِيهَا عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ قِتَالاً عَظِيماً، وَكَانَتْ ابتِلاءً لِلْمُسْلِمِينَ إِذْ فَقَدُوا فِي مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ شُهَدَاءَ كِرَاماً كَانَ مِنْهُمْ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الحَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَشُجَّ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُلِمَتْ شَفَتُهُ، وَأُصِيبَتْ رُبَاعِيَّتُهُ إِذْ وَقَعَ لِشِقِّهِ، وَدَخَلَتْ حَلْقَتَانِ مِنْ حَلَقِ المِغْفَرِ فَجَعَلَ الدَمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ، وَوَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ الحُفَرِ الَّتِي عَمِلَ أَبُو عَامِرٍ لِيَقَعَ فِيهَا المُسْلِمُونَ.

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَلْتَمِسُ حَمْزَةَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَوَجَدَهُ بِبَطْنِ الوَادِي قَدْ بُقِرَ بَطْنُهُ عَنْ كَبِدِهِ، وَمُثِّلَ بِهِ، فَجُدِعَ أَنْفُهُ وَأُذُنَاهُ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَقَالَ: (لَنْ

أُصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَداً! مَا وَقَفْتُ مَوْقِفاً قَطُّ أَغْيَظَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا!) ثُمَّ قَالَ: (جَاءَنِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي إِنَّ حَمْزَةَ بنَ عَبْدِالمُطَّلِبِ مَكْتُوبٌ فِي أَهْلِ السَمَوَاتِ السَّبْعِ: حَمْزَةُ بنُ عَبْدُ المُطَّلِبِ أَسَدُاللَّهِ وَأَسَدُ رَسُولِهِ).

وَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَائِدٌ إِلَى المَدِينَةِ بِدَارٍ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ وظَفَرٍ، فَسَمِعَ البُكَاءَ وَالنَّوائِحَ عَلَى قَتْلاَهُمْ، فَذَرَفَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: لَكِنَّ حَمْزَةَ لاَ بَوَاكِيَ لَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ وَأُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ إِلَى دَارِ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ أَمَرَا نِسَاءَهُمْ أَنْ يَتَحَزَّمْنَ، ثُمَّ يَذْهَبْنَ فَيَبْكِينَ عَلَى عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بُكَاءَهُنَّ عَلَى حَمْزَةَ خَرَجَ عَلَيْهِنَّ وَهُنَّ عَلَى بَابِ مَسْجِدِهِ يَبْكِينَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ارْجِعْنَ يَرْحَمْكُنَّ اللَّهُ، فَقَدْ آسَيْتُنَّ بِأَنْفُسِكُنَّ. رَحِمَ اللَّهُ الأَنْصَارَ فَإِنَّ المُوَاسَاةَ مِنْهُمْ مَا عَتِمَتْ لَقَدِيمَةٌ، مُرُوهُنَّ فَلْيَنْصَرِفْنَ. ثُمَّ نَهَى عَنِ النَّوْحِ، وَكَانَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ قَدْ جَاءَ بِنِسَاءِ بَنِي الحَارِثِ، وَلَكِنَّ النَّهْيَ كَانَ قَدْ وَقَعَ فَلَمْ يَشْتَرِكْنَ فِيهِ. وَرَثَى عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ الحَمْزَةَ بِقَصِيدَةٍ رَائِعَةٍ فَقَالَ:

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاهَا
وَمَا يُغْنِي البُكَاءُ أَوِ العَوِيلُ
عَلَى أَسَدِ الإِلَهِ غَدَاةَ قَالُوا
أَحَمْزَةُ ذَاكُمُ الرَّجُلُ القَتِيلُ
أُصِيبَ المُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعاً
هُنَاكَ، وَقَدْ أُصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ
أَبَا يَعْلَى لَكَ الأَرْكَانُ هُدَّتْ
وَأَنْتَ المَاجِدُ البَرُّ الوَصُولُ
عَلَيْكَ سَلاَمُ رَبِّكَ فِي جِنَانٍ
مُخَالِطُهَا نَعِيمٌ لاَ يَزُولُ
أَلاَ يَا هَاشِمَ الأَخْيَارِ صَبْرَاً
فَكُلُّ فِعَالِكُمْ حَسَنٌ جَمِيلُ
رَسُولُ اللَّهِ مُصْطَبِرٌ كَرِيمٌ
بِأَمْرِ اللَّهِ يَنْطِقُ إِذْ يَقُولُ
أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي لُؤَيّاً
فَبَعْدَ اليَوْمِ دَائِلَةٌ تَدُولُ
وَقَبْلَ اليَوْمِ مَا عَرَفُوا وَذَاقُوا
وَقَائِعَنَا بِهَا يُشْفَى الغَلِيلُ

نَسِيتُـمْ ضَرْبَنَـا بِقَلِيبِ بَدْرٍ
غَـدَاةَ أَتَـاكُمُ المَـوْتُ العَجِيلُ

غَـدَاةَ ثَوَى أَبُـو جَهْـلٍ صَرِيعاً
عَلَيْهِ الـطَّيْرُ حَائِمَـةً تَجُولُ

وَعُتْبَـةُ وَابْنُـهُ خَرَّا جَمِيعاً
وَشَيْبَـةُ عَضَّـهُ السَّيْفُ الصَّقِيلُ

وَمَتْرِكُنَـا أُمَيَّةَ مُجْلَعِباً[1]
وَفِـي حَيْزُومِـهِ[2] لَدْنٌ[3] نَبِيلُ

وَهَـامَ بَنُـو رَبِيعَـةَ سَائِلُوهَا
فَفِـي أَسْيَافِنَـا مِنْهَـا فُلُولُ

أَلاَ يَا هِنْـدُ لاَ تُبْـدِي شَمَاتاً
بِحَمْـزَةَ إِنَّ عِزَّكُمْ ذَلِيلُ

أَلاَ يَا هِنْـدُ فَابْـكِي لاَ تَمَلِّي
فَأَنْـتِ الوَالِـهُ[4] العَبْـرَى[5] الهَبُولُ[6]

---

(١) مجلعباً : ممتداً على الأرض .
(٢) حيزومه : أسفل صدره .
(٣) لدن : الرمح اللين .
(٤) الواله : الفاقد .
(٥) العبرى : الكثيرة الدمع .
(٦) الهبول : المرأة الثاكل .

بَعْدَ أُحُدٍ:

كَثُرَ الطَّمَعُ بِالمَدِينَةِ مِنَ الأعْرَابِ بَعْدَ أُحُدٍ، وَكَثُرَ الغَادِرُون بِالمُسْلِمِينَ إِثْرَ تِلْكَ المَوْقِعَةِ، وَكَثُرَ الطَامِعُونَ فِي أَمْوَالِ المُؤْمِنِينَ، فَقَدْ غَدَرَتْ قَبِيلَتَا عَضَلٍ والقَارَةِ بِسِتَّةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ عِنْدَ مَاءِ الرَّجِيعِ لِهُذَيلٍ، وَغَدَرَتْ بَنُو سُلَيْمٍ وَقَبَائِلُ نَجْدٍ بِأَرْبَعِينَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِنْدَ بِئْرِ مَعُونَةَ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ نَافِعُ بنُ بُدَيلِ بنِ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيِّ صديقِ عَبْدِاللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ فَرَثَاهُ في شِعْرٍ مِنْهُ:

رَحِمَ اللَّهُ نَافِعَ بنَ بُدَيْلٍ
رَحْمَةَ المُبْتَغِي ثَوابَ الجِهَادِ
صَابِرٌ، صَادِقٌ، وَفِيٌّ إِذَا مَا
أَكْثَرَ القَوْمُ قَالَ قَوْلَ السَّدَادِ

فِي إِمْرَةِ المَدِينَةِ:

لَمَّا انْسَحَبَ أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أُحُدٍ نَادَى: إِنَّ مَوْعِدَكُمْ بَدْرٌ لِلْعَامِ القَابِلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ: قُلْ: نَعَمْ هُوَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مَوْعِدٌ ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ـ فَلَمَّا جَاءَ المَوْعِدُ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ،

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي شَعْبَانَ، وَوَلى عَلَى المَدِينَةِ عَبْدَاللَّهِ بنَ رَوَاحَةَ. فَأَقَامَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ثَمَانِيَ لَيَالٍ يَنْتَظِرُ أَبَا سُفْيَانَ، وَخرَجَ أَبُو سُفْيَانَ فِي أَهْلِ مَكَّةَ حَتَّى نَزَل مَجَنَّةَ، مِنْ نَاحِيَةِ الظَّهْرَانِ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: قَدْ بَلَغَ عُسْفَانَ، ثُمَّ بَدَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّهُ لاَ يَصْلُحُكُمْ إِلاَّ عَامٌ خَصِيبٌ تَرْعَوْنَ فِيْهِ الشَّجَرَ، وَتَشْرَبُونَ فِيْهِ اللَّبَنَ، وَإِنَّ عَامَكُمْ هَذَا عَامُ جَدْبٍ، وَإِنِّي رَاجِعٌ فَارْجِعُوا، فَرَجَعَ النَّاسُ.

فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ:

وَحَزَّبَ اليَهُودُ الأَحْزَابَ لِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ ذَهَبُوا إِلَى مَكَّةَ وَحَرَّضُوا أَهْلَهَا عَلَى قِتَالِ المُسْلِمِينَ، واتَّفَقُوا مَعَهُمْ، وَتَوَاعَدُوا عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى قَبَائِلِ غَطَفَانَ فَدَعَوْهُمْ إِلَى ذَلِكَ أَيْضاً، وَأَعْلَمُوهُمْ أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ مَعَهُمْ وَكَذَلِكَ قُرَيْشٌ، وَأَعْطَوْهُمْ المَوْعِدَ الَّذِي اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مَعَ قُرَيْشٍ. وَجَاءَ وَقْتُ المَوْعِدِ المَعْلُومِ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ بِقِيَادَةِ أَبِي سُفْيَانَ، وَسَارَتْ غَطَفَانُ بِإِمْرَةِ عُيَيْنَةَ بنِ حِصْنٍ الفَزَارِيِّ. فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا أَجْمَعُوا لَهُ مِنَ الأَمْرِ، ضَرَبَ الخَنْدَقَ عَلَى

المَدِينَةِ، بِرَأْيِ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ، وَعَمِلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي حَفْرِ الخَنْدَقِ تَرْغِيباً لِلْمُسْلِمِينَ فِي الأَجْرِ، وَعَمِلَ مَعَهُ المُسْلِمُونَ فِيه، فَدَأَبَ فِيْهِ وَدَأَبُوا. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَئِذٍ مَعَ القَوْمِ حَتَّى وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ، وَيَرْتَجِزُ بِرَجَزِ عَبْدِاللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ:

وَاللَّهِ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا
إِنَّ الَّذِينَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا
إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وَكَانَ المُسْلِمُونَ يَأْكُلُونَ مِمَّا يُرْسِلُهُ أَهْلُوهُمْ إِلَيْهِمْ، وَحَدَّثَتْ ابْنَةٌ لِبَشِيرِ بنِ سَعْدٍ فَقَالَتْ: دَعَتْنِي أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ، فَأَعْطَتْنِي حَفْنَةً مِنْ تَمْرٍ فِي ثَوْبِي ثُمَّ قَالَتْ: أَيْ بُنَيَّةُ، اذْهَبِي إِلَى أَبِيكِ وَخَالِكِ عَبْدِاللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ بِغِدَائِهِمِا، قَالَتْ: فَأَخَذْتُهَا فَانْطَلَقْتُ بِهَا، فَمَرَرْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا أَلْتَمِسُ أَبِي وَخَالِي؛ فَقَالَ: تَعَالِي يَا

بُنَيَّةُ، مَا هذَا مَعَكِ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا تَمرٌ بَعَثَتْنِي بِهِ أُمِّي إِلَى أَبِي بَشِيرِ بن سَعْدٍ وَخَالِي عَبْدِاللَّهِ بن رَوَاحَةَ يَتَغَذَّيَانِهِ؛ قَالَ: هَاتِيهِ؛ قَالَتْ: فَصببْتُهُ فِي كَفَّيْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا مَلأَتْهُمَا، ثُمَّ أَمَرَ بِثَوْبٍ فَبُسِطَ لَهُ، ثُمَّ دَحَا بِالتَّمرِ عَلَيْهِ، فَتَبَدَّدَ فَوْقَ الثَّوْبِ، ثُمَّ قَالَ لإِنْسَانٍ عِنْدَهُ: اصْرَخْ فِي أَهْلِ الخَنْدَقِ: أَنْ هَلُمَّ إِلَى الغَدَاءِ، فَاجْتَمَعَ أَهْلُ الخَنْدَقِ عَلَيْهِ، فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَجَعَلَ يَزِيدُ، حَتَّى صَدَرَ أَهْلُ الخَنْدَقِ عَنْهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْقُطُ مِنْ أَطْرَافِ الثَّوْبِ.

إِمْرَةُ ابنِ رَوَاحَةَ:

بَعْدَ أَنْ قُتِلَ أَبُو رَافِعٍ سَلاَّمُ بنُ أَبِي الحُقَيْقِ أَمِيرُ اليَهُودِ عَلَى خَيْبَرَ أَمَّرَتِ اليَهُودُ مَكَانَهُ أُسَيْرَ بنَ رِزَامٍ إِذْ كَانَ رَجُلاً شُجَاعاً، فَقَامَ فِي اليَهُودِ فَقَالَ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا سَارَ مُحَمَّدٌ إِلَى أَحَدٍ مِنَ اليَهُودِ إِلاَّ بَعَثَ أَحَداً مِنْ أَصْحَابِهِ فَأَصَابَ مِنْهُمْ مَا أَرَادَ، وَلَكِنِّي أَصْنَعُ مَا لاَ يَصْنَعُ أَصْحَابِي. فَقَالُوا: وَمَا عَسَيْتَ أَنْ تَصْنَعَ مَا لَمْ يَصْنَعْ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: أَسِيرُ فِي غَطَفَانَ فَأَجْمَعُهُمْ. فَسَارَ فِي غَطَفَان فَجَمَعَهَا. ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ، نَسِيرُ إِلَى مُحَمَّدٍ فِي عُقْرِ دَارِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُغْزَ أَحَدٌ فِي

دَارِهِ إِلاَّ أَدْرَكَ مِنْهُ عَدُوُّهُ بَعْضَ مَا يُرِيدُ. قَالُوا: نِعْمَ مَا رَأَيْتَ. فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَارِجَةُ بِنُ حُسَيْل الأَشْجَعِيُّ، فَاسْتَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا وَرَاءَهُ فَقَالَ: تَرَكْتُ أُسَيْرَ بنَ رِزَامٍ يَسِيرُ إِلَيْكَ فِي كَتَائِبِ اليَهُودِ، فَنَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، النَّاسَ، فَانْتُدِبَ لَهُ ثَلاَثُونَ رَجُلاً، فَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَبْدَاللَّهِ بنَ رَوَاحَةَ، فَخَرَجُوا حَتَّى أَتَوْا خَيْبَرَ فَأَرْسَلُوا إِلَى أُسَيرَ: إِنَّا آمِنُونَ حَتَّى نَأْتِيكَ فَنُعْرِضَ عَلَيْكَ مَا جِئْنَا لَهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَلِي مِثْلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعَثَنَا إِلَيْكَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ فَيَسْتَعْمِلُكَ عَلَى خَيْبَرَ وَيُحْسِنُ إِلَيْكَ فَطَمِعَ فِي ذَلِكَ، وَشَاوَرَ اليَهُودَ فَخَالَفُوهُ فِي الخُرُوجِ وَقَالُوا: مَا كَانَ مُحَمَّدٌ يَسْتَعْمِلُ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ: بَلَى: قَدْ مَلَلْنَا الحَرْبَ. فَخَرَجَ مَعَهُ ثَلاَثُونَ رَجُلاً مِنَ اليَهُودِ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ رَدِيفٌ مِنَ المُسْلِمِينَ. فَسَارُوا حَتَّى كَانُوا بِقَرْقَرَةِ ثِبَارٍ (عَلَى بُعْدِ سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنْ خَيْبَرَ) نَدِمَ أُسَيْرٌ حَتَّى عَرَفُوا النَّدَامَةَ فِيهِ. قَالَ عَبْدُاللَّهِ بنُ أُنَيْسٍ أَحَدُ رِجَالِ المُسْلِمِينَ: وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى سَيْفِي فَفَطِنْتُ لَهُ فَدَفَعْتُ بَعِيرِي فَقُلْتُ: غَدَراً أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ! ثُمَّ

تَنَاوَمْتُ فَدَنَوْتُ مِنْهُ لأَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ، فَتَنَاوَلَ سَيْفِي، فَغَمَزْتُ بَعِيرِي وَقُلْتُ: هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَنْزِلُ فَيَسُوقُ بِنَا؟ فَلَمْ يَنْزِلْ أَحَدٌ، فَنَزَلْتُ عَنْ بَعِيرِي فَسُقْتُ بِالقَوْمِ حَتَّى انْفَرَدَ أُسَيْرٌ، فَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ فَقَطَعْتُ مُؤَخِّرَةَ الرِّجْلِ وَأَنْدَرْتُ (أَسْقَطْتُ) عَامَّةَ فَخِذِهِ وَسَاقِهِ، وَسَقَطَ عَنْ بَعِيرِهِ، وَفِي يَدِهِ مِخْرَشٌ (عَصَا مَعْقُوفَةٌ) مِنْ شَوْحَطٍ (نَوْعٌ مِنْ شَجَرِ الجِبَالِ) فَضَرَبَنِي فَشَجَّنِي مَأْمُومَةً[1]، وَمِلْنَا عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَتَلْنَاهُمْ كُلَّهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَعْجَزَنَا شَدّاً، وَلَمْ يُصَبْ مِنَ المُسْلِمِينَ أَحَدٌ، ثُمَّ أَقْبَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ إِذْ قَالَ لَهُمْ: تَمَشَّوْا بِنَا إِلَى الثَّنِيَّةِ نَتَحَسَّبْ مِنْ أَصْحَابِنَا خَبَراً. فَخَرَجُوا مَعَهُ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الثَّنِيَّةِ فَإِذَا هُمْ بِسَرَعَانِ أَصْحَابِنَا. قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَصْحَابِهِ. قَالَ: وَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِ فَحَدَّثْنَاهُ الحَدِيثَ، فَقَالَ: نَجَّاكُمُ اللَّهُ مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ.

قَالَ عَبْدُاللَّهِ بنُ أُنَيْسٍ: فَدَنَوْتُ إِلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَفَثَ فِي شَجَّتِي فَلَمْ تَقِحْ بَعْدَ ذَلِكَ اليَوْمِ وَلَمْ تُؤْذِنِي،

---

(١) شجة مأمومة: وصلت إلى أم الرأس.

وَقَدْ كَانَ العَظْمُ فُلَّ ؛ وَمَسَحَ عَلَى وَجْهِي وَدَعَا لِي ، وَقَطَعَ قِطْعَةً مِنْ عَصَاهُ فَقَالَ : أَمْسِكْ هَذَا مَعَكَ عَلاَمَةً بَيْنِي وَبَيْنَكَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْرِفُكَ بِها ، فَإِنَّكَ تَأْتي يَوْمَ القِيَامَةَ مُحْتَضِراً .

وَقَدْ اخْتِيرَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ لِهَذِهِ المُهِمَّةِ لِشَجَاعَتِهِ وَدِقَّتِهِ وَخِفَّتِهِ وَلِمَعْرِفَتِهِ السَّابِقَةِ بِخَيْبَرَ، إِذْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَدْ بَعَثَهُ فِي مُهِمَّةٍ اسْتِطْلاعِيَّةٍ فِي رَمَضَانَ تَهْيِئَةً بِهَذِهِ المُهِمَّةِ وَكَانَ مَعَهُ ثَلاَثَةُ رِجَالٍ يَنْظُرُونَ إِلَى خَيْبَرَ، وَحَالِ أَهْلِهَا وَمَا يُرِيدُونَ وَمَا يَتَكَلَّمُونَ بِهِ، فَأَقْبَلَ عَبْدُاللَّهِ حتَّى أَتَى نَاحِيَةَ خَيْبَرَ فَجَعَلَ يَدْخُلُ الحَوَائِطَ، وَفَرَّقَ أَصْحَابَهُ فِي النَّطَاةِ وَالشَّقِّ وَالكَتِيبَةِ (آطام خيبر)، وَوَعَوْا مَا سَمِعُوا مِنْ أُسَيْرٍ وَغَيْرِهِ، ثُمَّ خَرَجُوا بَعْدَ إِقَامَةِ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ، فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِلَيَالٍ بَقِينَ مِنْ رَمَضَانَ، فَخَبَّرَ النَّبِيَّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِكُلِّ مَا رَأَى وَسَمِعَ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أُسَيْرٍ فِي شَوَّالَ مِنَ السَّنَةِ نَفْسِهَا وَهِيَ السَّادِسَةُ لِلْهِجْرَةِ[1] .

فِي عُمْرَةِ القَضَاءِ :

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يُرِيدُ تَأْدِيَةَ

---

(١) أنظر مغازي الواقدي ٢/ ٥٦٦ ـ ٥٦٨.

العُمْرَةِ، وَخَرَجَ مَعَـهُ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمَائَـةٍ مِنَ المُسْـلِمِينَ، وَكَانَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ فِيمَنْ خَرَجَ، إِلاَّ أَنَّ قُرَيْشاً قَدْ حَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ البَيْتِ، وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ، إِلَى قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِقَصْدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي العُمْرَةِ، وَأَنَّهُ لاَ يُرِيدُ حَرْباً، وَلَكِنَّ قُرَيْـشاً تَعَنَّتَـتْ فِي مَوْقِفِهَا وَأَصَرَّتْ عَلَى رَأْيِهَا، وَتَأَخَّرَ عُثْمَانُ، وَأُشِيعَ أَنَّهُ قُتِلَ فَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ وَشَهِدَهَا ابـنُ رَوَاحَـةَ، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَـانُ، وَتَـمَّ صُلْـحُ الحُـدَيْبِيَّةِ وَرَجَـعَ المُسْلِمُونَ نَتِيجَتَهُ عَلَى أَنْ يَأْتُوا فِي العَامِ المُقْبِلِ.

وَاسْتَدَارَ العَامُ، وَدَخَلَ شَهْرُ ذِي القِعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ السَّابِعَةِ، وَأَمَـرَ رَسُـولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، أَصْحَابَـهُ أَنْ يَعْتَمِـرُوا - قَضَـاءَ عُمْرَتِهِـمْ - وَأَلاَّ يَتَخَلَّفَ أَحَـدٌ مِمَّـنْ شَهِـدَ الحُدَيْبِيَّةِ، فَلَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ شَهِدَهَا إِلاَّ رِجَالاً اسْتُشْهِدُوا بِخَيْبَرَ وَرِجَالٌ مَاتُوا، وَخَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَوْمٌ مِنَ المُسْلِمِينَ سِوَى أَهْلِ الحُدَيْبِيَّةِ مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدْ صُلْـحَ الحُـدَيْبِيَّةِ، فَكَانَ المُسْلِمُـونَ فِي عُمْـرَةِ القَضَـاءِ أَلْفَيْنِ. وَتَتَقَدَّمُهُمُ الخَيْلُ بِإِمْرَةِ مُحَمَّدِ بنِ مَسْلَمَةَ، وَكَانَ عَدَدُهُمْ مَائَةَ فَارِسٍ. وَكَانَ بَشِيرُ بنُ سَعْدٍ عَلَى السِّلاَحِ.

وَدخَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكَّةَ، وَأَصْحَابُهُ حَوْلَهُ مُتَوَشِحُو السُّيُوفِ فِي القُربِ، وَهُمْ يُلَبُّونَ، وَعَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ آخِذٌ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ القَصْوَاءِ، وَهُوَ يَرْتَجِزُ:

خلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهْ
قَدْ نَزَّلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهْ
بِأَنَّ خَيْرَ القَتْلِ فِي سَبِيلِهْ
خَلُّوا فَكُلُّ الخَيْرِ فِي رَسُولِهْ
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهْ
أَعْرِفُ حَقَّ اللَّهِ فِي قُبُولِهْ
نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهْ
كَمَا قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهْ
ضَرْبَاً يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِه
وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهْ

فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: يَا ابنَ رَوَاحَةَ، أَفِي حَرَمِ اللَّهِ وَبَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقُولُ هَذَا الشِّعْرَ؟، فَقَالَ الرَّسُولُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَلَامُهُ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ).

وَلَمْ يَزَلِ الرَّسُولُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُلَبِّي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ بِمِحْجَنِهِ.

فِي خَيْبَرَ:

رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الحُدَيْبِيَّةِ فِي شِهْرِ ذِي الحِجَّةِ مِنْ أَوَاخِرِ العَامِ السَّادِسِ لِلْهِجْرَةِ، فَأَقَامَ فِي المَدِينَةِ بَقِيَّةَ شِهْرِذِي الحِجَّةِ وَالمُحرَّمِ وَخَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ فِي شِهْرِصَفَرَ مِنَ العَامِ السَّابِعِ لِلْهِجْرَةِ، فَفَتَحَ اللَّهُ خَيْبَرَ لَهُ. وَشَهِدَ ابنُ رَاوَحَةَ فَتْحَ خَيْبَرَ.

وَسَاقَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اليَهُودَ فِي خَيْبَرَ عَلَى الشَّطْرِ مِنَ الثَّمَرِ وَالزَّرْعِ، وَكَانَ يُزْرَعُ تَحْتَ النَّخْلِ، وَقَدْ بَعَثَ عَبْدَاللَّهِ بن رَوَاحَةَ يُقَدِّرُ الزَّرْعَ وَيَخْرُصُ عَلَيْهِمْ، فَأَرَادُوا أَنْ يَرْشُوهُ لِيَرْفِقَ بِهِمْ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ الخَلْقِ عَلَيَّ، وَلأَنْتُمْ أَبْغَضُ إِليَّ مِنْ أَعْدَادِكُمْ مِنَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ، وَمَا يَحْمِلُنِي حُبِّي إِيَّاهُ، وَبُغْضِي لَكُمْ عَلَى أَلاَّ أَعْدِلُ فِيكُمْ، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ!! وَقَالَ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ خَرَصَ «إِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ وَتَضْمَنُونَ نِصْفَ مَا خَرَصْتُ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَلَنَا وَنَضْمَنُ لَكُمْ مَا خَرَصْتُ». وَخَرَصَ

عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ أَلْفَ وَسَقٍ . وَقَدْ أَرْسَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِعِلْمِهِ بِأَرْضِهِمْ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ بِالتَّمْرِ وَالزَّرْعِ، وَأَنَّهُ عَلَى غَايَةِ العَدْلِ وَالإِنْصَافِ، وَقَامَ بِهَذِهِ العَمَلِيَّةِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ حَصَلَ عَلَى الشَّهَادَةِ.

الفَوْزُ بِالشَّهَادَةِ:

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الكُتُبَ إِلَى المُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَكَانَ مِمَّنْ بَعَثَ الحَارِثَ بنَ عُمَيْرٍ الأَزْدِيَّ إِلَى مَلِكِ بُصْرَى، فَلَمَّا نَزَلَ الحَارِثُ بَلْدَةَ مُؤْتَةَ عَرَضَ لَهُ شُرَحْبِيلُ بنُ عَمْرٍو الغَسَّانِيُّ فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الشَّامَ. قَالَ: لَعَلَّكَ مِنْ رُسُلِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَنَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ. فَأَمَرَ بِهِ فَأُوثِقَ رِبَاطاً، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ صَبْراً، وَلَمْ يُقْتَلْ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَسُولٌ غَيْرُهُ.

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ رَجَعَ مِنْ عُمْرَةِ القَضَاءِ فِي شَهْرِ ذِي الحِجَّةِ مِنَ العَامِ السَّابِعِ، فَأَقَامَ فِي المَدِينَةِ بَقِيَّةَ شَهْرِ ذِي الحِجَّةِ مِنَ العَامِ السَّابِعِ وَالمُحَرَّمِ وَصَفَرَ وَرَبِيعَ الأَوَّلِ وَرَبِيعَ الثَّانِي، فَبَلَغَهُ خَبَرُ مَقْتَلِ رَسُولِهِ الحَارِثِ بنِ عُمَيْرٍ الأَزْدِيِّ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، فَنَدَبَ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمُ الخَبَرَ،

فَأَسْرَعُوا وَتَجَمَّعُوا بِالجُرْفِ، وَوَصَلَ عَدَدُهُمْ إِلَى ثَلاثَةِ آلافٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ أَمِيرُ النَّاسِ، فَإِنْ قُتِلَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ فَجَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنْ أُصِيبَ فَعَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، فَإِنْ أُصِيبَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ فَلْيَرْتَضِ المُسْلِمُونَ بَيْنَهُمْ رَجُلاً فَلْيَجْعَلُوهُ عَلَيْهِمْ.

فَلَمَّا حَضَرَ خُرُوجُهُمْ وَدَّعَ النَّاسُ أُمَرَاءَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا وُدِّعَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ بَكَى؛ فَقَالُوا مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ؟ فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا بِي حُبُّ الدُّنْيَا وَلاَ صَبَابَةٌ بِكُمْ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقْرَأُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَذْكُرُ فِيهَا النَّارَ ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقضِيّاً﴾ فَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ لِي بِالصَّدْرِ بَعْدَ الوُرُودِ؛ فَقَالَ المُسْلِمُونَ: صَحِبَكُمُ اللَّهُ وَدَفَعَ عَنْكُمْ، وَرَدَّكُمْ إِلَيْنَا صَالِحِينَ، فَقَالَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ:

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً
وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً
بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الأَحْشَاءَ وَالكِبَدَا

حَتَّـى يُقَـالَ إِذَا مَرُّوا عَلَـى جَدَثِي
أَرْشَـدَهُ اللَّـهُ مِنْ غَازٍ وَقَـدْ رَشَدَا

وَأَتَى عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَـةَ رَسُولَ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَدَّعَهُ وَقَالَ:

فَثَبَّـتَ اللَّـهُ مَا آتَـاكَ مِنْ حَسَنٍ
تَثْبِيتَ مُوسَـى وَنَصْـرَاً كَالَّـذِيْ نُصِرُوا
إِنِّـي تَفَرَّسْـتُ فِيكَ الخَيْرَ نَافِلَةً
فِرَاسَـةً خَالَفَـتْ فِيكَ الَّـذِيْ نَظَرُوا
أَنْـتَ الرَّسُـولُ فَمَـنْ يُحْـرَمْ نَوَافِلَهُ
وَالوَجْـهُ مِنْـهُ قَدْ أَزْرَى بِهِ القَدَرُ

ثُمَّ خَرَجَ الجَيْشُ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا وَدَّعَهُمْ وَانْصَـرَفَ عَنْهُـمْ، قَالَ عَبْدُاللَّهِ بـنُ رَوَاحَةَ:

خَلَفَ السَّـلَامُ عَلَـى امْـرِىءٍ وَدَّعْتُهُ
فِـي النَّخْـلِ خَيْرَ مُشَيِّعٍ وَخَلِيلِ

وَسَارَ الجَيْشُ حَتَّى نَزَلَ مَعَانَ، مِنْ أَرْضِ الشَّـامِ، فَبَلَـغَ النَّاسَ أَنَّ هِرَقْلَ قَدْ نَزَلَ مُؤَابَ مِنْ أَرْضِ البَلْقَاءِ (مَنْطِقَةِ عَمَّانَ فِي الأَرْدُنِ) فِي مائَةِ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ مِنْ قَبَائِلِ

العَرَبِ المُتَنَصِّرَةِ مِنْ لَخْمٍ ، وَجُذَامٍ ، والقَيْنِ ، وَبَهْرَاءَ ، وَبِلِيٍّ مَائَةَ أَلْفٍ أَيْضاً . فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ المُسْلِمِينَ أَقَامُوا عَلَى مَعَانٍ لَيْلَتَيْنِ يُفَكِّرُونَ فِي أَمْرِهِمْ ، وَقَالُوا : نَكْتُبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَنُخْبِرُهُ بِعَدَدِ عَدُوِّنَا ، فَإِمَّا أَنْ يُمِدَّنَا بِالرِّجَالِ ، وَإِمَّا أَنْ يَأْمُرُنَا بِأَمْرِهِ ، فَنَمْضِي لَهُ . فَشَجَّعَ النَّاسَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ ، وَقَالَ : يَا قَوْمُ ، وَاللَّهِ إِنَّ الَّتِي تَكْرَهُونَ لَلَّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ الشَّهَادَةَ ، وَمَا نُقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدَدٍ وَلاَ قُوَّةٍ وَلاَ كَثْرَةٍ ، مَا نُقَابِلُهُمْ إِلاَّ بِهَذَا الدِّينِ الَّذِيْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ ، فَانْطَلِقُوا فَإِنَّما هِيَ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ : إِمَّا ظُهُورٌ وَإِمَّا شَهَادَةٌ . فَقَالَ النَّاسُ : قَدْ وَاللَّهِ صَدَقَ ابنُ رَوَاحَةَ فَمَضَى النَّاسُ ؛ وَقَالَ عَبْدُاللَّهِ يَوْمَذَاكَ :

جَلَبْنَا الخَيْلَ مِنْ أَجَإٍ وَفَرْعٍ
تُغَرُّ[1] مِنَ الحَشِيشِ لَهَا العُكُومُ[2]

حَذَوْنَاهَا[3] مِنَ الصَّوَّانِ سِبْتاً[4]
أَزَلَّ[5] كَأَنَّ صَفْحَتَهُ أَدِيمُ[6]

(١) تغر: تطعم .
(٢) العُكوم : الجنب .
(٣) حذوناها : جعلنا لها حذاء .
(٤) سبتاً : النعال .
(٥) أزل : أملس .
(٦) الأديم : الجلد .

أَقَامَــتْ لَيْلَتَيْنِ عَلَــى مَعَانٍ
فَأَعْقِــبَ بَعْــدَ فَتْرَتِهَــا[1] جُمُومُ[2]

فَرُحْنَــا وَالجِيَادُ مُسَوَّمَاتٌ
تَنَفَّسَ فِي مَنَاخِرِهَــا السَّمُومُ

فَــلاَ وَأَبِــي مُؤَابُ لَنَأْتِيَنَّهَا
وَإِنْ كَانَــتْ بِهَــا عَرَبٌ وَرُومُ

فَعَبَّأْنَــا أَعِنَّتَهَــا فَجَاءَتْ
عَــوَابِسَ وَالغُبَــارُ لَهَــا بَرِيمُ[3]

بِــذِي لَجَبٍ[4] كَأَنَّ البَيْضَ[5] فِيهِ
إِذَا بَرَزَتْ قَوَانِسُهَــا[6] النُّجُومُ

فَــرَاضِيَةُ المَعِيشَــةِ طَلَّقَتْهَا
أَسَنَّتُهَــا فَتَنْــكِحُ أَوْ تَئِيمُ

كَانَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ قَدْ رَبَّى زَيْدَ بنَ أَرْقَمٍ ، فَخَرَجَ بِهِ

---

(١) فترتها : ضعفها .
(٢) جموم : اجتماع .
(٣) بريم : لونان مختلطان . ويقصد اختلاط دموع الخيل بالغبار .
(٤) ذي لجب : الجيش .
(٥) البيض : ما يوضع على الرأس من حديد .
(٦) القوانس : أعلى البيض .

فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ، فَقَالَ زَيْدُ سَمِعْتُ عَبْدَاللَّهِ بنَ رَوَاحَةَ يُنْشِدُ فِي لَيْلَةٍ.

إِذَا أَدَّيْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي
مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الحِساءِ
فَشَأْنُكِ أَنْعُمُ وَخَلاَكِ ذمٌّ
وَلاَ أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي
وَجَاءَ المُسْلِمُونَ وَغَادَرُونِي
بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهى الثَّوَاءِ
هُنَالِكَ لاَ أُبَالِي طَلْعَ بَعْلٍ
وَلاَ نَخْلٍ أَسَافِلُهَا رَوَاءِ

فَلَمَّا سَمِعْتُهُنَّ بَكِيتُ، قَالَ: فَخَفَقَنِي بِالدِّرَّةِ، وَقَالَ: مَا عَلَيْكَ يَالُكَعُ أَنْ يَرْزُقَنِي اللَّهُ شَهَادَةً وَتَرْجِعُ بَيْنَ شُعْبَتي الرَّحْلِ.

وَالْتَقى الجَمْعَانِ وَاقْتَتَلُوا، وَقَاتَلَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ بِرَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى شَاطَ فِي رِمَاحِ القَوْمِ.

فَأَخَذَ الرَّايَة جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَاتَلَ حَتَّى نَالَ الشَّهَادَةَ. فلما صُرِعَ تسَلَّمَ الرَّايَةَ عَبْدَاللَّهِ بنَ رَوَاحَةَ، وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ

فَجَعَلَ يستَنْزِلُ نَفْسَه وَيَبْدُو أَنَّ بَعْضَ التَّرَدُّدِ قَدْ ظَهَرَ عَلَيِّهِ فقَالَ :

أَقْسَمْــتُ يَا نَفْسُ لَتنْزِلِنَّهْ
لَتَنْــزِلِنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ
إِنْ أَجْلَــبَ النَّــاسُ وَشَــدُّوا الرَّنَّهْ
مَالِــي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّهْ
قَــدْ طَالَ مَا كُنْــتِ مُطْمَئِنَّهْ
هَــلْ أَنْــتِ إلاَّ نُطْفَــةٌ فِي شَنَّهْ

وَقَالَ أَيْضاً :

يَا نَفْسُ إلاَّ تُقْتَلِــي تَمُوتِي
هَــذَا حِمَــامُ المَــوْتِ قَدْ صُلِيتِ
وَمَــا تَمَنَّيْتِ فَقَــدْ أُعْطِيتِ
إِنْ تَفْعَلِــي فِعْلَهُمَــا هُدِيتِ

ثُمَّ نَزَلَ . فَلَمَّا نَزَلَ أَتَاهُ ابنُ عَمٍّ لَهُ بِعَرْقٍ مِنْ لَحْمٍ فَقَالَ : شُدَّ بِهَذَا صُلْبَكَ ، فَإِنَّــكَ قَدْ لَقِيتَ فِي أَيَّامِـكَ هَذِهِ مَا لَقِيتَ ، فَأَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ ثُمَّ انْتَهَسَ مِنْهُ نَهْسَةً ثُمَّ سَمِعَ الحَطْمَةَ فِي نَاحِيَةِ النَّاسِ ، فَقَالَ : وَأَنْتَ فِي الدُّنْيَا ! ثُمَّ أَلْقَاهُ مِنْ يَدِهِ ، ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ فَتَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ .

ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ ثَابِتُ بنُ الأَقْرَمِ ، وَقَالَ : يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ اصْطَلِحُوا عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ، قَالُوا : أَنْتَ. قَالَ : مَا أَنَا بِفَاعِلٍ . ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى خَالِدِ بن الوَلِيدِ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ وَدَافَعَ القَوْمَ، ثُمَّ تَمَكَّنَ مِن الانْسِحَابِ بِالنَّاسِ بَعْدَ أَنْ أَوْهَمَ الرُّومَ بِمَجِيءِ المَدَدِ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ أَثْنَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى الأُمَرَاءِ الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا، وَعَلَى بَقِيَّةِ الشُّهَدَاءِ، وَعُمُومِ الجَيْشِ . وَرَثَاهُمُ الشُّعَرَاءُ.

كَانَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، شُجَاعاً، يَطْلُبُ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَكَانَ أَوَّلَ خَارِجٍ إِلَى القِتَالِ وَآخِرَ قَافِلٍ مِنْهُ.

وَكَانَ عَبْدُاللَّهِ عَابِداً، ذَكَرَتْ زَوْجُهُ لَمَّا تَزَوَّجَهَا مَنْ بَعْدَهُ حِينَ سَأَلَهَا عَنْ صَنِيعِهِ أَنَّهُ : «كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِهِ صَلَّى رِكْعَتَيْنِ ، وَإِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ صَلَّى رِكْعَتَيْنِ ، لاَ يَدَعُ ذَلِكَ» . وَفِي حَدِيثِ أَبِي الدَرْدَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ : «لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فِي اليَوْمِ الحَارِ الشَّدِيدِ الحَرِّ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَضَعُ

مِنْ شِدَّةِ الحَرِّيَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَمَا فِي القَوْمِ صَائِمٌ إِلاَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ»[١].

وَكَانَ يُحِبُّ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَكُلَّمَا الْتَقَى بِأَحَدِ إِخْوَانِهِ قَالَ لَهُ «إِجْلِسْ نُؤْمِنُ سَاعَةً». وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَحِمَ اللَّهُ ابنَ رَوَاحَةَ إِنَّهُ يُحِبُّ المَجَالِسَ الَّتِي تَتَبَاهَى بِهَا المَلاَئِكَةُ»[٢]. وَقَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي عَبْدَاللَّهِ بنَ رَوَاحَةَ كَانَ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ أَنَاخَ»[٣].

وَكَانَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ طَوَاعِيَةً لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَخْطُبُ، فَدَخَلَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، فَسَمِعَهُ يَقُولُ: «إِجْلِسُوا» فَجَلَسَ عَبْدُاللَّهِ مَكَانَهُ خَارِجاً مِنَ المَسْجِدِ دُونَ تَأَخُّرٍ، فَلَمَّا فَرَغَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ بَلَغَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: «زَادَكَ اللَّهُ حِرْصاً عَلَى طَوَاعِيَّةِ اللَّهِ وَطَوَاعِيَّةِ رَسُولِهِ»[٤].

وَكَانَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، شَدِيداً عَلَى

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الصوم.
(٢) أخرجه أحمد.
(٣) رواه الطبراني بإسناد حسن.
(٤) أخرجه البيهقي.

المُنَافِقِينَ، وَأَشْبَاهِهِـمْ، فَعَـنْ أُسَامَةَ بـنِ زَيْدٍ، رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ رَكِبَ حِمَـاراً عَلَيْهِ إِكَافٌ، تَحْتَـهُ قَطِيفَـةٌ فَدَكِيَّةٌ، وَأَرْدَفَ أُسَامَـةَ وَرَاءَهُ يَعُـودُ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَسَارَ حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُاللَّهِ بنُ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُاللَّهِ، وَفِي المَجْلِسِ أَخْلاَطٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَاليَهُودِ، وَفِي المَجْلِسِ عَبْدُاللَّهِ بـنُ رَوَاحَـةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا غَشِيَتْ المَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ، خَمَّـرَ عَبْدُاللَّهِ بنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ، وَقَالَ: لاَ تُغَبِّرُوا عَلَيْنَـا! فَسَلَّـمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَقَفَ وَنَزِلَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُاللَّهِ بنُ أُبَيٍّ: يَا أَيُّهَا المَرْءُ إِنَّهُ لاَ أَحْسَنُ مِمَّا تَقُولُ، إِنْ كَانَ حَقَّاً فَلاَ تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَـا، وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ.

فَقَالَ ابنُ رَوَاحَةَ: بَلى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَاغْشِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، فَاسْتَبَّ المُسْلِمُـونَ وَالمُشْرِكُونَ وَاليَهُـودُ، حَتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُـوا، فَرَكِبَ النَّبِـيُّ صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، فَقَـالَ لَهُ: «أَي

سَعْد، أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟» ـ يُرِيدُ عَبَدَاللَّهِ بنَ أُبِيٍّ ـ قَالَ سَعْدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ، فَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ مَا أَعْطَاكَ، وَلَقَدْ اجْتَمَعَ أَهْلُ هَذِهِ البُحَيْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِبُّوهُ، فَلَمَّا رُدَّ ذَلِكَ بِالحَقِّ الَّذِيْ أَعْطَاكَ اللَّهُ شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ الَّذِيْ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ.

وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَاعِيَةً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، يَنْشُطُ فِي دَعْوَةِ النَّاسِ لِلدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ، أَخْرَجَ الحَاكِمُ فِي المُسْتَدْرَكِ عَنِ الوَاقِدِيِّ قَالَ:

كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، رَضِيَ اللَّهَ عَنْهُ، فِيمَا ذُكِرَ ـ آخِرَ أَهْلِ دَارِهِ إِسْلَامَاً، لَمْ يَزَلْ مُتَعَلِّقَاً بِصَنَمٍ لَهُ، وَقَدْ وَضَعَ عَلَيْهِ مِنْدِيلاً، وَكَانَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلَامِ فَيَأْبَى، فَيَجِيئُهُ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا رَآهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ خَالَفَهُ فَدَخَلَ بَيْتَهُ وَأَعْجَلَ امْرَأَتَهُ، وَإِنَّهَا لَتُمَشِّطُ رَأْسَهَا، فَقَالَ أَيْنَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَقَالَتْ: خَرَجَ أَخُوكَ آنِفَاً. فَدَخَلَ بَيْتَهُ الَّذِيْ كَانَ فِيْهِ الصَّنَمُ وَمَعَهُ القَدُّومُ، فَأَنْزَلَهُ وَجَعَلَ يُقَدِّدُهُ فِلْذَاً فِلْذَاً وَهُوَ يَرْتَجِزُ سِرّاً مِنْ أَسْمَاءِ الشَّيَاطِينِ كُلِّهَا: «أَلاَ كُلُّ مَا يُدعَى مَعَ اللَّهِ بَاطِلُ» ثُمَّ خَرَجَ.

وَسَمِعَتِ المَرْأَةُ صَوْتَ القَدُّومِ وَهُوَ يَضْرِبُ ذَلِكَ الصَّنَمَ،

فَقَالَتْ: أَهَلَكْتَنِي يا ابْنَ رَوَاحَةَ! فَخَرَجَ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ حَتَّى أَقْبَلَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ المَرْأَةَ قَاعِدَةً تَبْكِي شَفَقَاً مِنْهُ. فَقَالَ: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ دَخَلَ عَلَيَّ فَصَنَعَ مَا تَرَى. فَغَضِبَ غَضَبَاً شَدِيداً، ثُمَّ فَكَّرَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لَوْ كَانَ عِنْدَ هَذَا خَيْرٌ لَدَفَعَ عَنْ نَفْسِهِ. فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَمَعَهُ ابنُ رَوَاحَةَ فَأَسْلَمَ.

لَقَدْ رَوَى عَبْدُاللَّهِ بَنُ رَوَاحَةَ الحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَنْ بِلَالِ بنِ رَبَاحٍ مُؤَذِّنِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَرَوَى عَنِ ابْنِ رَوَاحَةَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ: عَبْدُاللَّهِ بنُ عَبَّاسٍ، وَأُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ، وَأَنَسُ بنُ مَالِكٍ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَالنُّعْمَانُ بنُ بَشِيرٍ.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ هَذَا الصَّحَابِي الجَلِيلِ وَإِخْوَانِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ يُعَدُّونَ رِجَالَ الإِسْلَامِ الأَوَائِلِ وَبُنَاةَ دَوْلَةِ الإِسْلَامِ.

بُنَاة دَوْلَةِ الإِسْلَام

- ٢٥ -

أَبُو حُذَيفَة بن عُتْبَة

رَضِيَ اللهُ عَنه



بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ العَـالَمِينَ وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَـى سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَخَاتَـمِ النَّبِيينَ مُحَمَّدِ بـنِ عَبْدِ اللَّـهِ وَعَلى آلِـهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ أما بعـد:

بُعِثَ رَسُولُ اللَّه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَدَأَ يَـدْعُو قَوْمَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَعَدَمِ الشِّرْكِ بِهِ، وَخَلْـعِ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَوْثَانٍ وَغَيْرِهَا لاَ تَنْفَعُ وَلاَ تَضُرُّ. وَأَدْرَكَتْ قُرَيْشٌ حَقِيقَةَ الدَّعْوَةِ، وَعَرَفَتْ مَعْنَاهَا، وَأَيْقَنَـتْ بِصِـدْقِ صَاحِبِهَـا، وَلَكِنْ أَعْمَـتِ المَصْلَحَـةُ بَصِيرَةَ كُبَرَائِهَـا الَّـذِينَ خَافُـوا عَلَـى سِيَادَتِهِمْ وَضَيَاعِ مَصَالِحِهِمْ، إِذْ أَحَسُّوا بِأَنَّ تَسَلُّطَهُـمْ عَلَـى العَبِيدِ سَيَزُولُ، وَاسْتِمْتَاعَهُـمْ بِالجَـوَارِي سَيَنْتَهِـي، وَأَكْلَهُـمُ الأَمْوَالَ بِالْبَاطِـلِ سَيُقْضَـى عَلَيْهِ، وَتَهَتُّكَهُـمْ لاَ رَجْعَـةَ إِلَيْهِ، وَطُغْيَانَ القَوِيِّ عَلَى الضَّعِيفِ لَمْ يَعُدْ لَهُ بَقَاءُ إِنْ تَبِعُوا مُحَمَّداً، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، لِذَا فَقَـدْ وَقَفُـوا فِي وَجْـهِ الدَّعْـوَةِ، وَحَارَبُوهَا بِكُلِّ وَسَائِلِهِمُ المَادِّيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالإِعْلاَمِيَّةِ إِذْ عَدَوْا

عَلَى الَّـذِينَ آمَنُـوا وَأَذَاقُوهُـمْ مُرَّ العَـذَابِ، وَسَجَنُـوا وَقَيَّدُوا أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ تَبِعُوا مُحَمَّداً، فَلَمْ يَسْلَمُوا مِنْ عَذَابِهِمْ أَيْضاً، وَأَشَاعُـوا أَنَّ مُحَمَّـداً، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، مَجْنُـونٌ، وَسَاحِرٌ، وَشَاعِرٌ، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَبَائِلِ العَرَبِ الَّتِي تَقْدُمُ مَكَّةَ فِي المَوْسِمِ، حَيْثُ كَانُوا يَتْبَعُونَهُ، وَيَقُولُونَ لِلْقَادِمِينَ لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا فَإِنَّهُ مُصَابٌ، وَنَحْنُ أَدْرى بِهِ.

أَمَّا الأَبْنَاءُ فَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ أَطْمَاعُ آبَائِهِمْ، وَلَمْ يُفْسِدِ التَهَتُّكُ نَفْسِيَتَهُمْ بَعْدُ، وَلَمْ يُمَارِسُـوا السُّـوءَ فَتَأْسَـنْ طِبَاعُهُـمْ، وَلَـمْ يَتَمَكَّنْ بِهِمُ الطُّغْيَـانُ، وَلَمْ تَسْتَعْبِدْهُمُ الشَّهْوَةُ، وَلَمْ تَسْتَزِلَّهُمُ الأَنَـانِيَّةُ وَحُـبُّ السِّيَادَةِ، لِذَا فَقَـدْ تَفَتَّحَـتْ نُفُوسُهُـمْ لِلْخَيْرِ، وَقَبِلَتِ الحَقَّ، وَآمَنَتْ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَانْتَظَمَتْ فِي صَفِّ الدَّعْوَةِ.

لَقَدْ وَقَفَ فِي وَجْهِ الدَّعْوَةِ سَيِّدُ بَنِـي عَبْـدِ شَمْسٍ عُتْبَةُ بـنُ رَبِيعَةَ، وَسَيِّدُ بَنِي أُمَيَّةَ أَبُو سُفْيَـانَ صَخْرُ بنُ حَرْبٍ، وَسَيِّدُ بَنِي عَامِرٍ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، وَسَيِّدُ بَنِي سَهْمٍ العَاصُ بـنُ وَائِـلٍ، وَسَيِّدُ بَنِي مَخْزُومٍ الوَلِيدُ بنُ المُغِيرَةِ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاَءِ إِلاَّ وَقَدْ أَسْلَمَ أَحَدُ أَبْنَائِهِ أَوْ أَحَدُ أَقْرِبَائِهِ المُقَرَّبِينَ. لَقَدْ أَسْلَمَ أَبُو حُذَيفَةَ بنُ عُتْبَةَ العَبْشَمِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو

العَامِرِيُّ، وَهِشَامُ بنُ العَاصِ السَّهْمِيُّ، وَعَيَّاشُ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ المَخْزُومِيُّ، وَالوَلِيدُ بنُ الوَلِيدِ بن المُغِيرَةِ، أَخُو خَالِدِ بن الوَلِيدِ، وَسَلَمَةُ بنُ هِشَامٍ، أَخُو أَبِي جَهْلٍ، وَأَسْلَمَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ مَعَ زَوْجِهَا عُبَيْدُ اللَّهِ بن جَحْشٍ، وَأَسْلَمَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلِ بنِ عَمْروٍ مَعَ زَوْجِهَا أَبِي حُذَيْفَةَ بن عُتْبَةَ.

لَقَدْ عَاشَ الآبَاءُ فِي صَفٍّ وَعَاشَ الأَبْنَاءُ فِي صَفٍّ آخَرَ مُقَابِلَ آبَائِهِمْ. وَقَفَ الآبَاءُ يُحَكِّمُونَ مَصَالِحَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ فِي تَصَرُّفَاتِهِمْ، وَوَقَفَ الأَبْنَاءُ يُحَكِّمُونَ عُقُولَهُمْ، نَظَرَ الآبَاءُ إِلَى أَبْنَائِهِمْ نَظْرَةَ العَدَاوَةِ لَهُمْ وَقَدْ نُزِعَتْ مِنْهُمْ كُلُّ عَوَاطِفِ الأُبُوَّةِ مِنْ حَنَانٍ وَشَفَقَةٍ وَرَحْمَةٍ فَصَبُّوا جَامَ غَضَبِهِمْ عَلَى ذَوِيهِمْ، وَنَظَرَ الأَبْنَاءُ إِلَى آبَائِهِمْ بِكُلِّ عَوَاطِفِ البُنُوَّةِ يَتَمَنَّوْنَ لَهُمُ الخَيْرَ بِاعْتِنَاقِهِمُ الإِسْلاَمَ، وَيُشْفِقُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّارِ وَعَذَابِ اللَّهِ، فَكَانُوا يَدْعُونَهُمْ إِلَى الإِسلاَمِ وَلَكِنْ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ عُقُولاً مُعَطَّلَةً وَآذَاناً صُمّاً، وَلَعَلَّ مِنْ أَبْرَزِ هَؤُلاَءِ الأَبْنَاءِ أَبَا حُذَيْفَةَ بنَ عُتْبَةَ.

أَبُو حُذَيْفَةَ بنُ عُتْبَةَ

أَبُو حُذَيْفَةَ بنُ عُتْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ بنِ عَبْدِ شَمْسِ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ قُصَيٍّ، غَلَبَتْ كِنْيَتُهُ عَلَى اسْمِهِ حَتَّى نُسِيَ فَقِيلَ: قَيْسٌ، وَقِيلَ: هَشِيمٌ.

وَأُمُّهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ بنِ مُحرِثِ الكِنَانِيِّ.

كَانَ أَبُو حُذَيْفَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، طَوِيلاً، حَسَنَ الوَجْهِ، مُرَادِفَ الأَسْنَانِ وَهُوَ الأَثْعَلُ، وَكَانَ أَحْوَلَ.

وُلِدَ قَبْلَ البِعْثَةِ بِثَلاَثِينَ عَاماً فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِعَشْرِ سَنَوَاتٍ، وَنَشَأَ فِي بَيْتِ عِزٍّ، وَكَانَ أَبُوهُ يُعِدُّهُ لِيَكُونَ سَيِّدَ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ مَكَانَهُ، فَهُوَ خَلِيفَتُهُ إِذْ أَنَّهُ مِنْ أَنْبَهِ أَوْلاَدِهِ.

تَزَوَّجَ سَهْلَةَ بِنْتَ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو، وَأَسْلَمَتْ، وَهَاجَرَتْ مَعَهُ إِلَى الحَبَشَةِ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ مُحَمَّدَ بنَ أَبِي حُذَيْفَةَ

الَّذِي حَرَّضَ أَهْلَ مِصْرَ عَلَى عُثْمَانَ بنَ عفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَعَانَ عَلَيْهِ.

وَتَزَوَّجَ آمِنَةَ بِنْتَ عَمْرِو بنِ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ عَاصِماً.

وَتَزَوَّجَ ثُبَيْتَةَ بِنْتَ يعَارِ الأَنْصَارِيَّةَ مَوْلاَةَ سَالِمٍ، وَقَدْ أَعْتَقَتْهُ فَتَوَلَّى أَبَا حُذَيْفَةَ.

وَقَدِ انْقَرَضَ وَلَدُ أَبِي حُذَيْفَةَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

وَأُخْتُهُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ زَوْجُ أَبِي سُفْيَانَ صَخْرِ بنِ حَرْبٍ، أُمُّ مُعَاوِيَةَ.

إِسْلاَمُ أَبِي حُذَيْفَةَ

كَانَ أَبُو حُذَيْفَةَ مِنْ المُسْلِمِينَ الأَوَائِلِ، فَقَدْ أَسْلَمَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَارَ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ المَخْزُومِيِّ. وَأَسْلَمَتْ مَعَهُ زَوْجُهُ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو، وَأَبُوهُ وَأَبُوهَا مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ، وَمِنْ كِبَارِ الَّذِينَ صَدُّوا عَنِ الدَّعْوَةِ.

وَوَصَلَ خَبَرُ إِسْلاَمِ أَبِي حُذَيْفَةَ إِلَى أَبِيهِ عُتْبَةَ فَحَاوَلَ أَنْ

يَفْتِنَهُ عَنْ دِينِهِ، وَاتَّخَذَ الإِغْرَاءَاتِ كُلَّهَا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ عَجَزَ إِذْ كَانَ الإِيْمَانُ قَدْ رَسَخَ فِي نَفْسِ أَبِي حُذَيْفَةَ فَلاَ يُمْكِنُ لِمَبَاهِجِ الدُّنْيَا كُلِّهَا وَمَفَاتِنِهَا أَنْ تُغَيِّرَ شَيْئاً مِمَّا اسْتَقَرَّ فِي تِلْكَ النَّفْسِ المُؤْمِنَةِ.

فِي الحَبَشَةِ

لَمَّا اشْتَدَّ أَذَى المُشْرِكِين مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ ضُعَفَائِهَا وَزَادَ الضَّغْطُ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَبْنَائِهَا، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَدِّمَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ شَيْئاً أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِالهِجْرَةِ إِلَى الحَبَشَةِ، فَإِنَّ فِيهَا مَلِكاً لاَ يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ.

اتَّجَهَ المُسْلِمُونَ إِلَى الحَبَشَةِ، فَخَرَجَ فِي المَرَّةِ الأُوْلَى عَشْرَةٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ مِنْهُمْ أَبُو حُذَيْفَةَ، وَمَعَهُ زَوْجُهُ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو، وَكَانَ خُرُوجُهُمْ فِي شَهْرِ رَجَبٍ مِنْ السَّنَةِ الخَامِسَةِ لِلْبِعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ.

لَمْ يَطِبِ المُقَامُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الحَبَشَةِ لِقِلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَبُعْدِهِمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ تَعَوَّدُوا

عَلَى تَلَقِّي التَّوْجِيهِ الدَّائِمِ مِنْهُ، وَبُعْدِهِمْ عَنْ بَعْضِ ذَوِيهِمْ الَّذِينَ لَمْ يَرَوْا مِنْهُمْ أَذىً، ، وَلاخْتِلافِهِمْ عَنِ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي أَقَامُوا بِهِ.

لَقَدْ سَرَتْ شَائِعَةٌ فِي الحَبَشَةِ لَدَى المُسْلِمِينَ، وَهِيَ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ قَدْ دَانُوا بِالإِسْلامِ فقبِلَهَا بَعْضُهُمْ، وَقَرَّرُوا العَوْدَةَ، فَرَجَعَ مِنْهُمْ عَدَدٌ كَانَ أَبُو حُذَيْفَةَ أَحَدَهُمْ، وَكَانَ رُجُوعُهُمْ فِي شَهْرِ شَوَّالٍ مِنْ العَامِ نَفْسِهِ الَّذِي خَرَجُوا فِيهِ، وَهُوَ العَامُ الخَامِسُ مِنْ البِعْثَةِ، أَيْ أَنَّ مَدَّةَ غِيَابِهِمْ لَمْ تَزِدْ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، وَقَدْ وَلَدتْ سَهْلَةُ ابْنَهَا مُحَمَّداً فِي الحَبَشَةِ.

فِي مَكَّةَ

لَمَّا وَصَلَ العَائِدُونَ إِلَى مَكَّةَ وَجَدُوا أَنَّ مَا أُشِيعَ لَمْ يَكُنْ صَحِيحاً، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ بَلَدَهُ إِلاَّ مُتَخَفِّياً أَوْ بِجِوَارِ أَحَدٍ مِنَ المُشْرِكِينَ. وَمَا أَنْ دَخَلَ أَبُو حُذَيْفَةَ دَارَهُ حَتَّى قَيَّدَهُ وَالِدَهُ وَمَنَعَهُ مِنَ الخُرُوجِ بِحُجَّةِ الخَوفِ مِنْ أَنْ يُعَيَّرَ بِهِ، وَمَرَّتِ السَّنَوَاتُ وَلَمْ تُجْدِ وَسِيلَةٌ بِعُدُولِ عُتْبَةَ عَنْ مَوْقِفِهِ، وَلَمْ تَنْفَعْ طَرِيقَةٌ بِعَوْدَةِ أَبِي حُذَيْفَةَ إِلَى دِينِ آبَائِهِ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لِلإِيمَانِ.

والتَقى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، بِعُصْبَـةٍ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ فِي المَوسِمِ، فَدَعَاهُمْ إِلَـى الإِسْـلاَمِ فَأَجَابُـوا، وَتَوَاعَدُوا مَعَهُ فِي المَوْسِمِ القَادِمِ وَتَمَّ اللِّقَاءُ، وَكَانَـتْ بَيْعَـةُ العَقَبَةِ الأُولَى، وَضَرَبُـوا مَوْعِـداً آخَـرَ فِي المَوْسِـمِ المُقْبِـلِ وَحَدَثَ الاِجْتِمَاعُ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ العَقَبَةِ الثَّانِيَةَ، وَبَعْدَهَا أَشَـارَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَـى أَصْحَابِـهِ فِي مَكَّةَ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ فَبَدَأَ المُسْلِمُونَ يُهَاجِرُونَ فَوْجَاً بَعْدَ آخَرَ جَمَاعاتٍ وَأَفْرَاداً.

وَتَاقَتْ نَفْسُ أَبِي حُذَيْفَةَ لِلْهِجْرَةِ، وَامْتَـلأَتْ شَوْقَـاً لِلِقَـاءِ الإِخْوَةِ فِي اللَّهِ، وَلَمْ يَجِدْ بُدَّاً لِتَحْقِيقِ هَذَا مِنْ أَنْ يُظْهِرَ لأَبِيهِ إِمْكَانِيَّةَ تَغْيِيرِ مَوْقِفِهِ بِالنِّسْبَـةِ إِلَى الإِسْلاَمِ فَسُرَّ عُتْبَةُ، وَعَفَا عَنْ وَلَدِهِ وَأَعْطَاهُ حُرِّيَتَهُ فَانْطَلَقَ مُهَاجِراً إِلَى المَدِينَةِ، وَنَفْسُهُ تَكَادُ تَطِيرُ فَرَحَاً مِمَّا سَيَجِدُ فِي مَهجَـرِهِ، وَيَحْدُوهَـا الأَمَـلُ العَـظِيمُ بِالحَيَاةِ الهَنِيئَـةِ مَعَ إِخْوَانِهِ فِي الإِسْلاَمِ.

فِي المَدِينَةِ

وَصَلَ أَبُو حُذَيْفَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى المَدِينَةِ، وَنَزَلَ عَلَى عَبَّادِ بنِ بِشْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَوَجَدَ الحَفَاوَةَ وَالكَرَمَ بَلْ وَجَدَ

الأُخُوَّةَ، فَنَسِيَ كُلَّ مَا وَجَدَ سَابِقاً مِنْ أَذَى، وَتَذَوَّقَ الحَيَاةَ الَّتِي كَانَ يَحْلَمُ بِهَا.

وَهَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَآخَى بَينَ المسلمين فِي المَدينَة، فَآخَى بيْنَ أَبِي حُذَيْفَةَ وَبيْنَ عَبَّادِ بن بِشْرٍ، فَعَاشَا أَخوَيْنِ، وَاسْتَمَرَّا مَعاً حَتَّى اسْتُشْهِدَا مَعاً فِي اليَمَامَةِ.

وَاتَّسعَ بَيْتُ أَبِي حُذَيْفَةَ فِي المَدِينَةِ، إِذْ تَزَوَّجَ ثُبَيْتَةَ بِنْتَ يَعَارِ الأَنْصَارِيَّةُ، وَضَمَّ البَيْتُ أَيْضاً سَالِماً الَّذِي أَعْتَقَتْهُ ثُبَيْتَةُ فَتَوَلَّى أَبَا حُذَيْفَة.

بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُرْسِلُ السَّرَايَا، وَيَقُودُ الغَزَوَاتِ، لِدِرَاسَةِ المَنْطَقَةِ الَّتِي يَتَوَقَّعُ أَنْ يكُونَ الصِّدَامُ فِيهَا بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَبَيْنَ المُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَلِلتَّعَرُّفِ عَلَى رِجَالِ قَبَائِلِ المَنْطِقَةِ، وَمُحَاوَلَةِ رَبْطِهِمْ مَعَ المُسْلِمِينَ لِيكُونُوا بِجَانِبِهِمْ وَقْتَ الشِّدَّةِ، أَوْ لِيَقِفُوا عَلَى الأَقَلِّ عَلَى الحِيَادِ فِيمَا إِذَا وَقَعَ الصِّدَامُ إِذْ أَنَّ قُرَيْشاً لَهَا مَعَ أُولَئِكَ الرِّجَالِ صِلاَتٌ نَتِيجَةَ مُرُورِ قَوَافِلِهَا فِي دِيَارِهِمْ ذَاهِبَةً وَآيِبَةً إِلَى الشَّامِ، وَقَدْ تَمَّ هَذَا، وَلِلتَّعَرُّضِ لِعِيرِ قُرَيْشٍ إِنْذاراً لَهَا وَتَهْدِيداً وَتَشْجيعاً لِلْمُسْلِمِينَ وَتَدْرِيباً، وَرَفْعاً لِلْمَعْنَوِيَّات

وَحَماسَةً. وَقَدْ قَامَتِ الغَزَوَاتُ والسَّرَايَا بِمُهِمَّتِهَا وَحَقَّقَتْ أَغْرَاضَهَا.

لَقَدْ اقْتَصَرَتْ هَذِهِ الغَزَوَاتُ والسَّرَايَا عَلَى المُهَاجِرِينَ دُونَ الأَنْصَارِ حَيْثُ لَهُمْ حَقٌّ فِي العِيرِ القُرَيْشِيَّةِ إِذْ أَنَّهُمْ قَدْ غَادَرُوا بَلَدَهُمْ وَقَدْ تَرَكُوا أَمْلاَكَهُمْ فَأَخَذَهَا المُشْرِكُونَ، وَتُوجَدُ عَدَاوَةٌ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ إِذْ أُجْبِرَ المُسْلِمُونَ عَلَى الهِجْرَةِ لِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ أَذىً عَلَى أَيْدِي المُشْرِكِينَ عَلَى حِينٍ لاَ تُوجَدُ تِلْكَ العَدَاوَةُ بَيْنَ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَالأَنْصَارِ فِي المَدِينَةِ.

وَقَدْ سَاهَمَ أَبُو حُذَيْفَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي هَذِهِ الغَزَوَاتِ وَالسَّرَايَا بِصِفَتِهِ أَحَدِ هَؤُلاَءِ المُهَاجِرِينَ، وَكَانَ بَطَلاً مِنْ أَبْطَالِهَا. وَقَدِ اشْتَرَكَ فِي أَهَمِّ سَرِيَّةٍ، وَهِيَ سَرِيَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بن جَحْشٍ وَالَّتِي كَانَتْ مُهِمَّتُهَا الوُصُولَ إِلَى نَخْلَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَائِفِ وَتَرَصُّدَ قُرَيْشٍ، وَمَعْرِفَةَ أَخْبَارِهَا. وَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمِيرَ السَّرِيَّةِ، أَلاَّ يَنْظُرَ فِي الكِتَابِ حَتَّى يَسِيرَ يَوْمَيْنِ وَبَعْدَهَا يَفُضُّ الكِتَابَ وَيَرَى مَا فِيهِ، فَيَمْضِي لِمَا أُمِرَ بِهِ، وَلاَ يَسْتَكْرِهُ أَحَداً مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا سَارَ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الكِتَابَ فَنَظَرَ فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ: إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ

نخْلَةَ، بَيْنَ مَكَّةَ والطَّائِفِ، فَتَرصَّدْ بِهَا قُرَيْشاً وَتَعْلَمَ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِم. فَلَمَّا نَظرَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْش فِي الكِتَابِ، قَالَ: سَمْعاً وَطَاعَةً، ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ: قَدْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى نَخْلَةَ، أَرْصُدُ بِهَا قُرَيْشاً، حَتَّى آتِيهِ مِنْهُمْ بِخَبَرٍ، وَقَدْ نَهَانِي أَنْ اسْتَكْرِهَ أَحَداً مِنْكُمْ. فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيدُ الشَّهَادَةَ وَيَرْغَبُ فِيهَا فَلْيَنْطَلِقْ، وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ فَلْيَرْجعْ؛ فَأَمَّا أَنَا فَمَاضٍ لأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَضَى وَمَضَى مَعَهُ أَصْحَابُهُ، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ. وَأَضَلَّ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعُتْبَةُ بنُ غَزْوَانَ بَعِيراً لَهُمَا كَانَا يَتَعَقَّبَانِهِ، وَمَضَى عَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ وَأَصْحَابُهُ الخَمْسَةُ البَاقِينَ حَتَّى نَزَلُوا نَخْلَةَ، فَمَرَّتْ بِهِمْ عِيرٌ لِقُرَيْشٍ تَحْمِلُ زَبِيباً وَأَدَماً، وَتِجَارَةً مِنْ تِجَارَةِ قُرَيْشٍ، فِيهَا عَمْرُو ابنُ الحَضْرَمِيِّ، وَتَشَاوَرَ المُسْلِمُونَ فِي الصِّدَامِ مَعَ العِيرِ، وَكَانَ آخِرُ أَيَّامِ شَهْرِ رَجَبٍ، فَإِنْ قَاتَلُوهُمْ كَانَ قِتَالُهُمْ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، وَإِنْ تَرَكُوهُمْ دَخَلُوا الحَرَمَ فِي اليَوْمِ التَّالِي، والحَرَمُ آمِنٌ، فَتَرَدَّدُوا، وَهَابُوا الإِقْدَامَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ شَجَّعُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِ مَنْ قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْهُمْ، وَأَخْذِ مَا مَعَهُمْ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ قَتْلِ عَمْرِو ابنِ الحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ،

وَأَسَرُوا عُثْمَانَ بن عَبْدِاللَّهِ[1]، وَالحَكَمَ بن كَيْسَانَ[2]، وأُفْلِتَ البَاقُونَ بَعْدَ أَنْ تَرَكُوا العِيرَ غَنِيمَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَقَسَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ العِيرَ بيْنَ أَصْحَابِهِ بَعْدَ أَنْ تَرَكَ خُمْسَهَا لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اجْتِهَاداً مِنْهُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَفْرِضَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخُمْسَ مِنَ الغَنَائِمِ.

فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى المَدِينَةِ جَرَى خِلاَفٌ عَلَى القِتَالِ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، وَأَوْقَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العِيرَ والأَسِيرَينِ، وَرَفَضَ أَنْ يأْخُذَ شَيْئاً، وَخَافَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ وَإِخَوانُهُ مِنْ أَنْ يَكُونُوا قَدْ ارْتَكَبُوا حَرَاماً حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ، وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ، وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. البقرة. ٢١٧.

---

(١) عثمان بن عبد الله: لحق بمكة ومات بها كافراً.

(٢) الحكم بن كيسان: أسلم، وأقام عند رسول الله، واستشهد في بئر معونة.

عِنْدَهَا قَبَضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، العِيرَ والأَسِيرَيْنِ. وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ غَنِيمَةٍ لِّلمُسْلِمِينَ، وَعَمْرُو ابنُ الحَضْـرَمِيِّ أَوَّلَ قَتِيلٍ قَتَلَهُ المُسْلِمُـونَ، وَالحَكَمُ بنُ كَيْسَانَ وَعُثْمَانُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ أَوَّلَ أَسْرَاهُمْ.

وَطَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ فِي غَزْوَةٍ يَكُونُ لَهُمْ فِيهَا أَجْرُ المُجَاهِدِينَ.

فِي بَدْرٍ

وَعَلِمَ رسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـم، بِخَبَـرِ قُدُومِ قَافِلَةٍ لِقُرَيْشٍ بِإِمْرَةِ أَبِي سُفْيانَ تَسِيرُ إِلى الشَّامِ فَخَرَجَ لَهَا فَلَمْ يُدْرِكْهَا، فَتَرَقَّبَ عَوْدَتَهَا، وَوَضَعَ لَهَا مَنْ يَرْصُدُ رُجُوعَهَا، فَلَمَّا خَبِرَ بِدُنُوِّهَا اسْتَنْهَضَ أَصْحَابَهُ فَخَرَجُوا إِلَيْهَـا غَيْرَ أَنَّهَـا نَجَـتْ بِتَغْيِيرِ طَرِيقِهَا، وَأَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ مَنْ يُنْبِـيءُ قُرَيْشـاً لانْقَاذِ عِيرِهِمْ، فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ تُرِيدُ قَافِلَتَها، وَمُصَمِّمَـةٌ عَلَـى تَأْدِيبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ـ عَلَى زَعْمِهَا ـ وَشَاءَ اللَّـهُ أَنْ يَلْتَقِـيَ الجَمْعَانِ فِي بَدْرٍ.

وَكَانَ عُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ وَالِدُ أَبِي حُذَيْفَةَ فِي قُرَيْشٍ وَهُوَ كَبِيرُهَا وَسَيِّدُهَا المُطَاعُ، وَقَدْ كَلَّمهُ حكِيمُ بنُ حِزَامٍ بِالعَوْدَةِ بِالنَّاسِ بَعْدَ أَنْ نَجَتِ القَافِلَةُ، فَوَقَفَ خَطِيبـاً فِي النَّـاسِ فَقَـالَ: «يا

مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا تَصْنَعُونَ بِأَنْ تَلْقَوا مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهَ شَيْئاً ، وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَبْتُمُوهُ لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَنْظُرُ فِي وَجْهِ رَجُلٍ يَكْرَهُ النَّظَرَ إِلَيْهِ ، قَتَلَ ابنَ عَمِّهِ ، أَوْ ابنَ خَالِهِ ، أَوْ رَجُلاً مِنْ عَشِيرَتِهِ ، فَارْجِعُوا وَخَلُّوا بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ سَائِرِ العَرَبِ ، فَإِنْ أَصَابُوهُ فَذَاكَ الَّذِيْ أَرَدْتُمْ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ أَلْفَاكُمْ وَلَم تَعَرَّضُوا مِنْهُ مَا تُرِيدُونَ » . غَيْرَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ بنِ هِشَامٍ قَدِ اتَّهَمَهُ بِالجُبْنِ ، وَالخَوْفِ عَلَى ابْنِهِ أَبِي حُذَيْفَةَ الَّذِيْ هُوَ فِي صُفُوفِ المُسْلِمِينَ . وَحَرَّضَ عَامِرَ ابْنَ الحَضْرَمِيِّ أَخَا ابْنِ الحَضْرَمِّي الَّذِي قَتَلَهُ المُسْلِمُونَ عَلَى إِثَارَةِ الحَرْبِ فَفَعلَ ، وَتَعَبَّأَتِ النُّفُوسُ ، وَاحْمَرَّتِ العُيُونُ .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَدْ قَالَ لأَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ : إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ رِجَالاً مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كَرْهَاً ، لاَ حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا ، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَداً مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلاَ يَقْتُلْهُ ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا البَخْتَرِيِّ بنَ هِشَامٍ بنِ الحَارِثِ بنِ أَسَدٍ[1] فَلاَ يَقْتُلْهُ ، وَمَنْ لَقِيَ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِ

(١) أبو البَخْتَرِيِّ : كان قد كفّ القوم عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يؤذيه ، ولا يبلغه عن شيء يكرهه ، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني المطلب . وحاول المسلمون عدم قتله ، وأخذه أسيراً فلم يفلحوا لأنه اجتهد في قتالهم فقتل . ويدعى العاص بن هشام بن الحارث بن أسد .

المُطَّلِبِ عَمٍّ رَسُولِ اللَّهِ فَلاَ يَقْتُلْهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرِهاً. فَقَالَ أَبُو حُذَيْفَةَ: أَنَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَتَنَا وَعَشِيرَتِنَا، وَنَتْرُكُ العَبَّاسَ! وَاللَّهِ لَئِنْ لَقِيتُهُ لأُلْحِمَنَّهُ السَّيْفَ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ: يَا أَبَا حَفْصٍ أَيُضْرَبُ وَجْهُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي فَلأَضْرِبْ عُنُقَهُ بِالسَّيْفِ فَوَاللَّهِ لَقَدْ نَافَقَ.

كَلِمَةٌ خَرَجَتْ مِنْ فَمِ أَبِي حُذَيْفَةَ فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الضَّعْفِ البَشَرِيِّ، وَإِنَّهُ قَدْ نَدِمَ عَلَيْهَا، وَبَقِيَ خَائِفاً مِنْهَا مَدَى حَيَاتِهِ، فَمَا أَنِ التَقَى الجَمْعَانِ حَتَّى خَرَجَ يَطْلُبُ مُبَارَزَةَ أَبِيهِ لِيُبَرْهِنَ عَنْ إِيْمَانِهِ العَمِيقِ، وَلِيُعْلِنَ أَنَّ كَلاَمَهُ الَّذِي تَفَوَّهَ فِيهِ قَدْ كَانَ خَطَأً، وَأَنَّهُ سَيُكَفِّرُ عَنْ خَطَئِهِ بِالأَعْمَالِ لاَ بِالأَقْوَالِ، وَلِتَسْمَعَ الدُّنْيَا كُلُّهَا أَنَّ رَابِطَةَ الدَّمِ تَحْتَ قَدَمِهِ. وَكَانَ دَائِماً يَقُولُ: مَا أَنَا بِآمِنٍ مِنْ تِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي قُلْتُ يَوْمَئِذٍ، وَلاَ أَزَالُ مِنْهَا خَائِفاً، إِلاَّ أَنْ تُكَفِّرُهَا عَنِّيَ الشَّهَادَةُ.

وَعِنْدَمَا اصْطَفَّ الطَّرَفَانِ لِلْقِتَالِ تَحَرَّكَ الإِيمَانُ فِي صَدْرِ أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأُلْقِيَتْ أَرْضاً رَوَابِطُ القَرَابَةِ مِنْ أُبُوَّةٍ وَبُنُوَّةٍ وَعَشِيرَةٍ وَكُلِّ أَوَاصِرِ الصِّلَةِ، وَجَمِيعِ الوَشَائِجِ الَّتِي عَرَفَتْهَا

الدُّنْيَا بِاسْتِثْنَاءِ رَابِطَةِ الإِيمَان فَخَرَجَ أَبُو حُذَيْفَةَ يَطْلُبُ مُبَارَزَةَ أَبِيهِ إِيمَاناً بِالحَقِّ وَتَكْفِيراً لِمَا سَبَقَ أَنْ قَالَ، فَقَالَتْ فِي ذَلِكَ أُخْتُهُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ.

الأَحْوَلُ الأَثْعَلُ المَشْؤُومُ طَائِرُهُ
أَبُو حُذَيْفَةَ شَرُّ النَّاسِ فِي الدِّينِ
أَمَا شَكَرْتَ أَباً رَبَّاكَ مِنْ صِغَرٍ
حَتَّى شَبَبْتَ شَبَاباً غَيْرَ مَحْجُونِ؟

وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَهَاهُ وَأَعَادَهُ. وَلَكِنَّ أَبَاهُ عُتْبَةَ بن رَبِيعَةَ قَدْ خَرَجَ إِلَى مَا بَيْنَ الصُّفُوفِ بَيْنَ أَخِيهِ شَيْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ وَابْنِهِ الوَلِيدِ بنِ عُتْبَةَ، وَطَلَبَ المُبَارَزَةَ رَدًّا عَلَى كَلَامِ أَبِي جَهْلٍ الَّذِي اتَّهَمَهُ بِالجُبْنِ وَالخَوْفِ عَلَى ابْنِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنْ الأَنْصَارِ، هُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، وَعَوْفُ بنُ الحارث وَأَخُوهُ مُعَوِّذُ بنُ الحَارِثِ. فَقَالَ عُتْبَةُ: مَنْ أَنْتُمْ، فَقَالُوا: رَهْطٌ مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ عُتْبَةُ: مَا لَنَا بِكُمْ مِنْ حَاجَةٍ. ثُمَّ نَادَى مُنَادِيهِمْ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بنُ الحَارِثِ، وَقُمْ يَا حَمْزَةُ، وَقُمْ يَا عَلِيُّ. فَلَمَّا قَامُوا وَدَنَوْا مِنْهُمْ. قَالَ عُتْبَةُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَعَرَّفُوا أَنْفُسَهُمْ. فَقَالَ عُتْبَةُ:

نَعَمْ أَكْفَاءُ كِرَامُ، إِنَّمَا نُرِيدُ قَوْمَنَا. وَمَا هِيَ إِلاَّ جَوْلَةٌ حَتَّى صَرَعَ المُسْلِمُونَ المُبَارِزُونَ خُصُومَهُمُ الَّذِينَ أَمَامَهُمْ، وَهَكَذَا قُتِلَ وَالِدُ أَبِي حُذَيْفَةَ، وَعَمُّهُ، وَأَخُوهُ، وَعَيْنُ أَبِي حُذَيْفَةَ تَنْظُرُ فَغَلَبَهَا الدَّمْعُ. وَعِنْدَمَا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِهِمْ أَنْ يُلْقَوْا فِي القُلَيْبِ، أُخِذَ عُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ فَسُحِبَ إِلَى القُلَيْبِ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي وَجْهِ أَبِي حُذَيفَةَ بن عُتْبَةَ، فَإِذَا هُوَ كَئِيبٌ قَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا حُذَيْفَةَ، لَعَلَّكَ قَدْ دَخَلَكَ مِنْ شَأْنِ أَبِيكَ شَيْءٌ؟ فَقَالَ: لاَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا شَكَكْتُ فِي أَبِي وَلاَ فِي مَصْرَعِهِ، وَلَكِنَّنِي كُنْتُ أَعْرِفُ مِنْ أَبِي رَأْياً وَحِلْماً وَفَضْلاً، فَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَهْدِيَهُ ذَلِكَ إِلَى الإِسْلاَمِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مَا أَصَابَهُ، وَذَكَرْتُ مَا مَاتَ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ، بَعْدَ الَّذِي كُنْتُ أَرْجُو لَهُ، أَحْزَنَنِي ذَلِكَ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِخَيْرٍ، وَقَالَ لَهُ خَيْراً.

الفَوْزُ بِالشَّهَادَةِ

شَهِدَ أَبُو حُذَيْفَةَ بَعْدَ بَدْرٍ كُلَّ المَشَاهِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا تَخَلَّفَ عَنْ غَزْوَةٍ وَمَا تَأَخَّرَ عَنْ مَشْهَدٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ لاَ يَتَكَلَّمُ أَبَداً، خَائِفاً مِمَّا بَدَرَ مِنْهُ مِنْ قَوْلٍ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ،

وَلَكِنْ مَا أَنْ يَبْدَأُ القِتَالُ حَتَّى يَنْطَلِقَ كالسَّهْمِ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ يَطْلُبُ الشَّهَادَةَ، وَيَنْدَفِعُ بِقُوَّةٍ لاَ يُبَالِي عَدُوّاً.

وَانْتَقَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى، وَهُوَ عَنْ أَبِي حُذَيْفَةَ رَاضٍ.

وَارْتَدَّتِ العَرَبُ، وَسَيَّرَ أَبُو بَكْرٍ لَهُمُ الجُيُوشَ فَكَانَ أَبُو حُذَيْفَةَ مِنْ أَوَّلِ المُتَطَوِّعِينَ لِلْجِهَادِ، وَانْطَلَقَ إِلَى اليَمَامَةِ مَعَ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ، وَقَاتَلَ بِضَرَاوَةٍ حَتَّى لَقِيَ الشَّهَادَةَ فَقَرَّتْ عَيْنُهُ بِهَا إِذْ عَلِمَ أَنَّهَا كَانَتْ تَكْفِيراً لِكُلِّ مَا بَدَرَ مِنْهُ قَوْلاً أَوْ عَمَلاً - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ -.

بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ٢٦ -

سَالِم مَوْلى أبي حُذَيْفَة

رَضِيَ الله عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للَّـهِ رَبِّ العَـالَمِينَ وَالصَّلاَةُ والسَّلامُ عَلَـى سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَخَاتَـمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدِ بـنِ عَبْدِ اللَّـهِ وَعَلَى آلِـهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ أمابعـد :

فَإِنَّ الإِسْلاَمَ قَدْ سَاوَى بَيْنَ النَّاسِ وَأَزَالَ الطَّبَقَاتِ وَقَضَى عَلَى الفُرُوقِ والحَوَاجِزِ القَائِمَةِ الَّتِي تَفْصِـلُ المُجْتَمَعَ إِلَـى فِئَاتٍ وَتُمَيِّزُ بَيْنَها عَلَى أَسَاسِ الأَصْلِ وَالجِنْسِ وَاللَّوْنِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَبَايُنٍ وَخِلاَفَاتٍ، وَأَمَّا الفُـرُوقُ فِي المَوَاهِـبِ الفِكْرِيَّةِ وَمَا يَنْتُجُ عَنْهَـا مِنِ اخْتِـلاَفٍ فِي المِهْنَـةِ وَالكَسْـبِ، وَالفُرُوقُ فِي الإِمْكَانَاتِ الجِسْمِيَّةِ وَمَا يَنْتُجُ عَنها مِنْ تَبَايُنٍ فِي القُوَّةِ، وَإِمْـكَانِيَّةٍ فِي تَحْصِيلِ المَعَـاشِ، وَالفُـرُوقُ فِي الإِنْجَابِ مِمَّـا يَزِيدُ فِي الإِنْتَـاجِ وَيُؤَدِّي إِلَـى المُفَاخَـرَةِ وَالإِعْجَابِ فَإِنَّ هَذَا لاَ يُبَالِي بِهِ الإِسْلاَمُ، وَإِنَّما يَجْعَلُ التَّمَايُزَ فِي التَّقْوَى إِذْ بِها يَكُونُ الإِخْلاَصُ وَالإِسْتِقَامَةُ وَالمَحَبَّةُ وَمَعْرِفَةُ المُهِمَّةِ المُنَاطَةِ بِالمَرْءِ.

وَإِذَا كَانَ الإِسْلاَمُ قَدِ اعْتَرَفَ بِالرَّقِيقِ كَجُزْءٍ مِنَ النِّظَامِ الاِجْتِمَاعِيِّ القَائِمِ ، وَأَقَرَّهُ كَمَرْحَلَةٍ مِنَ المَرَاحِلِ التَّارِيخِيَّةِ ، إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ ضَيَّقَ مَصَادِرَهُ فَاقْتَصَرَ عَلَى مَا يُؤْخَذُ فِي الحُرُوبِ كَمُعَامَلَةٍ بِالمِثْلِ ، وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ فَقَدْ وَسَّعَ طُرُقَ تَصْرِيفِهِ فِي العِتْقِ وَالصَّدَقَاتِ وَالكَفَّارَاتِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ ، وَجَعَلِ الأُخُوَّةِ قَائِمَةً فِي الإِسْلاَمِ بَيْنَ السَّيِّدِ وَمَوْلاَهُ فَكَانَ أَنِ ارْتَفَعَ عَدَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الامْكَانَاتِ مِمَّنْ كَانُوا عَبِيداً حَتَّى وَصَلُوا إِلَى القِمَّةِ فَكَانَ مِنْهُمْ قَادَةٌ أَمْثَالَ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ ، وَكَانَ مِنْهُمْ أَئِمَّةٌ وَقُرَّاءُ أَمْثَالَ سَالِمٍ وَكَانَ لِبَعْضِهِمْ دَوْرٌ فِي الطَّلاَئِعِ أَمْثَالَ بِلاَلِ وَصُهَيْبِ وَعَمَّارِ وَسَلْمَانَ و . . . . وَرُبَّمَا يَصِلُ الأَمْرُ إِلَى أَبْعَدِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ يَتَوَلَّى إِمْرَةَ المُؤْمِنِينَ ، وَهُنَا نَذْكُرُ قَوْلَةَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عِنْدَمَا طُعِنَ ، وَطُلِبَ مِنْهُ تَعْيِينُ خَلِيفَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدَهُ : «لَو كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ حَيّاً لَوَلَّيْتُهُ ، وَلَوْ كَانَ سَالِمُ حَيّاً لَوَلَّيْتُهُ» .

وَيُعَدُّ سَالِمُ أُنْمُوذَجاً لِمَنْ رَفَعَهُمُ الإِسْلاَمُ ، وَسَاوَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَادَتِهِمْ فِي السَّابِقِ بَلْ رُبَّمَا تَفَوَّقَ بَعْضُهُمْ عَلَى سَيِّدِهِ ، وَهَذَا مَا كَانَتْ تَخْشَاهُ الجَاهِلِيَّةُ وَيَخَافُهُ طُغَاتُهَا .

أَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ أُوَفَّقَ فِي إِعْطَاءِ صُورَةٍ صَادِقَةٍ عَنْ هَذَا

الصَّحَابِي الجَلِيلِ سَالِمِ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأَسْأَلُهُ تَعَالَى التَّوْفِيقَ وَالصِّدْقَ وَالإِخْلَاصَ فِي العَمَلِ وسَدَادَ الخُطَا، والتَّأْيِيدَ فَهُوَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرِ.

يَعُودُ سَالِمُ فِي أَصْلِهِ إِلَى اصْطَخْرَ مِنْ بِلاَدِ فَارِسٍ ، وَلَمْ يَعْرِفِ التَّارِيخُ اسْمَهُ الفَارِسِيَّ القَدِيمَ ، وَإِنَّمَا حَفِظَ لَنَا الاسْمَ الَّذِي أُطْلِقَ عَلَيْهِ فِي بِلاَدِ العَرَبِ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى سَبْيِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ ، بَلْ لاَ نَعْرِفُ إِلَى مَنْ آلَتْ مُلْكِيَتُهُ ، وَإِنَّمَا أَوَّلُ مَا نَذْكُرُ أَنَّهُ عِنْدَ ثُبَيْتَةَ بِنْتِ يَعَارِ الأنصَارِيَّةِ مِنْ بَنِي عُبَيْدِ بنِ زَيْدِ بنِ مَالِكِ بنِ عَوْفِ بنِ عَمْرِو بنِ عَوْفِ مِنَ الأَوْسِ ، لِذَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَحْيَاناً سَالِمُ بنُ عُبَيْدٍ ، كَمَا يُقَالُ لَهُ سَالِمُ بنُ مَعْقِلٍ وَبِهَذَا يُعَدُّ مِنَ الأَنْصَارِ . وَقَدْ أَسْلَمَتْ ثُبَيْتَةُ ، وَأَسْلَمَ سَالِمُ ، وَأَعْتَقَتْهُ ، وَكَانَ ذَا صَوْتٍ نَدِيٍّ وَقِرَاءَةٍ عَذْبَةٍ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَجِيئَهُ إِلَى بِلاَدِ العَرَبِ كَانَ فِي حَدَاثَةِ سِنِّهِ حَتَّى نَشَأَ مُجِيداً لِلُّغَةِ مُحْسِناً لِلنُّطْقِ مُتْقِناً لإِخْرَاجِ الحُرُوفِ مِنْ مَخَارِجِهَا الصَّحِيحَةِ ، وَكَانَ حِفْظُهُ لِكِتَابِ اللَّهِ جَيِّداً .

وَبَدَأَ المُهَاجِرُونَ مِنْ مَكَّةَ يَفِدُونَ إِلَى المَدِينَةِ بِإِشَارَةٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بَعْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ

فَنَزَلُوا بِالعُصْبَةِ إِلَى جَنْبِ قُبَاءَ فَكَانَ سَالِمُ يَؤُمُّهُمْ لِلصَّلاَةِ وَفِيهِمْ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ وَأَبُو سَلَمَةَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ الأَسَدِ المَخْزُومِيُّ لأَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَهُمْ قُرْآناً، وَذَلِكَ قَبْلَ قُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ.

وَلَمَّا تَزَوَّجَ أَبُو حُذَيْفَةَ بنُ عُتْبَةَ ثُبَيْتَةَ تَوَلَّى سَالِمُ أَبَا حُذَيْفَةَ فَأَصْبَحَ يُنْسَبُ إِلَيْهِ فَيُقَالُ سَالِمُ بنُ أَبِي حُذَيْفَةَ، وَبِذَا يُعَدُّ مِنَ المُهَاجِرِينَ لِلسَّبَبِ هَذَا، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ، وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ. ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[1]، فَأَصْبَحَ يُقَالُ لَهُ بَعْدَهَا سَالِمُ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ.

وَأَدْرَكَ سَالِمُ مَا يُدْرِكُ الرِّجَالُ، وَبَقِيَ يَدْخُلُ عَلَى بَيْتِ أَبِي حُذَيْفَةَ فِي دَارِ ثُبَيْتَةَ مَوْلاَةِ سَالِمٍ السَّابِقَةِ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ

---

(١) سورة الأحزاب ٤ ـ ٥.

اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَتْ: إِنِّي أَرَى ذَاكَ فِي وَجْهِ أَبِي حُذَيْفَةَ، فقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: أَرْضِعِيهِ، فقَالَتْ: إِنَّهُ ذُو لِحيَةٍ، قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ ذُو لِحْيَةٍ، فَإِذَا أَرْضَعْتِيهِ فقَدْ حَرُمَ عَلَيْكِ مَا يَحْرُمُ مِنْ ذِي المَحْرَمِ. وَقَدْ أَبَى سَائِرُ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِنَّ أَحَدٌ بِهَذَا الرِّضَاعِ، وَقُلْنَ إِنَّمَا هَذَا رُخْصَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّم، لِسَالِمٍ خَاصَّةً. وَقَدْ ذَكَرَ عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ أَنْ خَالَتَهُ عَائِشَةَ إِنَّمَا أَخَذَتْ بِذَلِكَ مِنْ بَيْنِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَهَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، وَآخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ، فَآخَى بَيْنَ أَبِي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ وَبَيْنَ سَالِمٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَكَانَةِ سَالِمٍ بَيْنَ المُسْلِمِينَ عَامَّةً وَبَيْنَ الأَنْصَارِ خَاصَّةً.

وَأُذِنَ لْلمُسْلِمِينَ بِالقِتَالِ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ

عَزِيزٌ﴾[1]. فَبَدَأَ الصِّرَاعُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ وَدَارَتِ المَعَارِكُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَاشْتَرَكَ سَالِمُ فِي الغَزَوَاتِ كُلِّهَا، وَحَضَرَ المَشَاهِدَ جَمِيعَهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِدْءاً مِنْ بَدْرٍ وَحَتَّى تَبُوكَ، وَكَانَ فِي هَذِهِ الغَزَوَاتِ بِجَانِبِ أَبِي حُذَيْفَةَ، مَا تَخَلَّفَ عَنْ مَشْهَدٍ وَلاَ تَأَخَّرَ عَنْ مَعْرَكَةٍ.

وَقَدْ عَامَلَ أَبو حُذَيْفَةَ سَالِماً مُعَامَلَةً إِسْلاَمِيَّةً تَلِيقُ بِهِ، فَكَانَ يُطْعِمُهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَيُلْبِسُهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَقَدْ أَكْرَمَهُ أَيْضاً، فَزَوَّجَهُ ابْنَةَ أَخِيْهِ فَاطِمَةَ بِنْتَ الوَلِيدِ بن عُتْبَةَ.

وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الصَّوْتِ النَّدِيِّ فِي قِرَاءَةِ القُرْآنِ، فَعَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: اسْتَبْطَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَالَ: مَا حَبَسَك؟ قُلْتُ: إِنَّ فِي المَسْجِدِ لَأَحْسَنَ مَنْ سَمِعْتُ صَوْتَاً بِالقُرْآنِ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، وَخَرَجَ يَسْمَعُهُ، فَإِذَا هُوَ سَالِمُ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، فَقَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَكَ»[2].

وَرَوَى البُخَارِيُّ وَمُسْلِمُ وَالتِرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ طَرِيقِ

---

(1) سورة الحج ٣٩ ـ ٤٠.

(2) أخرجه أحمد وأبو نعيم.

مَسْرُوق عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عَمْرو بن العاص ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «خُذُوا القُرْآنَ مِنْ أَرْبعَةٍ مِن ابن مَسْعُودِ وَسَالِم مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ وَأُبَيٍّ بن كَعْب وَمُعَاذِ بن جَبَل». وَتُوُفِّي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاض.

الفَوْزُ بِالشَّهَادِةِ

عِنْدَمَا ارْتَدَّتِ العَرَبُ، وَتَطَوَّعَ المُسْلِمُونَ فِي الجِهَادِ، وَسَارَتِ الجُيُوشَ إِلَى المُرْتَدِّينَ، كَانَ سَالِمٌ مَعَ أَبِي حُذَيْفَةَ فِي الجَيْش الَّذِيْ سَارَ بِإِمْرَةِ خَالِدِ بن الوَلِيدِ إِلَى اليَمَامَةِ، وَكَانَ لِوَاءُ المُهَاجِرِينَ مَعَ سَالِم. فَلَمَّا انْكَشَفَ المُسْلِمُونَ فِي بِدَايَةِ الأَمْرِ، قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: بِئْسَ حَامِلُ القُرْآنِ أَنْا - يَعْنِي إِنْ فَرَرْتُ -، وَقَالَ لأَصْحَابِهِ: مَا هكَذَا كُنَّا نَفْعَلُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَفَرَ لِنَفْسِهِ حُفْرَةً فَقَامَ فِيهَا، تَصْمِيماً عَلَى الثَّبَاتِ وَقَاتَلَ حَتَّى اسْتُشْهِدَ. وَقِيلَ: إِنَّ يَمِينَهُ قَدْ قُطِعَتْ فَأَخَذَ اللِّوَاءَ بِيَسَارِهِ فَقُطِعَتْ فَاحْتَضَنَهُ حَتَّى لَقِيَ حَتْفَهُ.

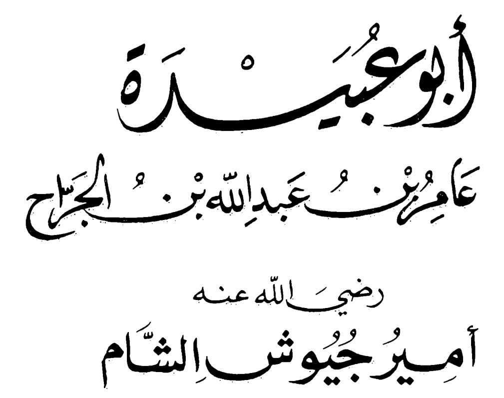
وَقَالَ لأَصْحَابِهِ وَهُوَ يَحْتَضِرُ: مَا فَعَلَ أَبُو حُذَيْفَةَ قِيلَ لَهُ قُتِلَ، قَالَ: فَأَضْجِعُونِي بِجَنْبِهِ.

وَقِيلَ: إِنَّ مِيْرَاثَهُ قَدْ أُرْسِلَ إِلَى ثُبَيْتَةَ فَرَفَضَتْ أَخْذَهُ، فَأُرْسِلَ إِلَى زَوْجِهِ فَأَبَتْ، فَوُضِعَ فِـي بَـيْتِ المَالِ.

قَالَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ لِعُمَرَ بن الخَطَّابِ بَعْدَ أَنْ طُعِنَ: أَمَـا إِنَّكَ لَوْ أَشَرْتَ بَرَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ لأَئْتَمَنَكَ النَّاسُ، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَائْتَمَنَهُ النَّاسُ، فَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُ مِنْ أَصْحَابِي حِرْصاً سَيِّئاً، وَإِنِّي جَاعِلٌ هَذَا الأَمْرَ إِلَى هَؤُلاَءِ النَّفَرِ السِّتَةِ. ثُمَ قَالَ: لَوْ أَدْرَكَنِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ، ثُمَّ جَعَلْتُ إِلَيْهِ الأَمْرَ لَوَثِقْتُ بِهِ، سَالِمُ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بَنِ الجَرَّاحِ.

بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ٢٧ -



«لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الأمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ ابنُ الجَرَّاحِ»

(حديث شريف)

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ لَوْ شِئْتُ لأَخَذْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ خُلُقِهِ إِلاَّ أَبَا عُبَيْدَةَ» .

(حديث شريف)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ والصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِاللَّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ أمابعد:

عُرِفَ أَبُو عُبَيْدَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَقَائِدٍ فَذٍّ، وَمَعَ هَذِهِ الشُّهْرَةِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا فَقَدْ طَغَتْ عَلَيْهِ شُهْرَةُ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لاتِّزَانِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَهُدُوئِهِ وَتَرَوِّيهِ، وَحَرَكِيَّةِ خَالِدٍ وَإِقْدَامِهِ، مَعَ اعْتِرَافِ خَالِدٍ لأَبِي عُبَيْدَةَ بِالفَضْلِ وَالقُدْرَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالقُوَّةِ.

لَقَدِ اخْتَلَفَتْ طَبِيعَةُ أَبِي عُبَيْدَةَ القِتَالِيَّةُ عَنْ طَبِيعَةِ خَالِدٍ، إِذْ كَانَ خَالِدُ كَثِيرَ الحَرَكَةِ، سَرِيعَ التَّنَقُّلِ، يُحْسِنُ المُنَاوَرَةَ فِي القِتَالِ، وَيُجِيدُ خِدَاعَ العَدُوِّ فِي الحَرْبِ عَلَى حِينِ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ ثَابِتاً فِي مَكَانِهِ لاَ يُزَحْزِحُهُ مِنْهُ جَيْشٌ كَامِلٌ، يَتَحَرَّكُ نَحْوَ هَدَفِهِ بِهُدُوءٍ وَتَخْطِيطٍ وَإِذَا تَقَدَّمَ لاَ يَتَرَاجَعُ وَلَوْ حَاوَلَتْ دَحْرَهُ

فِرْقَةٌ، وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ هِيَ الَّتِي أَبْرَزَتْ خَالِداً وَأَعْطَتْهُ شُهْرَتَهُ وَخَاصَّةً لَدَى الشَّبَابِ وَأَصْحَابِ العَاطِفَةِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ كَثْرَةَ الحَرَكَةِ فِي القِتَالِ وَيَتَأَثَّرُونَ بِهَا، وَيَشْتَرِكُ القَائِدَانِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالقُوَّةِ وَإِنْ كَانَتَا أَبْرَزَ عِنْدَ أَبِي عُبَيْدَةَ عَلَى عَكْسِ مَا يَظُنُّ الكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ تَحْتَ تَأْثِيرِ خَلْفِيَّةِ ثَقَافَةِ الشَّبَابِ وَعَوَاطِفِهِمْ فِي مَحَبَّةِ الحَرَكَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا.

وَفَضْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ عَلَى خَالِدٍ لِسَابِقَتِهِ فِي الإِسْلاَمِ، فَقَدْ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنْ أَوَائِلِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، وَمِنْ أَهْلِ بَدْرٍ عَلَى حِينِ كَانَ خَالِدُ لاَ يَزَالُ يَقِفُ فِي الصَّفِّ المُعَادِي لِلإِسْلاَمِ، هَذَا إِضَافَةً إِلَى أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ مِنَ العَشْرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ قَائِدَيْ المُسْلِمِينَ وَجَزَاهُمَا اللَّهُ أَحْسَنَ الجَزَاءِ فِيمَا بَذَلاَهُ فِي بِنَاءِ دَوْلَةِ الإِسْلاَمِ، وَأَرْجُو أَنْ أُوَفَّقَ فِي إِعْطَاءِ صُورَةٍ صَحِيحَةٍ عَنْ هَذَا البَطَلِ العَظِيمِ وَالقَائِدِ الفَذِّ أَبِي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ، رَضِيَ اللَّهِ عَنْهُ، لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْشَّبَابِ، وَلِيَسْتَفِيدُوا دُرُوساً مِنْ حَيَاتِهِ.

وَاللَّهَ نَسْأَلُ التَّوْفِيقَ وَسَدَادَ الخُطَا، وَالأَجْرَ مِنْ لَدُنْهِ، فَهُوَ وَلِيُّنَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

أَبُو عُبَيْدَةَ

عَامِرُ بنُ عَبْدِاللَّهِ بنِ الجَرَّاحِ مِنْ بَنِي فِهْرٍ أَحَدِ بُطُونِ قُرَيْشٍ وآخِرِهَا، وَيَلْتَقِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي فِهْرٍ، وَهُوَ قُرَيْشٌ. وَأُمُّهُ أُمَيمَةُ بِنْتُ غَنْمٍ.

وُلِدَ قَبْلَ البِعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِثلاَث عَشَرَة سَنَةً.

تَزَوَّجَ هِنْدَ بِنْتَ جَابِرِ بنِ وَهَبٍ العَامِرِيَّةَ، فَأَنْجَبَتْ لَهُ يَزِيداً وَعُمَيْراً وَقَدْ مَاتَا صَغِيرَيْنِ، وَلَيْسَ لأَبِي عُبَيْدَةَ عَقِبٌ.

كَانَ رَجُلاً نَحِيفاً، مَعْرُوقَ الوَجْهِ، خَفِيفَ اللِّحْيَةِ، طِوَالاً، أَحْنَى(١)، أَثْرَمَ الثَّنْيَتَيْنِ(٢).

رَوَى عِدَّةَ أَحَادِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

---

(١) أحنى: منحنياً نحو الصدر.

(٢) أثرم الثنيتين: مكسور الأسنان.

وَسَلَّمَ، لَهُ حَدِيثٌ وَاحِدٌ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَاثْنَا عَشَرَ حَدِيثاً فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ، وَخَمْسَةَ عَشَرَ حَدِيثاً فِي مُسْنَدِ بَقِيٍّ، وَحَدِيثٌ وَاحِدٌ فِي جَامِعِ أَبِي عِيسَى.

رَوَى عَنْهُ عَدَدٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْهُمْ: جَابِرُ بنُ عَبْدِاللَّهِ، وَالعِرْبَاضُ بنُ سَارِيَةَ، وَأَبُو أُمَامَةَ البَاهِلِيُّ، وَسَمُرَةُ بنُ جُنْدَبٍ، وَأَسْلَمُ مَوْلَى عُمَرَ، وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ غَنْمٍ. كَمَا رَوَى هُوَ عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ.

إِسْلامُ أَبِي عُبَيْدَةَ

كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنْ أَوَائِلِ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَقَدْ أَتَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ، وَعُثْمَانُ بنُ مَظْعُونٍ، وَأَبُو سَلَمَةَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِالأَسَدِ المَخْزُومِيُّ، وَعُبَيْدَةُ بنُ الحَارِثِ، فَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الإِسْلامَ، وَأَنْبَأَهُمْ بِشَرَائِعِهِ، فَأَسْلَمُوا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَارَ الأَرْقَمِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الأَرْقَمَ كَانَ مَعَهُمْ يَوْمَ أَسْلَمُوا وَأَسْلَمَ مَعَهُمْ.

وَمُنْذُ أَنْ أَسْلَمَ أَبُو عُبَيْدَةَ خَلَعَ كُلَّ مَا وَرِثَهُ مِنْ مُخَلَّفَاتِ الجَاهِلِيَّةِ، وَمَعَ طَبْعِهِ الهَادِيءِ، وَصَمْتِهِ الدَّائِمِ لَمْ يُسْمَعْ عَنْهُ خَبَرٌ، وَلَمْ يُلْفِتِ النَّظَرَ مَا أَصَابَهُ مِنْ أَذىً فِي سَبِيلِ إِسْلاَمِهِ. يُنَفِّذُ تَعَالِيمَ الإِسْلاَمِ بِشَكْلٍ دَقِيقٍ، وَيَتَقَيَّدُ بِأَوَامِرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِصُورَةٍ تَامَّةٍ.

يَتَلَقَّى بِأَدَبٍ، وَيَتَصَرَّفُ بِحُدُودِ مَا أُمِرَ، يُنْفِقُ بِصَمْتٍ، وَيُسَاعِدُ بِهُدُوءٍ. يَكُونُ أَوَّلَ المُتَطَوِّعِينَ، وَأَسْبَقَ المُنَفِّذِينَ. هَمُّهُ الطَّاعَةُ، وَحَيَاتُهُ الإِسْلاَمُ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَلاَ يُبَالِي بِهِ. وَقَضَى بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ مَا يَقْرُبُ مِنْ خَمْسِ سَنَوَاتٍ فِي مَكَّةَ وَهَذَا دَيْدَنُهُ.

فِي الحَبَشَةِ

وَلَمَّا اشْتَدَّ أَذَى المُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَصْحَابِهِ بِالهِجْرَةِ إِلَى الحَبَشَةِ، لِعَدْلِ مَلِكِهَا، وَبُعْدِهَا عَنْ أَرْضِ العَرَبِ، وَعَدَمِ نُفُوذِ وَسُلْطَانِ قُرَيْشٍ عَلَى أَهْلِهَا، وَرُبَّمَا كَانَ أَهْلُهَا أَخَفَّ وَطْأَةً عَلَى المُسْلِمِينَ لأَنَّهُمْ أَهْلَ كِتَابٍ، يَعْرِفُونَ اللَّهَ، وَقَدْ تَكُونُ آثَارُ الوِحْدَانِيَّةِ بَاقِيَةً عِنْدَ بَعْضِ رُهْبَانِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ،

وَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِالنَّبِيِّ الذي سَيَظْهَرُ آخِرَ الأيَّامِ فِي أَرْضِ العَرَبِ.

هَاجَرَ عَشَرَةٌ مِنَ المُسْلِمينَ فِي المَرَّةِ الأولَى وَعَلَيْهِمْ عُثْمَانُ بنُ مَظْعُونَ، ثُمَّ تَتَابَعَ المُسْلِمُونَ وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ. وَلَكِنْ لَمْ يَطُلْ بِهِمُ المَقَامُ لِأَسْبَابٍ كَثيرَةٍ، وَمِنْهَا مَا أُشِيعَ عَنْ إِسْلاَمِ أَهْلِ مَكَّةَ فَعَادَ عَدَدٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ لاَ يَزِيدُونَ عَلَى ثَلاَثَةٍ وَثَلاَثِينَ رَجُلاً، كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، هَادِئاً لاَ تَكَادُ تَحُسُّ أَنَّهُ مَعَهُمْ.

رَجَعَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى مَكَّةَ مُسْتَخْفِيَاً كَأَكْثَرِ إِخْوَانِهِ إِذْ لَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَكَّةَ إِلاَّ مُسْتَخْفِيَاً أَوْ بِجِوَارٍ، وَعَادَ يُعَانِي مَا كَانَ يُعَانِي مِنْ قَبْلُ، وَلَكنَّهُ مَعَ ذَلِكَ مَسْرُورٌ لِقُرْبِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمُلاَزَمَتِهِ إِيَّاهُ، وَتَلَقِّيهِ مِنْهُ، وَاسْتِمَاعِهِ إِلَيْهِ، وَبَقِيَ مَا يَزِيدُ عَلَى سَبْعِ سَنَوَاتٍ وَهَذِهِ حَالُهُ.

الهِجْرَةُ إِلَى المَدِينَةِ

بَعْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَصْحَابِهِ بِالهِجْرَةِ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ، وَانْتَقَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعَ مَنْ هَاجَرَ، وَنَزَلَ عَلَى كُلْثُومِ بنِ الهِدْمِ.

وَهَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، وَآخَـى بَيْنَ المُسْلِمِينَ، فَآخَى بَيْنَ أَبِي عُبَيْدَةَ وَبَيْنَ مُحَمَّدِ بن مَسْلَمَةَ وَفِي رِوَايَةٍ بَيْنَ أَبِي عُبَيْدَةَ وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ.

وَأُذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ بِالقِتَـالِ، وَانْطَلَقَـتِ السَّـرَايَا وَالغَـزَوَاتُ تَمْسَحُ أَرْضَ المَعْـرَكَةِ المُرْتَقَبَـةِ، وَشَارَكَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِخْوَانَهُ فِي هَذِهِ السَّرَايَا وَالغَزَوَاتِ، حَتَّى تَوَّجَتْ ذَلِكَ غَزْوَةُ بَدْرٍ.

فِي بَدْرٍ

وَخَرَجَ المُسْلِمُونَ إِلَى بَدْرٍ لِلِقَـاءِ عِيرِ أَبِـي سُفْيَانَ فَالتَقَـوْا بِقُرَيْشٍ القَادِمَةِ بِخُيَلائِهَا وَجَبَرُوتِهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَـدَرِهِ لِيُحِـقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ. وفي هذه المعركة الفاصلة سَقَطَتْ رَوَابِطُ القَرَابَـةِ، فَانْهَـارَتِ الأُبُـوَّةُ، وَزَالَـتِ البُنُوَّةُ، وَتَحَطَّمَتِ الأُخُوَّةُ فِي الدَّمِ وَالصِّلَةُ فِي النَّسَبِ وَالْتَقَى بِالسَّيْفِ الأَهْلُ مَعَ ذَوِيهِمْ وَالأَحِبَّـةُ مَعَ أَصْحَابِهِـمْ. وَانْطَلَـقَ عَبْدُاللَّهِ بنُ الجَرَّاحِ وَالِدُ أَبِي عُبَيْدَةَ يُفَتِّشُ عَن ابْنِهِ أَبِي عُبَيْدَةَ لَيُرْدِيهِ صَرِيعاً وَيَتَخَلَّصَ مِنْهُ بَلْ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ عَقِيدَتِهِ الَّتِي آذَاهُ بِهَا ـ حَسَبَ رَأْيِهِ، وَحَاوَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَامِرُ عَبَثاً الإِبْتِعَادَ عَنْ أَبِيهِ فَلَمْ يُفْلِحْ وَحَرَصَ عَلَى البُعْدِ عَنْ لِقَائِهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَمَا كَانَ إِلاَّ

أَنْ تَصَدَّى وَصَرَعَهُ لاَ يُبَالِي بِأَيَّةِ آصِرَةٍ مِنْ أَوَاصِرِ الدُّنْيَا فَالإِيمَانُ لاَ يَلْتَقِي مَعَ الشِّرْكِ مَهْمَا كَانَتْ وَشَائِجُ الدَّمِ بَيْنَهُمَا وَالإِسْلاَمُ لاَ يَجْتَمِعُ مَعَ الكُفْرِ مَهْمَا كَانَتْ رَوَابِطُ القَرَابَةِ تَجْمَعُ بَيْنَهُمَا، واسْتَعْلَى أَبُو عُبَيْدَةَ فِي إِيمَانِهِ، وَنَجَحَ فِي امْتِحَانِهِ، وَدَاسَ بِأَقْدَامِهِ صِلَةَ القُرْبَى الَّتِي دَفَنَهَا المُسْلِمُونَ يَوْمَذَاكَ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ إِنْ لَمْ تَكُنِ العَقِيدَةُ حَامِيَتَها وَمُرَسِّخَةً لَهَا. وَلَمْ يَكُنْ أَبُو عُبَيْدَةَ الَّذِي صَرَعَ أَشَدَّ النَّاسِ قَرَابَةً فِي الدَّمِ لَهُ فَقَدِ التَقَى وَجَهاً لِوَجْهٍ الأَبْنَاءُ مَعَ آبَائِهِمْ وَالإِخْوَةُ مَعَ إِخْوَتِهِمْ وَأَبْنَاءُ العَشِيرَةِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَأَفْرَادُ الأُسْرَةِ الوَاحِدَةِ كُلُّ قِسْمٍ مِنْهُمْ فِي جَانِبٍ، وَلاَ يَجْمَعُ أَفْرَادَ الجَانِبِ الوَاحِدِ إِلاَّ العَقِيدَةُ الَّتِي هِيَ أَسَاسُ كُلِّ صِلَةٍ وَمُنْطَلَقُ كُلِّ رَابِطَةٍ، وَعَلَى قَوَاعِدِهَا تَتَكَوَّنُ الأُمَمُ، وَتَجْتَمِعُ الشُّعُوبُ وَتَتَلاَقَى، وَتَتَمَايَزُ الأَفْرَادُ فَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ.

فِي أُحُدٍ

وَاسْتَدَارَ العَامُ عَلَى مَعْرَكَةِ بَدْرٍ فَزَحَفَتْ قُرَيْشٌ نَحْوَ المَدِينَةِ بِقُوَّاتٍ أَكْثَفَ وَجُمُوعٍ أَضْخَمَ وَعَتَادٍ أَقْوَى، مُجْمِعَةً عَلَى الإِنْتِقَامِ، وَمُصَمِّمَةً عَلَى الثَّأْرِ، وَخَرَجَ المُسْلِمُونَ لِلِقَائِهَا، وَكَانَ المُنَافِقُونَ عَامِلاً مُخَذِّلاً وَعُنْصُراً مُثَبِّطاً ثُمَّ انْسَحَبُوا مِنَ

الجَيْشِ الإِسْلاَمِيِّ تَارِكِينَ المُؤْمِنِينَ وَحْدَهُمْ عَلَى قِلَّةٍ يُلاَقُونَ المُشْرِكِينَ، وَلَمْ يُبَالِ المُسْلِمُونَ فَقَدِ ارْتَفَعَتْ مَعْنَوِيَّاتُهُمْ بَعْدَ أَنْ نَقى صَفُّهُمْ، وَانْتَفى مِنْهُمُ الخَبَثُ. وَرَتَّبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الصُّفُوفَ، وَوَضَعَ الرُّمَاةَ عَلَى الجَبَلِ فِي أَمَاكِنِهِمْ، وَأَعْطَى التَّعْلِيمَاتِ، وَأَمَرَ الرُّمَاةَ أَلاَّ يُغَادِرُوا مَوَاضِعَهُمْ مَهْمَا كَانَتِ النَّتَائِجُ. وَبَدَأَ القِتَالُ، وَالْتَحَمَتِ الصُّفُوفُ، وَاشْتَبَكَ المُقَاتِلُونَ، وَدَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى قُرَيْشٍ، وَوَلَّتِ الأَدْبَارَ، وَتَبِعَهَا المُسْلِمُونَ، وَظَهَرَ لِلنَّظَّارَةِ أَنَّ المَعْرَكَةَ قَدِ انْتَهَتْ وَخَذَلَ اللَّهُ قُرَيْشاً، فَتَرَكَ الرُّمَاةُ مَوَاضِعَهُمْ وَدَارَ خَالِدُ خَلْفَ الجَبَلِ وَحَلَّ مَحَلَّهُمْ فَوَقَعَ المُسْلِمُونَ بَيْنَ نَارَيْنِ وَانْقَسَمُوا فِرْقَتَيْنِ الأُولَى كَانَتْ تُلاَحِقُ المُشْرِكِينَ وَالأُخْرَى حَوْلَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَارْتَبَكَ الصَّفُّ الإِسْلاَمِيُّ وَهَجَمَتْ قُرَيْشٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالعُصْبَةِ الَّتِي حَوْلَهُ وَمِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعَلِيٌّ، وَأَبُو عُبَيْدَةُ، وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَالزُّبَيْرُ، وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَأَبُو دُجَانَةَ، وَأَبُو طَلْحَةَ، وَنُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ مَعَ زَوْجِهَا وَعَدَدٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى رَأْسِهِمْ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، وَقَتَادَةُ بنُ النُّعْمَانِ.

وَانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ، وَخَلَصَ الأَعْدَاءُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَمَاهُ عُتْبَةُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ فَكَسَرَ رُبَاعِيَّتَهُ اليُمْنَى السُّفْلَى، وَجَرَحَ شَفَتَهُ السُّفْلَى، وَشَجَّهُ عَبْدُاللَّهِ بنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ فِي جَبْهَتِهِ، وَجَرَحَ ابْنُ قُمَيْئَةَ وَجْنَتَهُ فَدَخَلَتْ حَلْقَتَانِ مِنْ حَلَقِ المِغْفَرِ[1] فِي وَجْنَتِهِ، وَوَقَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي حُفْرَةٍ مِنَ الحُفَرِ الَّتِي حَفَرَهَا أَبُو عَامِرٍ الفَاسِقُ. وَجَاءَ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ فَنَزَعَ إِحْدَى الحَلْقَتَيْنِ مِنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَقَطَتْ ثَنِيَّتُهُ، ثُمَّ نَزَعَ الأُخْرَى، فَسَقَطَتْ ثَنِيَّتُهُ الأُخْرَى فَكَانَ سَاقِطَ الثَّنِيَّتَيْنِ. وَصَعَدَ المُسْلِمُونَ بِرَسُولِهِمُ الكَرِيمِ الجَبَلَ، وَانْتَهَتِ المَعْرَكَةُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ الحَزِينَةِ.

وَشَهِدَ أَبُو عُبَيْدَةَ المَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَثَبَتَ يَوْمَ حُنَيْنٍ مَعَ مَنْ ثَبَتَ، وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ.

سَرِيَّةُ أَبِي عُبَيْدَةَ إِلَى بَنِي ثَعْلَبَةَ

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدَ بنَ

---

(١) المغفر: حَلَقٌ يَتَقَنَّعُ بِهِ المُتَسَلِّحُ.

مَسْلَمَةَ فِي سَرِيَّةٍ قِوَامُهَا عَشْرَةُ أَنْفَارٍ إِلَى ذِي القِصَّةِ مِنْ بِلاَدِ بَنِي ثَعْلَبَةَ لِلإِغَارَةِ عَلَيْهِمْ إِذْ كَانُوا يَحْشُدُونَ جُموعَهُمْ لِلإِغَارَةِ عَلَى المَدِينَةِ، وَيَنْوُونَ أَخْذَ إِبِلِ المُسْلِمِينَ، غَيْرَ أَنَّ الأَعْرَابَ قَدْ شَعَرُوا بِقُدُومِ مُحَمَّدِ بنِ مَسْلَمَةَ إِلَيْهِمْ فَكَمَنُوا لَهُ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ قَتْلِ المُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْ هَذِهِ السَّرِيَّةِ إِلاَّ أَمِيرُهَا الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ القَتْلَى جَرِيحاً فَظُنَّ أَنَّهُ مِنْهُمْ، فَعَادَ إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ أَنِ ارْتَحَلَ القَوْمُ عَنْهُمْ.

فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى رَأْسِ سَرِيَّةٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ أَرْبَعِينَ مُقَاتِلاً فِي الشَّهْرِ نَفْسِهِ وَهُوَ شَهْرُ رَبِيعٍ الثَّانِي مِنْ سَنَةِ سِتٍّ.

سَارَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِالسَّرِيَّةِ بَعْدَ صَلاَةِ المَغْرِبِ لَيْلَةَ السَّبْتِ، فَبَاتُوا لَيْلَتَيْنِ يَمْشُونَ حَتَّى وَافَوْا ذِي القِصَّةِ فِي جَنُوبِ شَرْقِيِّ المَدِينَةِ مَعَ عِمَايَةِ الصُّبْحِ، فَصَلُّوا الفَجْرَ، وَأَغَارُوا عَلَى القَوْمِ، فَفَرَّ الأَعْرَابُ فِي الجِبَالِ مُتَفَرِّقِينَ، وَتَمَكَّنَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنْ أَخْذِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، وَاسْتَاقَ إِبِلاً لَهُمْ، وَرِثَّةً مِنْ مَتَاعٍ وَعَادَ إِلَى المَدِينَةِ، فَأَسْلَمَ الرَّجُلُ، وَقَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الغَنَائِمَ بَيْنَ مُقَاتِلِي السَّرِيَّةِ، بَعْدَ أَنِ احْتَجَزَ خُمْسَهُ.

فِي ذَاتِ السَّلاَسِلِ

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَمْرو بن العَاصِ إِلَى قَبِيلَةِ بِلِيٍّ يَستَأْلِفُهُمْ حَيْثُ كَانتْ جَدَّتُهُ أُمُّ وَالِدِهِ العَاصِ بنِ وَائِلٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ يَسْتَنْفِرُهُمْ إِلَى الشَّامِ، فَلَمَّا كَانَ عَلَى مَاءٍ بِأَرْضِ جُذَامٍ، يُقَالُ لَهُ السُّلْسُل، وَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ تِلْكَ الغَزْوَةُ، غَزْوَةُ ذَاتِ السَّلاَسِلِ، فَلَمَّا كَانَ عَلَيْهِ خَافَ فَبَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْتَمِدُّهُ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ قُوَّةً مِنْ سَرَاةِ المُهَاجِرِينَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ وَقَالَ لَهُ حِينَ وَجَّهَهُ: لاَ تَخْتَلِفَا. فَخَرَجَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَنْ مَعَهُ حَتَّى قَدِمَ عَلَى عَمْرٍو، فَقَالَ عَمْرُو لأَبِي عُبَيْدَةَ: أَنَا الأَمِيرُ وَقَدْ جِئْتُمْ إِليَّ مَدَداً، قَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ: لاَ وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ، وَأَنْتَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ.

قَالَ عَمْرُو: بَلْ أَنْتَ مَدَدٌ إِلَيَّ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا عَمْرُو، إِنَّ رَسُولَ اللَّهَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِي: لاَ تَخْتَلِفَا، وَإِنَّكَ إِنْ عَصَيْتَنِي أَطَعْتُكَ.

قَالَ عَمْرُو: فَإِنِّي الأَمِيرُ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ مَدَدٌ لِي.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: فَدُونَكَ.

فَصَلَّى عَمْرُو بِالنَّاسِ .

لَقَدْ كَانَ أَمْرُ الدُّنْيَا هَيِّنَاً عَلَى أَبِـي عُبَيْدَةَ، فَلَـمْ يَرْغَـبْ فِي الإِمَارَةِ، وَلَمْ يَعْمَلْ لَهَا، وَلاَ يُرِيدُ المُنَازَعَةَ فِي أَمْرٍ لاَ يَعُودُ عَلَى المُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ، وَلاَ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ حُكْمٌ. لَقَدْ صَغُرَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ فَعَظُمَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ .

وَبَلَغَ عَدَدُ المُسْلِمِينَ خَمْسَمِائَةِ مُقَاتِلٍ بَعْدَ أَنْ وَصَـلَ مَدَدُ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَسَـارُوا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ حَتَّـى وَطِئُـوا بِلاَدَ بِلِـيٍّ وَدَوَّخُوهَا، وَكُلَّمَا انْتَهَوْا إِلَى مَوْضِعٍ بَلَغَهُمْ أَنَّهُ قَدْ كَانَ بِهَـذَا المَوْضِعِ جَمْعٌ فَلَمَّا سَمِعُوا بِهِمْ تَفَرَّقُوا، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى أَقْصَى بِلاَدِ بِلِيٍّ وَعَذْرَةَ وَبِلْقِينَ، ثُمَّ الْتَقَوْا بِجَمْعٍ لَيْسَ بِالكَثِيرِ فَاقْتَتَلُوا سَاعَةً، وَحَمَلَ المُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَتَفَرَّقَ الأَعْدَاءُ فِي البِلاَدِ، وَأَقَامَ عَمْرٌو أَيَّاماً لاَ يَسْمَعُ لَهُمْ بِجَمْعٍ وَلاَ مَكَانٍ صَارُوا فِيْهِ، وَكَانَ يَبْعَثُ أَصْحَابَ الخَيْلِ فَيَأْتُونَ بِالشَّاءِ وَالإِبِلِ ، فَكَانُوا يَذْبَحُونَ وَيَنْحَرُونَ، وَلَمْ يَكُنْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَمْ تَكُنْ غَنَائِمُ تُقَسَّمُ. وَرَجَعُوا بَعْدَهَا إِلَى المَدِينَةِ.

سَرِيَّةُ أَبِي عُبَيْدَةَ إِلَى سَاحِلِ البَحْرِ

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَمَاعَةً عَدَدُهُمْ

ثَلاثُمِائَةِ رَجُلٍ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ. قَالَ جَابِرُ: وَأَنا فِيهِمْ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَنِيَ الزَّادُ، فَأَتَوْا أَبَا عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادِ ذَلِكَ الجَيْشِ، فَجَمَعَ كُلَّهُ فِي مِزْوَدِ تَمْرٍ، فَكَانَ يَقُوتُنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلاً قَلِيلاً حَتَّى فَنِيَ، وَلَمْ يَكُنْ يُصِيبُنَا إِلاَّ تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَمَا تُغْنِي التَّمْرَةُ؟ فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدُهَا حِينَ فَنِيَتْ. قَالَ: ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى البَحْرِ فَإِذَا حُوتٌ مِثْلَ الظَّرِبِ، قَالَ: فَأَكَلَ مِنْهُ ذَلِكَ الجَيْشُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ لَيْلَةً.

وَقَدِ اضْطَرَّ أَفْرَادُ هَذِهِ السَّرِيَّةِ أَنْ يَأْكُلُوا وَرَقَ الشَّجَرِ، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِالخَبَطِ، إِذْ يُنْفَضُ بِالمَخَابِطِ وَيُجَفَّفُ وَيُطْحَنُ لِذَا سُمِّيَتِ السَّرِيَّةُ (سَرِيَّةُ الخَبَطِ) أَوْ جَيْشُ الخَبَطِ.

وَكَانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَدَ أَفْرَادِ هَذِهِ السَّرِيَّةِ.

مَعَ وَفْدِ نَجْرَانَ

وَفِي عَامِ الوُفُودِ العَامِ التَّاسِعِ لِلْهِجْرَةِ كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كِتَابَاً إِلَى أَهْلِ نَجْرَانَ يَدْعُوهُمْ فِيهِ إِلَى الإِسْلَامِ؛ فَلَمَّا قَرَؤُوهُ بَعَثُوا وَفْداً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّم ، فِي المَدِينَةِ، فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّـهِ، وَسَأَلَهُمْ، وَكَانُوا سِتِّينَ رَاكِبَاً، مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، فِيهِمْ أَبُو حَارِثَةَ ـ أُسْقُفُهُمْ وَحِبْرُهُمْ ـ وَكَانَتْ مُلُوكُ الرُّوم قَدْ شَرَّفُوهُ، وَمَوَّلُوهُ، وَأَخدَمُوهُ، وَبَنُوا لَهُ الكَنَائِسَ.

وَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يُبَاهِلَهُمْ، فَأَبَى كِبَارُهُمْ ذَلِكَ، وَخَافُوا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَتَوْهُ، فَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابَاً، وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الخَرَاجَ. ثُمَّ قَالَ أُسْقُفَا نَجْرَانَ: العَاقِبُ وَالسَّيِّدُ: ابْعَثْ مَعَنَا أَمِينَاً حَقَّ أَمِينٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلاً أَمِينَاً حَقَّ أَمِينٍ» فَاسْتَشْرَفَ لَهَا النَّاسُ، فَقَالَ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ» فَأَرْسَلَهُ مَعَهُمْ. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ».

فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ

لَمَّا انْتَقَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ، وَشَعَرَ الأَنْصَارُ أَنَّهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى خَلِيفَةٍ مِنْهُمْ يَتَوَلَّى شُؤُونَ مَدِينَتِهِمْ وَأَمْرَ المُسْلِمِينَ، فَمَدِينَتُهُمْ مُهَدَّدَةٌ مِنَ الأَعْرَابِ وَرِجَالِ القَبَائِلِ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ إِلَى

قُلُوبِهِمْ وَإِنَّمَا أَسْلَمُوا خَوْفاً مِنَ القُوَّةِ.

شَعَرَ الأنْصَارُ أَنَّهُمْ مُهَدَّدُونَ قَبْلَ غَيْرِهِمْ لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَآوَوْا المُسْلِمِينَ مِنْ مَكَّةَ، وَأَنَّ مَدِينَتَهُمْ قَاعِدَةَ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَشَعَرُوا أَنَّ المُهَاجِرِينَ رُبَّمَا رَجَعُوا إِلَى مَكَّةَ وَقَدْ أَسْلَمَتْ مَدِينَتُهُمْ وَدَانَ بِالإِسْلاَمِ ذَوُوهُمْ، وَقَدْ فَكَّرُوا بِهَذَا بَعْدَ الفَتْحِ مُبَاشَرَةً، مِنْ هُنَا كَانَ تَفْكِيرُ الأنْصَارِ بِشُؤُونِ الدَّوْلَةِ أَكْثَرَ مِنَ المُهَاجِرِينَ - حَسْبَمَا تَصَوَّرُوا -.

وَكَانَ المُهَاجِرُونَ مَشْغُولِينَ بِوَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَجْهِيزِهِ وَدَفْنِهِ لِذَا لَمْ يُفَكِّرُوا بَعْدُ بِشُؤُونِ خَلِيفَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالعَمَلِ لِحِمَايَةِ المَدِينَةِ وَالدَّوْلَةِ، وَلَمْ يكُنِ الأنْصَارُ فِي بُعْدٍ عَنْ هَذَا أَيْضاً.

اجْتَمَعَ الأنْصَارُ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ وَبَايَعُوا أَحَدَ وُجَهَائِهِمْ وَهُوَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ مِنَ الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ، وَسَعْدٌ سَيِّدُ الخَزْرَجِ.

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى جَانِبِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، حَيْثُ المُسْلِمُونَ مُجْتَمِعُونَ يَعْمَلُونَ لِدَفْنِ رَسُولِ اللَّهِ، وَنَادَى مِنْ وَرَاءِ الجِدَارِ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فَرَفَضَ عُمَرُ الخُرُوجَ فِي بِدَايَةِ الأمْرِ، ثُمَّ كَرَّرَ الرَّجُلُ النِّدَاءَ وَأَعْلَمَهُ عَنِ الاجْتِمَاعِ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَانْطَلَقَا إِلَيْهِمْ، وَالْتَقَيَا بِأَبِي عُبَيْدَةَ بن الجَرَّاحِ فِي الطَّرِيقِ فَسَارَ مَعَهُمَا. ثُمّ الْتَقَوْا مَعَ رَجُلَيْنِ مِنَ الأنْصَارِ هُمَا: عُوَيْمُ بنُ سَاعِدَةَ وَمَعْنُ بنُ عَدِيٍّ، فَقَالاَ: مَا عَلَيْكُمْ مِنَ الأنْصَارِ، لاَ يَكُونُ إلاَّ مَا تُحِبُّونَ وَلَكِنْ أَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ. غَيْرَ أَنَّ المُهَاجِرِينَ الثَّلاَثَةَ تَابَعُوا السَّيْرَ وَدَخَلُوا عَلَى سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَالنَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ، فَجَرَتْ كَلِمَاتٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ كَانَ الهَدَفُ مِنْهَا الحِرْصَ عَلَى حِمَايَةِ الدَّوْلَةِ وَالمُسْلِمِينَ، وَتَرَاجَعَ الأنْصَارُ عَنْ موقِفِهِمْ عِنْدَمَا عَلِمُوا أَنَّ المُهَاجِرِينَ سَيَبْقَوْنَ فِي المَدِينَةِ غَيْرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ رَأَى أَنْ يَكُونَ أَمِيرٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ يَعْقِبُهُ آخَرُ مِنَ الأنْصَارِ وَهَكَذَا، فَوَقَفَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، إِنَّكُمْ أَوَّلُ مَنْ نَصَرَ وَآزَرَ، فَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ، فَرَضِيَ الأنْصَارُ بِإِمْرَةِ المُهَاجِرِينَ.

أَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَبِيَدِ عُمَرَ وَقَالَ: قَدْ رَضِيتُ لَكُمْ

أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، فَبَايِعُوا أَيَّهُمَا شِئْتُمْ ، فَقَالاَ : لاَ يَنْبَغِي لأِحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنْ يَكُونَ فَوْقَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَنْتَ صَاحِبُ الغَارِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، وَثَانِيَ اثْنَيْنِ ، وَأَمَرَكَ رَسُولُ اللَّهَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حِينَ اشْتَكَى فَصَلَّيْتَ بِالنَّاسِ ، فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ.

فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِ أَبِي بَكْرٍ وَبَايَعَهُ، وَتَسَابَقَ النَّاسُ عَلَى البَيْعَةِ، فَبَايَعَ كُلُّ مَنْ فِي السَّقِيفَةِ بِاسْتِثْنَاءِ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، لِحَرَاجَةِ مَوْقِفِهِ وَسُوءِ صِحَّتِهِ.

لَمْ يَكُنْ تَرْشِيحُ أَبِي بَكْرٍ لِعُمَرَ وَأَبِي عُبَيْدَةَ مِنْ بَابِ المُجَامَلَةِ وَالتَّوَاضُعِ وَإِنَّمَا مِنْ بَابِ الأَهْلِيَّةِ وَالاعْتِرَافِ بِالفَضْلِ لَهُمَا، فَعُمَرُ مَعْرُوفٌ بِمَكَانَتِهِ، وَكَذَلِكَ أَبُو عُبَيْدَةَ، فَسَابِقَتُهُ فِي الإِسْلاَمِ ، وَشَجَاعَتُهُ، وَطَاعَتُهُ، وَدَوْرُهُ، وَقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْهُ أَنَّهُ أَمِينُ الأُمَّةِ، وَإِرْسَالُهُ مَعَ وَفْدِ نَجْرَانَ، وَتَسْلِيمُهُ إِمْرَةَ السَّرَايَا الَّتِي تَضُمُّ سَرَاةَ المُهَاجِرِينَ وَمِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَوَفَاةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ كُلُّ هَذَا يُؤَهِّلُهُ لِيَتَسَلَّمَ خِلاَفَةَ المُسْلِمِينَ، إِضَافَةً إِلَى أَنَّهُ أَحَدُ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ.

فِي خِلاَفَةِ الصِّدِّيقِ

لَمَّا انْتَهى الصِّدِّيقُ مِنْ حُرُوبِ الرِّدَّةِ، وَجَّهَ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ إِلَى العِرَاقِ ، ثُمَّ عَبَّأَ الجُيُوشَ إِلَى الشَّامِ فِي مَطْلَعِ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ عَشْرَةَ، فَكَانَتْ أَرْبَعَةَ جُيُوشٍ يَقُودُهَا :

١ ـ يَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَوِجْهَتُهُ دِمَشْقُ، ثُمَّ أَمَدَّهُ الصِّدِّيقُ بِأَخِيهِ مُعَاوِيَةَ بِجُنْدٍ كَثِيرٍ، وَمَرَّ عَلَى ذِي المَرْوَةِ فِي وَادِي القُرَى وَأَخَذَ بَعْضَ مَنْ بَقِيَ مِنْ جُنْدِ خَالِدِ بنِ سَعِيدٍ بَعْدَ أَنْ تَرَاجَعَ أَمَامَ الرُّومِ فِي مَرْجِ الصُّفَّرِ.

٢ ـ عَمْرُو بنُ العَاصِ : وَوِجْهَتُهُ فِلِسْطِينُ.
٣ ـ شُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ : وَوِجْهَتُهُ الأُرْدُنُ.
٤ ـ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ : وَوِجْهَتُهُ حِمْصُ.

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ أَمِيرَ الجَمِيعِ عِنْدَمَا يَلْتَقُونَ وَيَدْخُلُونَ الحَرْبَ مَعاً.

وَجَاءَتْ جُيُوشُ الرُّومِ بِأَعْدَادٍ تَزِيدُ عَلَى أَرْبَعِينَ وَمائَتَي أَلْفٍ عَلَى حِيْنَ أَنَّ عَدَدَ المُسْلِمِينَ لاَ يَزِيدُ عَلَى وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ وَيُضَافُ إِلَيْهِمْ سِتَّةُ آلاَفٍ مَعَ عِكْرِمَةَ بنِ أَبِي جَهْلٍ رِدْفاً لِلْجُيُوشِ وَفِي مُؤَخِّرَتِهِمْ.

تَشَاوَرَ الأمَرَاءُ وَاتَّفقُوا أَنْ يُقَاتِلُوا مُجْتَمِعِينَ، وَكَتَبُوا إِلَى الصِّدِّيقِ يُعْلِمُونَهُ بِرأْيِهِمْ وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ المَدَدَ، وَاتَّفَقُوا عَلَى مَوْقِعِ اليَرْمُوكِ لِيَكُونَ مَيْدَانَ القِتَالِ. وَكَتَبَ الصِّدِّيقُ إِلَى خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ بِالعِرَاقِ يَأْمُرُهُ بِالسَّيْرِ إِلَى اليَرْمُوكِ لِدَعْمِ المُسْلِمِينَ هُنَاكَ.

وَصَلَ خَالِدٌ وَتَسَلَّمَ الإِمْرَةَ، وَوَزَّعَ القِيَادَةَ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ قَائِدَ القَلْبِ، وَيُعَاوِنُهُ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ، ثُمَّ طَلَبَ خَالِدٌ مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنْ يَكُونَ فِي المُؤَخَّرَةِ حَتَّى لاَ يَتَرَاجَعَ أَحَدٌ خَجَلاً مِنْهُ. وَنَشِبَ القِتَالُ وَأَمِيرُ المُسْلِمِينَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ. وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَصَلَ مَحْمِيَّةُ بنُ زَنِيمٍ يَحْمِلُ البَرِيدَ، وَسَلَّمَهُ إِلَى خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ وَفِيهِ خَبَرُ وَفَاةِ الصِّدِّيقِ، وَتَوْلِيَةِ عُمَرَ، وَعَزْلِ خَالِدٍ، وَقِيَادَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ. وَسُئِلَ خَالِدٌ عَمَّا حَمَلَ البَرِيدُ، قَالَ: السَّلاَمَةُ وَقُرْبَ وُصُولِ الإِمْدَادِ. إِذْ لَمْ يُرِدْ أَنْ يُشْغِلَ المُسْلِمِينَ بِالحُزْنِ عَلَى خَلِيفَتِهِمُ الصِّدِّيقِ، وَالحَدِيثِ عَنْ عُمَرَ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ، وَخَالِدٍ، فَتَحْقِيقُ النَّصْرِ هُوَ المَطْلُوبُ، وَالقِيَادَةُ أَمْرٌ ثَانَوِيٌّ لاَ تُهِمُّ المُسْلِمَ، فَهُوَ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لاَ فِي سَبِيلِ الدُّنْيَا وَتَحْقِيقِ بَعْضِ المَغَانِمِ، وَلاَ مِنْ أَجْلِ الشُّهْرَةِ وَتَسَلُّمِ المَنَاصِبِ.

وَلَمَّا تَقَارَبَ الطَّرَفَانِ بَعْضُهُمَا مِنْ بَعْضٍ تَقَدَّمَ أَبُو عُبَيْدَةَ، وَيَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَمَعَهُمَا ضِرَارُ بنُ الأَزْوَرِ، وَالحَارِثُ بنُ هِشَامٍ، وَأَبُو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو، وَنَادَوْا: إِنَّمَا نُرِيدُ أَمِيرَكُمْ لِنَجْتَمِعَ بِهِ، فَأُذِنَ لَهُمْ فِي الدُّخُولِ عَلَى تَذَارُقٍ، وَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي خَيْمَةٍ مِنْ حَرِيرٍ. فَقَالَ الصَّحَابَةُ: لاَ نَسْتَحِلُّ دُخُولَهَا، فَأَمَرَ لَهُمْ بِفَرْشِ بُسُطٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَقَالُوا: لاَ نَجْلِسُ عَلَى هَذِهِ، فَجَلَس مَعَهُمْ حَيْثُ أَحَبُّوا. وَهَكَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لاَ يَقْبَلُونَ الإِسْتِهَانَةَ بِشَيْءٍ مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ مَهْمَا قَلَّ، وَمَعَ أَنَّ لِبْسَ الحَرِيرِ لَيْسَ فِي مَوْقِفِهِمْ هَذَا، وَهُوَ المُحَرَّمُ عَلَيْهِمْ، إِلاَّ أَنَّهُمْ رَغِبُوا أَنْ يَأْخُذُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشِّدَّةِ، وَرَفْضِ هَذِهِ الأُمُورِ وَأَمْثَالِهَا، وَهَذَا مَا جَعَلَهُمْ يَعْظُمُونَ فِي أَعْيُنِ أَعْدَائِهِمْ، فَيُسَايِرُونَهُمْ، وَيَرْتَفِعُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ، الأَمْرُ الَّذِي وَضَعَهُمْ حَيْثُ وَضَعُوا هُمْ أَنْفُسَهُمْ، وَتَمَيَّزُوا بِشَخْصِيَّتِهِمْ فَكَانَ لَهُمْ مَا تَمَنَّوا. وَعَرَضَ الصَّحَابَةُ عَلَى الأَعْدَاءِ الإِسْلاَمَ، أَوِ الجِزْيَةَ، أَوِ السَّيْفَ، وَكَانَ مِنْ تَعَنُّتِ الرُّومِ وَطُغْيَانِهِمْ أَنْ كَانَ لاَ بُدَّ مِنَ القِتَالِ.

وَفِي اليَوْمِ الخَامِسِ مِنَ القِتَالِ خَرَجَ (غِرِيغُورِي) قَائِدُ مَيْمَنَةِ الرُّومِ، وَطَلَبَ المُبَارَزَةَ، فَخَرَجَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ، وَحَاوَلَ

خَالِدُ وَغَيْرُهُ أَنْ يَثْنِيَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَنِ المُبَارَزَةِ وَيَتَقَدَّمَ لَهَا خَالِدُ، وَلَكِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ أَصَرَّ، وَتَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِ غِرِيغُورِي فَارْتَفَعَتْ مَعْنَوِيَّاتُ المُسْلِمِينَ. وَمَا انْتَهَى ذَلِكَ اليَوْمُ إِلاَّ وَفَرَّ الرُّومُ مُخَلِّفِينَ وَرَاءَهُمْ خَمْسَةً وَثَلاثِينَ أَلْفَ قَتِيلٍ فِي مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ.

وَعِنْدَمَا انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ سَلَّمَ خَالِدُ القِيَادَةَ لأَبِي عُبَيْدَةَ وَمَا جَاءَهُ مِنَ البَرِيدِ، وَعَزَّى المُسْلِمِينَ بِأَبِي بَكْرٍ، وَأَعْلَمَهُمْ بِتَوْلِيَةِ عُمَرَ.

فِي خِلاَفَةِ عُمَرَ

تَابَعَ المُسْلِمُونَ مَنْ فَرَّ مِنَ الرُّومِ فَصَالَحَ أَهْلُ دِمَشْقَ وَأَهْلُ حِمْصَ المُسْلِمِينَ. أَمَّا أَبُو عُبَيْدَةَ فَقَدِ انْتَقَلَ بِبَقِيَّةِ الجَيْشِ مِنَ اليَرْمُوكِ إِلَى مَرْجِ الصُّفَّرِ، وَجَاءَهُ الخَبَرُ أَنَّ الرُّومَ قَدْ تَجَمَّعُوا فِي فِحْلَ بِغَوْرِ الأُرْدُنِ، وَأَنَّ قُوَّاتٍ مِنَ الرُّومِ قَدْ عَادَتْ إِلَى حِمْصَ وَدِمَشْقَ فَتَوَقَّفَ لاَ يَدْرِي بِأَيِّ الجَبْهَتَيْنِ يَبْدَأُ، فَكَتَبَ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ يَسْتَشِيرُهُ، وَيَصِفُ لَهُ المَوْقِفَ، فَجَاءَهُ الجَوَابُ بِأَنْ يَبْدَأَ بِدِمَشْقَ فَإِنَّهَا حِصْنُ الشَّامِ وَبَيْتُ مَمْلَكَتِهِمْ. وَأَنْ يُشَاغِلَ أَهْلَ فِحْلَ بِخُيُولٍ تَكُونُ تِلْقَاءَهُمْ، فَإِنْ فَتَحَهَا اللَّهُ قَبْلَ دِمَشْقَ فَذَلِكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ فُتِحَتْ دِمَشْقُ قَبْلَهَا فَسِرْ

أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ، وَاسْتَخْلِفْ عَلَى دِمَشْقَ، فَإِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِحْلَ فَسِرْ أَنْتَ وَخَالِدُ إِلَى حِمْصَ، وَاتْرُكْ عَمْراً وَشُرَحْبِيلَ عَلَى الأَرْدُنِ وَفِلِسْطِينَ.

أَرْسَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَبَا الأَعْوَرِ السُّلَمِيَّ إِلَى طَبَرَيَّا لِيَفْتَحَهَا، وَلِيَكُونَ رِدْءاً لِلْمُسْلِمِينَ المُتَّجِهِينَ إِلَى دِمَشْقَ، وَحَائِلاً دُونَ وُصُولِ إِمْدَادَاتٍ رُومِيَّةٍ إِلَى دِمَشْقَ الَّتِي نَقَضَ أَهْلُهَا الصُّلْحَ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا أَنَّ الرُّومَ لاَ تَزَالُ لَهُمْ قُوَّةٌ فِي المَنَاطِقِ الجَنُوبِيَّةِ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ أَهْلُ حِمْصَ.

سَارَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِاتِّجَاهِ دِمَشْقَ، وَقَدْ جَعَلَ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ فِي القَلْبِ، وَسَارَ هُوَ فِي المَيْسَرَةِ، وَعَمْرُو بنُ العَاصِ فِي المَيْمَنَةِ، وَكَانَ عِيَاضُ بنُ غَنْمٍ عَلَى الخَيْلِ، وَشُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ عَلَى الرِّجَالَةِ. وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ بَعَثَ ذَا الكِلاَعِ لِيَكُونَ فِي فِرْقَةٍ بَيْنَ دِمَشْقَ وَحِمْصَ لِتَحُولَ دُونَ وُصُولِ إِمْدَادَاتٍ إِلَى دِمَشْقَ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ، كَمَا بَعَثَ أَبَا الدَّرْدَاءِ فِي فِرْقَةٍ أُخْرَى لِتَكُونَ فِي بَرْزَةَ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ دِمَشْقَ رِدْءاً لِلْجَيْشِ الإِسْلاَمِيِّ الَّذِي يَقُومُ بِحِصَارِ مَدِينَةِ دِمَشْقَ. وَبَعَثَ أَمَامَهُ طَلِيعَةً بِإِمْرَةِ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ. وَاسْتَخْلَفَ عَلَى مَنْطِقَةِ اليَرْمُوكِ بَشِيرِ بنِ كَعْبٍ فِي خَيْلٍ هُنَاكَ

انْطَلَقَ الجَيْشُ الإِسْلاَمِيُّ نَحْوَ دِمَشْقَ فَدَخَلَ الغُوطَةَ وَاحْتَلَّهَا كَيْ لاَ يَأْمَلَ أَهْلُ دِمَشْقَ بِمُسَاعَدَاتٍ وَتَمْوِينَاتٍ مِنْهَا، ثُمَّ حَاصَرَ دِمَشْقَ فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي الغَرْبِ عَلَى بَابِ الجَابِيَةِ، وَيَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى البَابِ الصَّغِيرِ فِي الجَنُوبِ، وَعَمْرُو بنُ العَاصِ عَلَى بَابِ تُومَا، وَشُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ عَلَى بَابِ الفَرَادِيسِ (المَنَاخْلِيَّةِ) وَبَابَ السَّلاَمِ. وَاسْتَمَرَّ الحِصَارُ عِدَّةَ أَشْهُرٍ. وَاسْتَطَاعَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ أَنْ يَقْتَحِمَ المَدِينَةَ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ بَعْدَ أَنْ تَسَلَّقَ عَدَدٌ مِنْ رِجَالِهِ الأَسْوَارَ، وَقَتَلُوا الحُرَّاسَ، وَفَتَحُوا البَابَ. فَأَسْرَعَ بَعْضُ رِجَالِ دِمَشْقَ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ وَعَقَدُوا مَعَهُ الصُّلْحَ وَتَسْلِيمَ المَدِينَةِ، وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ بَعْدُ أَنَّ خَالِداً قَدِ اقْتَحَمَهَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ، وَهَكَذَا كَانَ دُخُولُ دِمَشْقَ نِصْفُهُ عُنْوَةً، وَنِصْفُهُ صُلْحاً.

بَعْدَ فَتْحِ دِمَشْقَ وَجَّهَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَمْرَو بنَ العَاصِ إِلَى فِلِسْطِينَ، وَشُرَحْبِيلَ بنَ حَسَنَةَ إِلَى الأُرْدُنِ، وَأَبَا الزَّهْرَاءِ القُشَيْرِيَّ إِلَى حَوْرَانَ فَصَالَحَ أَهْلَهَا، وَسَيَّرَ جُنْدَ العِرَاقِ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَ خَالِدٍ إِلَى العِرَاقِ ثَانِيَةً بِإِمْرَةِ هَاشِمِ بنِ عُتْبَةَ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَيَّرَ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ إِلَى البِقَاعِ فَصَالَحَ أَهْلَهَا. وَوَلَّى عَلَى دِمَشْقَ يَزِيدَ بنَ أَبِي سُفْيَانَ. وَسَارَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى

الشَّمَالِ فَلَمَّا وَصلَ إِلَى ثَنْيَةِ العِقَابِ بَلَغَهُ تَجَمُّعَ الرُّومِ فِي مَنْطِقَةِ الصَّبُّورَةِ غَرْبِ دِمَشْقَ (مَرْجِ الرُّومِ) فَسَارَ إِلَيْهِمْ، وَجَاءَهُمْ خَالِدٌ مِنْ الخَلْفِ، فَلَمْ يَنْجُ مِنَ الرُّومِ إِلاَّ مَنْ شُرِّدَ، وَقَتَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَحَدَ بَطَارِقَتِهِمْ وَهُوَ (شَنس)، وَقَتَلَ خَالِدُ البَطْرِيقَ (تُوذْرَا) وَهُوَ قَائِدُ الرُّومِ يَوْمَذَاكَ.

وَسَارَ أَبُو عُبَيْدَةَ نَحْوَ حِمْص وَحَاصَرَهَا، وَلَحِقَهُ خَالِدُ وَشَارَكَ أَبَا عُبَيْدَةَ فِي الحِصَارِ، حَتَّى اسْتَسْلَمَتْ فَأَرْسَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِالبِشَارَةِ وَخُمْسِ الغَنَائِمِ مَعَ عَبْدِاللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ.

أَرْسَلَ يَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى تَدْمُرٍ دِحْيَةَ الكَلْبِيَّ فَدَخَلَهَا، وَدَخَلَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ قِنَّسْرِينَ بِتَوْجِيهِ أَبِي عُبَيْدَةَ.

أَمَرَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ عَمْرَو بنَ العَاصِ بِالسَّيْرِ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، فَانْتَصَرَ عَلَى الرُّومِ فِي أَجْنَادِينَ، ثُمَّ سَارَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ فَوَجَدَ مُقَاوَمَةً عَنِيفَةً الأَمْرَ الَّذِي جَعَلَ الجُيُوشَ الإِسْلاَمِيَّةَ تَضْطَرُّ إِلَى التَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ لِلْقِتَالِ مُجْتَمِعَةً مَرَّةً ثَانِيَةً.

كَانَ عَمْرُو بنُ العَاصِ قَدْ طَلَبَ نَجْدَةً مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ،

فَسَارَ بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ، وَوَصَلَ إِلَى الجَابِيَةِ. غَيْرَ أَنَّ المُسْلِمِينَ كَانُوا قَدِ انْتَصَرُوا فِي أَجْنَادِينَ ـ بِإِذْنِ اللَّهِ ـ. وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ قَدْ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ إِيلِيَاءَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الإِسْلَامِ، أَوْ يَبْذِلُونَ الجِزْيَةَ، أَوْ يُؤْذَنُوا بِحَرْبٍ، فَأَبَوْا أَنْ يُجِيبُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، فَرَكِبَ إِلَيْهِمْ فِي جُنُودٍ، واستَخْلَفَ عَلَى دِمَشْقَ سَعِيدَ بنَ زَيْدٍ. كَمَا سَارَتْ بَقِيَّةُ الأُمَرَاءِ بِمَنْ مَعَهَا مِنَ الجُنُودِ، وَحَاصَرُوا بَيْتَ المَقْدِسِ، وَضَيَّقُوا عَلَى أَهْلِهِ حَتَّى أَجَابُوا إِلَى الصُّلْحِ، بِشَرْطِ أَنْ يَقْدُمَ عَلَيْهِمْ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فَكَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى عُمَرَ يُخْبِرُهُ بِالأَمْرِ فَاسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ، وَسَارَ إِلَى الشَّامِ، وَمَعَهُ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الشَّامِ تَلَقَّاهُ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأُمَرَاءُ الأَجْنَادِ، فَتَرَجَّلَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَتَرَجَّلَ عُمَرُ، فَأَشَارَ أَبُو عُبَيْدَةَ لِيُقَبِّلَ يَدَ عُمَرَ، فَهَمَّ عُمَرُ بِتَقْبِيلِ رِجْلِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَكَفَّ أَبُو عُبَيْدَةَ فَكَفَّ عُمَرُ[1] ـ اللَّهُ أَكْبَرُ مَا أَفْضَلَ الكَبِيرَ عِنْدَمَا يَتَوَاضَعُ، وَمَا أَكْرَمَهُ عِنْدَمَا يَعْرِفُ مَكَانَةَ أَهْلِ الفَضْلِ وَحَقِّهِمْ ـ.

وَصَالَحَ عُمَرُ نَصَارَى بَيْتِ المَقْدِسِ وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ إِجْلَاءَ الرُّومِ إِلَى ثَلَاثٍ. ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ مِنَ البَابِ الَّذِي دَخَلَ مِنْهُ

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٢.

رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ.

وَقَالَ عُمَرُ لأَبِي عُبَيْدَةَ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى مَنْزِلِكَ، قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ عِنْدِي؟ مَا تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تُعَصِّرَ عَيْنَيْكَ عَلَيَّ. وَدَخَلَ عُمَرُ مَنْزِلَ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَلَمْ يَرَ شَيْئاً، قَالَ: أَيْنَ مَتَاعُكَ؟ لاَ أَرَى إِلاَّ لِبْداً وَصَحْفَةً وَشَنّاً وَأَنْتَ أَمِيرٌ، أَعِنْدَكَ طَعَامٌ؟ فَقَامَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى جَوْنَةٍ، فَأَخَذَ مِنْهَا كُسَيْرَاتٍ، فَبَكَى عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ: قَدْ قُلْتُ لَكَ: إِنَّكَ سَتُعَصِّرُ عَيْنَيْكَ عَلَيَّ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، يَكْفِيكَ مَا يُبَلِّغُكَ المَقِيلَ. قَالَ عُمَرُ: غَيَّرَتْنَا الدُّنْيَا كُلَّنَا غَيْرَكَ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ[1].

وَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بِأَرْبَعَةِ آلاَفٍ، أَوْ بِأَرْبَعِمِائَةِ دِينَارٍ، وَقَالَ لِلرَّسُولِ: انْظُرْ مَا يَصْنَعُ بِهَا، قَالَ: فَقَسَّمَهَا أَبُو عُبَيْدَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى مُعَاذٍ بِمِثْلِهَا، قَالَ: فَقَسَّمَهَا إِلاَّ شَيْئاً قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ أَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ. فَلَمَّا أَخْبَرَ الرَّسُولُ عُمَرَ، قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي الإِسْلاَمِ مَنْ يَصْنَعُ هَذَا.

ثُمَّ سَارَ عُمَرُ إِلَى الجَابِيَةِ فَصَالَحَ أَهْلَهَا، وَكَتَبَ إِلَى أُمَرَاءِ الأَجْنَادِ أَنْ يُوَافُوهُ فِي يَوْمٍ مُعَيَّنٍ إِلَى الجَابِيَةِ، وَتَأَخَّرَ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه.

عَمْرُو بنُ العَاصِ وَشُرَحْبِيلُ حَيْثُ كَانَا لاَ يَزَالاَنِ فِي أَجْنَادِينَ حَتَّى فَرَّ أَرْطَبُونُ الرُّومِ إِلَى مِصْرَ وَمِنْهَا إِلَى بِلاَدِ الـرُّومِ عَنْ طَرِيقِ البَحْرِ. وَلَمَّا صَالَحَ أَهْلُ الرَّمْلَةِ وَتِلْكَ الجِهَـاتِ أَقْبَـلَ عَمْرُو بنُ العَاصِ وَشُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ حَتَّـى قَدِمَـا الجَـابِيَةَ، فَوَجَدَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَاكِباً، فَلَمَّا اقْتَرَبَا مِنْهُ أَكَبَّا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَبَّلاَهَا، وَاعْتَنَقَهُمَا عُمَرُ مَعاً[1]. وَمِنَ الجَابِيَةِ سَارَ عُمَرُ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ[2]. وَرَجَعَ كُلُّ أَمِيرٍ إِلَى جِهَتِهِ.

عِنْدَمَا وَصَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى حِمْصَ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ حَاصَرَهُ الرُّومُ فِيهَا فَطَلَبَ مِنْ خَالِدٍ فِي قِنِّسْـرِينَ أَنْ يَأْتِيَهُ فَجَاءَهُ، وَأَخْبَـرَ أَمِيرَ المُـؤْمِنِينَ بِمَـا حَدَثَ، فَطَلَـبَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ مِنْ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ فِي العِرَاقِ أَنْ يُرْسِلَ نَجْدَةً إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بِإِمْرَةِ القَعْقَاعِ بنِ عَمْرٍو التَّمِيمِـيِّ، وَأَنْ يَسِيرَ عِيَاضُ بنُ غَنْمٍ إِلَى أَهْلِ الجَزِيرَةِ الَّذِينَ مَالَؤُوا الرُّومَ. وَسَارَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ عَلَى رَأْسِ قُوَّةٍ لِيَنْصُرَ أَبَا عُبَيْدَةَ.

تَرَكَ أَهْلُ الجَـزِيرَةِ مَوَاقِعَهُـمْ فِي حِمْصَ عِنْدَمَـا عَلِمُـوا أَنَّ الجَيْشَ الإِسْلاَمِيَّ بِإِمْرَةِ عِيَاضِ بنِ غَنْمٍ. وَانْهَارَتْ مَعْنَوِيَّاتُ

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٣.

(٢) هناك اختلاف في الروايات.

الرُّوم ِ فِي حِمْصَ عِنْدَمَا عَلِمُوا بِمَسِير أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلَى رَأْس ِ قُوَّةٍ إِلَيْهِمْ إِذْ تَصَوَّرُوا حَمَاسَةَ المُسْلِمِينَ وَقُوَّةَ أَمِيرِهِمْ وَشَجَاعَةَ مَنْ مَعَهُ. فَخَرَجَ أَبُو عُبَيْدَةَ لِقِتَالِهِمْ حَسْبَ رَأْي ِ خَالِدٍ فَنَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

وَصَلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ إِلَى الجَابِيَةِ. وَوَصَلَ القَعْقَاعُ بنُ عَمْرٍو إِلَى حِمْصَ بَعْدَ انْتِصَارِ المُسْلِمِينَ بِثَلاَثَةِ أَيَّام ٍ، وَعُدَّ الجَمِيعُ ضِمْنَ المُشَارِكِينَ فِي القِتَالِ، وَنَالُوا نَصِيبَهُمْ مِنَ الغَنَائِم ِ. وَأَمَّا عِيَاضُ بنُ غَنْم ٍ فَقَدْ صَالَحَ أَهْلَ الرِّقَةِ وَحَرَّانَ وَالرُّهَا، وفتح دير الزور. وَبعَثَ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ إِلَى نَصِيبِينَ، وَعُمَرَ بنَ سَعْدِ بن ِ أَبِي وَقَّاص ٍ إِلَى رَأْس ِ العَيْن ِ، وَعُثْمَانَ بنَ أَبِي العَاص ِ إِلَى أَرْمِينْيَا، وَفَتَحَ عَمْرُو بنُ مَالِكٍ قَرْقِيسَاءَ.

وَأَرْسَلَ يَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ أَخَاهُ مُعَاوِيَةَ بِنَاءً عَلَى أَوَامِرِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَفَتَحَ المُدُنَ السَّاحِلِيَّةَ صُورَ، وَصَيْدَا، وَبَيْرُوتَ، وَجُبَيْلَ، وَعِرْقَةَ، وَطَرَابُلْسَ. وَذلِكَ بَعْدَ أَنْ فَتحَ قَيْسَارِيَّةَ بِنَاءً عَلَى أَوَامِرِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بن ِ الخَطَّاب ِ.

وَصَالَحَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَهْلَ حَلَبَ، وَأَهْلَ إِنْطَاكِيَّةَ، وَاسْتَعَانَ بِالجُرَاجِمَةَ ضِدَّ الرُّوم ِ، وَاضْطَرَّ إِلَى فَتْح ِ إِنْطَاكِيَّةَ ثَانِيَةً بَعْدَ أَنْ

نَقَضَتِ العَهْدَ، وَوَلَّى عَلَيْهَا حَبِيبَ بنَ مَسْلَمَةَ الفِهْرِيَّ وَرَجَعَ إِلَى الجَنُوبِ لإِنْهَاءِ وَضْعِ بَيْتِ المَقْدِسِ الَّذِي لَمْ يَتَمَكَّنِ المُسْلِمُونَ مِنْ فَتْحِهِ. كَمَا أَنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ كَانَ قَدْ عَادَ إِلَى المَدِينَةِ.

وَلَمَّا تَمَّتْ هَذِهِ الفُتُوحُ، وَانْتَهَى عَامُ الرَّمَادَةِ فِي الحِجَازِ، رَغِبَ عُمَرُ فِي زِيَارَةِ الشَّامِ، وَاتَّجَهَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى الجَنُوبِ لاسْتِقْبَالِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ عُمَرُ إِلَى بَلْدَةِ سَرْغَ شَمَالَ تَبُوكَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الأَرْضَ سَقِيمَةٌ، فَرَجَعَ بِالنَّاسِ إِلَى المَدِينَةِ حَيْثُ قَالَ لابْنِ عَبَّاسٍ: إِصْرَخْ فِي النَّاسِ: فَقُلْ: إِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مُصْبِحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ، فَأَصْبَحَ عُمَرُ عَلَى ظَهْرٍ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنِّي رَاجِعٌ فَارْجِعُوا، فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ: أَفِرَاراً مِنْ قَدَرِ اللَّهِ! قَالَ: نَعَمْ فِرَاراً مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ... وَقَالَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهَذَا الوَبَاءِ بِبَلَدٍ فَلاَ تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ وَأَنْتُمْ بِهِ فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ» فَقَالَ عُمَرُ: فَلِلَّهِ الحَمْدُ! انْصَرِفُوا أَيُّهَا النَّاسُ، فَانْصَرَفَ بِهِمْ.

وَعِنْدَمَا بَدَأَ الطَّاعُونُ يُصِيبُ النَّاسَ أَرَادَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ أَنْ يُخْرِجَ أَبَا عُبَيْدَةَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: سَلاَمٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَتْ لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ أُرِيدُ أَنْ أُشَافِهَكَ فِيهَا، فَعَزَمْتُ عَلَيْكَ إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا أَلاَّ تَضَعَهُ حَتَّى تُقْبِلَ إِلَيَّ. فَعَرَفَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَخْرِجَهُ مِنَ الوَبَاءِ. فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ! ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهِ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ حَاجَتَكَ إِلَيَّ، وَإِنِّي فِي جُنْدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ لاَ أَجِدُ بِنَفْسِي رَغْبَةً عَنْهُمْ، فَلَسْتُ أُرِيدُ فِرَاقَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيَّ وَفِيهِمْ أَمْرَهُ وَقَضَاءَهُ، فَحَلِّلْنِي مِنْ عَزْمَتِكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَدَعْنِي فِي جُنْدِي. فَلَمَّا قَرَأَ عُمَرُ الكِتَابَ بَكَى، فَقَالَ النَّاسُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَمَاتَ أَبُو عُبَيْدَةَ؟ قَالَ: لاَ، وَكَأَنْ قَدْ. ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهِ: سَلاَمٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ أَنْزَلْتَ النَّاسَ أَرْضاً غَمِقَةً، فَارْفَعْهُمْ إِلَى أَرْضٍ مُرْتَفِعَةٍ نَزِهَةٍ. فَلَمَّا وَصَلَ الكِتَابُ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ دَعَا أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا مُوسَى، إِنَّ كِتَابَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ قَدْ جَاءَنِي بِمَا تَرَى، فَاخْرُجْ فَارْتَدْ لِلنَّاسِ مَنْزِلاً حَتَّى أَتْبَعَكَ بِهِمْ. قَالَ أَبُو مُوسَى: فَرَجَعْتُ إِلَى مَنْزِلِي لأَرْتَحِلَ، فَوَجَدْتُ صَاحِبَتِي قَدْ أُصِيبَتْ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِي حَدَثٌ، فَقَالَ: لَعَلَّ صَاحِبَتَكَ أُصِيبَتْ! قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَأَمَر بِبَعِيرِهِ فَرُحِلَ لَهُ، فَلَمَّا وَضَعَ

رِجْلَهُ فِي غَرْزِهِ طُعِـنَ، فَقَـالَ: وَاللَّـهِ لَقَـدْ أُصِبْـتُ، ثُمَّ سَارَ بِالنَّاسِ حَتَّى نَزَلَ الجَابِيَةَ، وَرُفِعَ عَنِ النَّاسِ الوَبَاءُ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا اشْتَعَـلَ الوَجَـعَ قَامَ أَبُـو عُبَيْدَةَ فِي النَّـاسِ خَطِيباً، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذَا الوَجَعَ رَحْمَةٌ بِكُمْ وَدَعْوَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّـدٍ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ، وَمَـوْتُ الصَّـالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ يَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَقْسِمَ لَهُ مِنْهُ حَظَّهُ، فَطُعِنَ فَمَاتَ وَاسْتُخْلِفَ عَلَى النَّاسِ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ.

وَرُوِيَ أَنَّ وَجَعَ عَمْوَاسَ كَانَ مُعَافَىً مِنْهُ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَهْلُهُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَصِيبُكَ فِي آلِ أَبِي عُبَيْدَةَ! فَخَرَجَتْ بِأَبِي عُبَيْدَةَ فِي خِنْصَرِهِ بَثْرَةٌ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ. فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ يُبَارِكَ اللَّهُ فِيهَا، فَإِنَّـهُ إِنْ بَارَكَ بِالقَلِيلِ كَانَ كَثِيراً.

وَعَنِ الحَارِثِ بنِ عُمَيْرَةَ أَنَّ مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ أَرْسَلَهُ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ، فَسَأَلَهُ كَيْفَ هُوَ؟ فَأَرَاهُ أَبُو عُبَيْدَةَ طَعْنَةً خَرَجَتْ فِي كَفِّهِ، فَتَكَاثَرَ شَأْنُهَـا فِي نَفْسِ الحَـارِثِ، وَفَـرِقَ مِنْهَـا حِينَ رَآهَـا، فَأَقْسَمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِاللَّهِ: مَا يُحِبُّ أَنَّ لَهُ مَكَانَهَا حُمْرَ النَّعَمِ.

انْطَلَقَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنَ الجَابِيَةِ إِلَـى بَيْتِ المَقْـدِسِ لِلصَّـلَاةِ

فَاسْتَخْلَفَ عَلَى النَّاسِ مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ ، فَأَدْرَكَ أَبَا عُبَيْدَةَ أَجَلُهُ بِفِحْلَ قُرْبَ بِيسَانَ،فَتُوفِّيَ بِهَا وَذَلِكَ سَنَةَ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ، وَكَانَ عُمْرُهُ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً .

لَمْ يَكُنْ أَبُو عُبَيْدَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَطْلُبُ المَوْتَ تَخَلُّصاً مِنَ الحَيَاةِ، فَهَذَا أَمْرٌ لاَ يَصِحُّ، وَإِنَّما كَانَ يَطْلُبُ الابْتِلاَءَ، إِذْ فَاتَتْهُ الشَّهَادَةُ فِي سَاحَاتِ القِتَالِ رَغْمَ مَا خَاضَ مِنْ مَعَارِكَ، وَرَغْمَ مَا بَذَلَ نَفْسَهُ، لِذَا فَهُوَ يَطْلُبُ الابْتِلاَءَ لِيَكُونَ لَهُ حِطَّةٌ مِنْ ذُنُوبِهِ، وَيَرْوِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِسَبْعِمِائَةٍ، وَمَنْ أَنْفَقَ عَلَى عِيَالِهِ أَوْ عَادَ مَرِيضاً أَوْ رَفَعَ أَذىً فَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا، وَمَنِ ابْتَلاَهُ اللَّهُ بِبَلاَءٍ فِي جَسَدِهِ فَهُوَ لَهُ حِطَّةٌ».

وَلَمْ يَكُنْ أَبُو عُبَيْدَةَ يَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا عَنْ حَاجَةٍ أَوْ ضَعْفٍ أَوْ بُخْلٍ فَقَدْ كَانَ المَالُ لَدَيْهِ كَثِيرٌ، وَعَرَضُ الدُّنْيَا أَمَامَهُ مُتَوَفِّرٌ، وَإِمْكَانِيَّةُ الحُصُولِ عَلَيْهِ سَهْلٌ فَهُوَ أَمِيرُ أُمَرَاءِ جُيُوشِ الشَّامِ ، وَإِنَّمَا كَانَ يُنْفِقُ مَا يَأْتِيهِ عَلَى إِخْوَانِهِ وَمَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ حَاجَةً فَهُوَ كَرِيمٌ لاَ يُعَادِلُهُ رَجُلٌ فِي كَرَمِهِ، جَوَادٌ لاَ يُضَارِعُهُ آخَرُ فِي

جُودِهِ، مُحِبٌّ لأَصْحَابِهِ وَمُفَضِّلُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ. يَكْفِيهِ مِنَ الدُّنْيَا مَا يُبَلِّغُهُ المَقِيلَ.

وَمِثْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ فَلْتَكُنِ الرِّجَالُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

بَعْضُ مَا قِيلَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَة

قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ لِجُلَسَائِهِ: تَمَنَّوْا، فَتَمَنَّوْا، فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: لَكِنِّي أَتَمَنَّى بَيْتاً مُمْتَلِئاً رِجَالاً مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا أَلَوْتُ الإِسلاَمَ، فَقَالَ: ذَاكَ الَّذِي أَرَدْتُ.

قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: لَوْ أَدْرَكْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ لاَسْتَخْلَفْتُهُ وَمَا شَاوَرْتُ فَإِنْ سُئِلْتُ عَنْهُ قُلْتُ اسْتَخْلَفْتُ أَمِينَ اللَّهِ وَأَمِينَ رَسُولِهِ.

قَالَ عَبْدُاللَّهِ بنُ شَقِيقٍ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ: أَيُّ أَصحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ؟ قَالَتْ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ، ثُمَّ أَبُو عُبَيْدَةَ.

سَمِعَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ رَجُلاً يَقُولُ: لَوْ كَانَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ مَا

كَانَ بِالنَّاسِ دَوْكٌ (اختلاط) وذَلِكَ فِي حَصْرِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَقَالَ مُعَاذٌ: فَإِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ تَضْطَرُّ المُعْجِزَةُ لاَ أَبَالَكَ! وَاللَّهِ إِنَّهُ لَخَيْرُ مَنْ بَقِيَ عَلَى الأَرْضِ.

سَعيد بن زَيْد

رَضِيَ اللهُ عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ العَـالَمِينَ وَالصَّـلاَةُ وَالسَّـلاَمُ عَلَـى سَيِّدِ المُرْسَـلِينَ وَخَاتَـمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدِ بـنِ عَبْدِ اللَّـهِ وَعَلَـى آلِـهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ أما بعـد:

فَإِنَّ سَعِيدَ بنَ زَيْدٍ أَحَدُ السَّابِقِينَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَأَحَدُ العَشْرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ، وَمَـعَ هَذَا فَإِنَّ مَعْرِفَـةَ المُسْـلِمِينَ لِمَوَاقِفِـهِ قَلِيلَةٌ، وَرُبَّمَا كَانَ اسْمُـهُ يُذْكَرُ دُونَ أَبِيهِ عَنْـدَ ذِكْرِ الصَّحَابَـةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ وَلَوْ سَأَلْتَ مَنْ يَكُونُ «سَعيدُ» فَقَلِيلٌ مَنْ يَعْرِفُ اسْمَهُ الكَامِلُ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَعُودُ لِلأَدْوَارِ القَلِيلَةِ الَّتِي قَامَ بِهَا فِي الأَحْـدَاثِ المُهِمَّـةِ، إِذْ لَمْ يَتَسَلَّـمْ قِيَادَةً عَامَّـةً وَلَـمْ يُرَشَّـحْ لِلْخِلاَفَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الشُّورَى إِذْ أَنَّ ابـنَ عَمِّـهِ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ لَمْ يَضَعْهُ بَيْنَهُم لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ، وَبِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْتَرِكْ فِي الخِلاَفَاتِ عِنْدَمَا قَامَتْ فِي المُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ بَعْدَ أَنْ دَخَلَتْهُ عَنَاصِرُ غَرِيبَةٌ، وَيُعْرَفُ النَّاسُ الَّذِينَ

يَشْتَرِكُونَ فِي الخِلاَفَاتِ عَادَةً وَيَبْرُزُونَ لِهَذَا كُلِّهِ عَاشَ فِي ظِلِّ إِخْوَانِهِ الآخَرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، عَاشَ سَعِيداً بِإِسْلاَمِهِ وَمَاتَ سَعِيداً بِإِيْمَانِهِ.

أَرْجُو أَنْ أُوَفَّقَ بِإِعْطَاءِ صُورَةٍ صَادِقَةٍ عَنْ هَذَا الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ السَّابِقِ فِي تَلْبِيَةِ الدَّعْوَةِ السَّابِقِ إِلَى الجِهَادِ، الصَّادِقِ فِي كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

نَشَأَةُ سَعِيدٍ

هُوَ سَعِيدُ بنُ زَيْدِ بن عَمْرِو بن نَفِيل العَدَوِيّ، فَهُوَ قَرِيبُ عُمَرَ بن الخَطَّاب، وَالِدُهُ زَيْدُ ابنُ عَمٍّ عُمَرَ. ويكنَّى أَبا الأَعْوَرِ.

وَأُمُّهُ فاطِمَةُ بِنْتُ بَعْجَةَ بن أُمَيَّةَ مِنْ خُزَاعَةَ.

وُلِدَ قَبْلَ البِعْثَةِ بِخِمْسَةَ عَشَرَ عاماً فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ عَامَاً، وَأَصْغَرُ مِن ابْنِ عَمِّهِ عُمَرَ بِاثْنَتي عَشْرَةَ سَنَةً.

وَكَانَ زَيْدُ وَالِدُ سَعِيدٍ قَدْ فارَقَ دِينَ قَوْمِهِ، فَاعْتَزَلَ الأَوْثَانَ وَالدَّمَ وَالمَيْتَةَ وَالذَّبَائِحَ الَّتِي تُذْبَحُ عَلَى الأَوْثَانِ، وَنَهَى عَنْ قَتْلِ المَوْءُدَةِ، وَبادَى قَوْمَهُ بَعَيْبِ مَا هُمْ عَلَيْهِ. وَكَانَ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَالَّذِيْ نَفْسُ زَيْدِ بنِ عَمْروٍ بِيَدِهِ، مَا أَصْبَحَ مِنْكُمْ أَحَدٌ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ

أَيَّ الوُجُوهِ أَحَبَّ إِلَيْكَ عَبَدْتُكَ بِهِ، وَلَكِنِّي لاَ أَعْلَمُ، ثُمَّ يَسْجُدُ عَلَى رَاحَتِهِ.

وَقَدْ أَجْمَعَ زَيْدُ الخُرُوجَ مِنْ مَكَّةَ لِيَضْرِبَ فِي الأَرْضِ يَطْلُبُ الحَنِيفِيَّةَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَتْ زَوْجُهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ الحَضْرَمِيِّ كُلَّمَا رَأَتْهُ قَدْ تَهَيَّأَ لِلْخُرُوجِ آذَنَتْ بِهِ عَمَّهُ الخَطَّابُ بنُ نَفِيْلٍ وَكَانَ أَخَاهُ لأُمِّهِ، فَكَانَ يُعَاتِبُهُ فِي مُفَارَقَةِ دِينِ قَوْمِهِ.

وَخَرَجَ يَطْلُبُ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، وَيَسْأَلُ الرُّهْبَانَ وَالأَحْبَارَ حَتَّى بَلَغَ المُوصِلَ وَالجَزِيرَةَ، ثُمَّ أَقْبَلَ فَجَالَ الشَّامَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَاهِبٍ فِي أَرْضِ البَلْقَاءِ كَانَ يَنْتَهِي إِلَيْهِ عِلْمُ النَّصْرَانِيَّةِ فِيمَا يَزْعُمُونَ فَسَأَلَهُ عَنِ الحَنِيفِيَّةِ دِينِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ لَتَطْلُبُ دِيناً مَا أَنْتَ بِوَاجِدٍ مَنْ يَحْمِلُكَ عَلَيْهِ اليَوْمَ، وَلَكِنْ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُ نَبِيٍّ يَخْرُجُ مِنْ بِلاَدِكَ الَّتِي خَرَجْتَ مِنْهَا، يُبْعَثُ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ الحَنِيفِيَّةِ فَالْحَقْ بِهَا، فَإِنَّهُ مَبْعُوثٌ الآنَ، هَذَا زَمَانُهُ. وَكَانَ زَيْدُ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى اليَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ فَلَمْ يَرْضَ شَيْئاً مِنْهُمَا، فَخَرَجَ سَرِيعاً حِينَ قَالَ لَهُ الرَّاهِبُ مَا قَالَ، يُرِيدُ مَكَّةَ، حَتَّى إِذَا تَوَسَّطَ بِلاَدَ لَخْمٍ عَدَوْا عَلَيْهِ فَقَتَلُوه.

كَانَ سَعِيدُ قَدْ بَلَغَ مَرْحَلَةَ الشَّبَابِ عِنْدَمَا قُتِلَ وَالِدُهُ، فَقَدْ

بَلَغَتْ سِنُّهُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ فَتَزَوَّجَ ابْنَةَ عَمِّهِ فَاطِمَةَ بِنْتَ الخَطَّابِ أُخْتَ عُمَرَ.

كَانَ سَعِيدُ يَخْشَى ابْنَ عَمِّهِ عُمَرَ بن الخَطَّابِ وَيَهَابُهُ، كَمَا كَانَ أَبُوهُ زَيْدُ يَهابُ عَمَّهُ الخَطَّابَ.

إِسْلاَمُ سَعِيدٍ

بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالدَّعْوَةِ، وَمَا بَلَغَ أَمْرُهَا سَعِيداً حَتَّى أَسْرَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَعْلَنَ إِسْلاَمَهُ، وَانْخَرَطَ فِي صُفُوفِ إِخْوَانِهِ المُسْلِمِينَ الآخَرِينَ الَّذِينَ كَانَ عَدَدُهُمْ لاَ يَزَالُ ضَئِيلاً، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ دَخَلَ بَعْدُ دَارَ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ عِنْدَ الصَّفَا. وَكَانَ العَدَدُ لاَ يَزِيدُ عَلَى سَبْعَةَ عَشَرَ مُسْلِماً. وَأَسْلَمَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ الخَطَّابِ مَعَ زَوْجِهَا سَعِيدٍ.

وَلَمَّا بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَلْتَقِي مَعَ أَصْحَابِهِ فِي دَارِ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ، وُجِدَتْ بُيُوتٌ أُخْرَى يَلْتَقِي فِيهَا عَدَدٌ مِنْ المُسْلِمِينَ مَعَ أَحَدِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَلَقَّوْا عَلَى يَدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ بَيْتُ سَعِيدٍ أَحَدَ هَذِهِ البُيُوتِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الأُسَرُ المُسْلِمَةُ أَوْ

حلَقَاتِ الدَّعْوَةِ. وَكَانَ قَوَامُ هَذِهِ الحَلْقَةِ الَّتي تَلْتَقِي فِي بَيْتِ سَعِيدٍ: خَبَّابَ بنَ الأَرَتِّ مُشْرِفاً وَمُعَلِّماً، وَسَعْيدَ بنَ زَيْدٍ، وَزَوْجَهُ فَاطِمَةَ بِنْتَ الخَطَّابِ، وَنُعَيْمَ بنَ عَبْدِ اللَّهِ النَّحَّامِ العَدَوِيِّ أَيْضاً. وَكَانَتْ هَذِهِ الأُسَرُ تَسْتَخْفِي بِإِسْلاَمِهَا كَمَا تَسْتَخْفِي بِلِقَاءَاتِهَا، وَأَمَّا هَذِهِ الأُسْرَةُ فَكَانَتْ أَكْثَرَ مَا تَهَابُ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، لأَنَّهَا، مِنْ عَشِيرَتِهِ بَنِي عَدِيٍّ، وَهُوَ كَبِيرُ هَذِهِ العَشِيرَةِ، وَمَعْرُوفٌ بِقَسْوَتِهِ وَغِلْظَتِهِ.

وَفِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنَ البِعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالمُسْلِمُونَ قَدْ هَاجَرَ قِسْمٌ مِنْهُمْ إِلَى الحَبَشَةِ، بَلَغَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ أَنْ رَهْطَاً مِنَ المُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ فِي دَارِ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ عِنْدَ الصَّفَا، وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ أَرْبَعِينَ مَا بَيْنَ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ، فَأَخَذَتْ عُمَرَ عَصَبِيَّةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَعَصَبِيَّةٌ لِدِينِ قَوْمِهِ، فَتَوَشَّحَ سَيْفَهُ وَانْطَلَقَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَصْحَابِهِ يُرِيدُ الفَتْكَ بِهِمْ ـ عَلَى زَعْمِهِ ـ. وَفِي الطَّرِيقِ الْتَقَى بِنُعَيْمِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّحَّامِ وَهُوَ يَسِيرُ إِلَى لِقَائِهِ فِي دَارِ سَعِيدِ بنِ زَيْدٍ، دَلاَلَةَ مَعْرِفَتِهِ بِذَلِكَ. فَقَالَ نُعَيْمُ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا عُمَرُ؟.

قَالَ عُمَرُ: أُرِيدُ مُحَمَّداً هَذَا الصَّابِىءَ، الَّذِي فَرَّقَ أَمْرَ قُرَيْشٍ، وَسَفَّهَ أَحْلاَمَهَا، وَعَابَ دِينَهَا، وَسَبَّ آلِهَتَهَا، فَأَقْتُلُهُ.

فَأَرَادَ نُعَيْمُ أَنْ يُغَيِّرَ لَهُ وِجْهَةَ طَرِيقِهِ بِالتَّهْدِيدِ فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ لَقَدْ غَرَّتْكَ نَفْسُكَ مِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَرُ، أَتُرَى بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ تَارِكِيكَ تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَقَدْ قَتَلْتَ مُحَمَّداً! وَلَكِنَّ عُمَرَ لاَ يَصْلُحُ مَعَهُ التَّهْدِيدُ، وَنُعَيْمُ يَعْرِفُ ذَلِكَ، غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ مُحَاوَلَةٌ، وَعِنْدَمَا وَجَدَ نُعَيْمُ عَدَمَ الفَائِدَةِ مِنْ التَّخْوِيفِ، رَأَى ضَرُورَةَ تَغْيِيرِ وِجْهَةِ عُمَرَ مَهْمَا كَانَتِ النَّتَائِجُ فَفَضَّلَ التَّضْحِيَةَ بِسَعِيدٍ وَزَوْجِهِ عَلَى أَنْ يُصَابَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَكْرُوهٍ، بَلْ فَكَّرَ نُعَيْمُ أَنَّ عُمَرَ رُبَّمَا تَأْخُذُهُ عَاطِفَةُ القَرَابَةِ فَلاَ يُصِيبُ شَقِيقَتَهُ فَاطِمَةَ وَزَوْجَهَا سَعِيداً بِأَذىً، لِذَا قَالَ لَهُ: أَفَلاَ تَرْجِعُ إِلَى أَهْلِ بَيْتِكَ فَتُقِيمُ أَمْرَهُمْ.

قَالَ عُمَرُ: وَأَيُّ أَهْلِ بَيْتِي؟.

قَالَ نُعَيْمُ: خَتَنُكَ وَابْنُ عَمِّكَ سَعِيدُ بنُ زَيْدِ بن عَمْرٍو، وَأُخْتُكُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الخَطَّابِ، فَقَدْ وَاللَّهِ أَسْلَمَا، وَتَابَعَا مُحَمَّداً عَلَى دِينِهِ، فَعَلَيْكَ بِهِمَا. فَرَجَعَ عُمَرُ فِعْلاً عَنْ وِجْهَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، وَاتَّجَهَ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى أُخْتِهِ وَخَتَنِهِ، وَعِنْدَهُمَا خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ، مَعَهُ صَحِيفَةٌ فِيهَا صَدْرُ سُورَةِ «طه» يُقْرِئُهُمَا إِيَّاهَا. فَلَمَّا سَمِعُوا حِسَّ عُمَرَ، تَغَيَّبَ خَبَّابُ فِي مَخْدَعٍ لَهُمْ، أَوْ فِي بَعْضِ البَيْتِ، وَأَخَذَتْ فَاطِمَةُ الصَّحِيفَةَ فَجَعَلَتْهَا تَحْتَ

فَخِذِهَا، وَقَدْ سَمِعَ عُمَرُ حِينَ دَنَا إِلَى البَيْتِ قِرَاءَةَ خَبَّابٍ عَلَيْهِمَا، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: مَا هَذِهِ الهَيْنَمَةُ الَّتِي سَمِعْتُ؟.

قَالاَ: مَا سَمِعْتَ شَيْئاً.

قَالَ: بَلَى واللَّهِ، لَقَدْ أُخْبِرْتُ أَنَّكُمَا تَابَعْتُمَا مُحَمَّداً عَلَى دِينِهِ، وَبَطَشَ بِخَتَنِهِ سَعِيدِ بنِ زَيْدٍ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ أُخْتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الخَطَّابِ لِتَكُفَّهُ عَنْ زَوْجِهَا، فَضَرَبَهَا فَشَجَّهَا، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ وَخَتَنَهُ: نَعَمْ قَدْ أَسْلَمْنَا وَآمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ. فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا بِأُخْتِهِ مِنَ الدَّمِ نَدِمَ عَلَى مَا صَنَعَ، فَارْعَوَى، وَقَالَ لأُخْتِهِ: أَعْطِينِي هَذِهِ الصَّحِيفَةَ الَّتِي سَمِعْتُكُمْ تَقْرَؤُونَ آنِفاً أَنْظُرُ مَا هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، وَكَانَ عُمَرُ كَاتِباً، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ، قَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ: إِنَّا نَخْشَاكَ عَلَيْهَا؛ قَالَ: لاَ تَخَافِي، وَحَلَفَ لَهَا بِآلِهَتِهِ لَيَرُدَّنَّهَا إِلَيْهَا إِذَا قَرَأَهَا؛ فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ طَمِعَتْ فِي إِسْلاَمِهِ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا أَخِي، إِنَّكَ نَجِسٌ عَلَى شِرْكِكِ، وَإِنَّهُ لاَ يَمَسُّهَا إِلاَّ الطَّاهِرُ، فَقَامَ عُمَرُ فَاغْتَسَلَ، فَأَعْطَتْهُ الصَّحِيفَةَ، فَلَمَّا قَرَأَهَا قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الكَلاَمُ وَأَكْرَمَهُ! فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ خَبَّابُ خَرَجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عُمَرُ، وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ خَصَّكَ بِدَعْوَةِ نَبِيِّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ أَمْسُ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَيِّدِ الإِسْلاَمَ بِأَبِي الحَكَمِ بنِ

هِشَامٍ أَو بِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فَاللَّهَ اللَّهَ يَا عُمَرُ. فَقَالَ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ عُمَرُ: فَدُلَّنِي يَا خَبَّابُ عَلَى مُحَمَّدٍ حَتَّى آتِيهِ فَأُسْلِمُ؛ فَقَالَ لَهُ خَبَّابُ: هُوَ فِي بَيْتٍ عِنْدَ الصَّفَا، مَعَهُ فِيهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ. فَأَخَذَ عُمَرُ سَيْفَهُ فَتَوَشَّحَهُ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَصْحَابِهِ فَضَرَبَ عَلَيْهِمُ البَابَ؛ فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ، قَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرَ مِنْ خَلَلِ البَابِ، فَرَآهُ مُتَوَشِّحاً السَّيْفَ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فَزِعٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ مُتَوَشِّحاً السَّيْفَ؛ فَقَالَ حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ: فَأْذَنْ لَهُ، فَإِنْ كَانَ جَاءَ يُرِيدُ خَيْراً بَذَلْنَاهُ لَهُ، وَإِنْ كَانَ جَاءَ يُرِيدُ شَرّاً قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ائِذَنْ لَهُ. فَأَذِنَ لَهُ الرَّجُلُ، وَنَهَضَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى لَقِيَهُ فِي الحُجْرَةِ، فَأَخَذَ حُجْزَتَهُ، أَوْ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ، ثُمَّ جَبَذَه جَبْذَةً شَدِيدَةً، وَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟ فَوَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ تَنْتَهِيَ حَتَّى يُنْزِلَ اللَّهُ بِكَ قَارِعَةً؛ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جِئْتُكَ لأُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ فَكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَكْبِيرَةً عَرَفَ أَهْلُ البَيْتِ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّ عُمَرَ قَدْ أَسْلَمَ.

وَبِإِسْلَامِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ زَالَ كَثِيرٌ مِنَ الخَوْفِ عَنْ هَذِهِ الأُسْرَةِ، بَلْ إِنَّ المُسْلِمِينَ عَامَّةً قَدْ عَزُّوا بِإِسْلَامِهِ مَعَ إِسْلَامِ حَمْزَةَ الَّذِي سَبَقَه، إِذْ لَمْ يَعُدْ يَخْشَى العَدَوِيُّونَ عُمَرَ إِذْ أَصْبَحَ بِجَانِبِهِمْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَخَافُونَهُ.

فِي دَارِ الهِجْرَةِ

بَعْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَصْحَابِهِ فِي مَكَّةَ بِالهِجْرَةِ إِلَى إِخْوَانِهِمُ الأَنْصَارِ فِي المَدِينَةِ فَبَدَؤُوا يُهَاجِرُونَ، وَسَارَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَزَلَ عَلَى رُفَاعَةَ بنِ عَبْدِ المُنْذِرِ بنِ رُفَاعَةَ. وَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَآخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ آخَى بَيْنَ سَعِيدِ بنِ زَيْدٍ وَرَافِعِ بنِ مَالِكٍ الزُّرَقِيِّ.

عَاشَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ فِي المَدِينَةِ حَيَاةً سَعِيدَةً هَادِئَةً مُشَارِكاً إِخْوَانَهُ المُسْلِمِينَ فِي الأَحْدَاثِ كُلِّهَا، فِي الغَزَوَاتِ وَالسَّرَايَا الَّتِي كَانَتْ تَنْطَلِقُ نَحْوَ المَنْطِقَةِ الغَرْبِيَّةِ تَعْمَلُ عَلَى مَسْحِهَا وَالتَعَرُّفِ عَلَى أَهْلِهَا، وَتَجِدُ الاسْتِعْدَادَ وَالتَّدْرِيبَ لِلْمُوَاجَهَةِ المُقْبِلَةِ، وَتُهَدِّدُ قُرَيْشاً، وَتَرْفَعُ مِنْ مَعَنَوِيَّاتِ المُسْلِمِينَ، وَحَتَّى إِذَا تَمَّ هَذَا كُلُّهُ، وَجَاءَ الإِذْنُ بِالقِتَالِ، وَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ،

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِقَافِلَةٍ لِقُرَيْشٍ بِإِمْرَةِ أَبِي سُفْيَانَ تَتَّجِهُ إِلَى الشَّامِ خَرَجَ لَهَا مَعَ أَصْحَابِهِ يَعْتَرِضُ سَبِيلَهَا غَيْرَ أَنَّهَا قَدْ فَاتَتْهُ فَرَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ، وَبَدَأَ يَتَحَيَّنُ قُفُولَهَا مِنَ الشَّامِ ثُمَّ بَعَثَ طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَعِيدَ بنَ زَيْدِ بنِ عَمْرٍو قَبْلَ خُرُوجِهِ مِنَ المَدِينَةِ بِعَشْرِ لَيَالٍ يَتَحَسَّبَانِ خَبَرَ العِيرِ، فَخَرَجَا حَتَّى بَلَغَا الحَوْرَاءَ، فَلَمْ يَزَالاَ مُقِيمَيْنِ هُنَاكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمَا العِيرُ، وَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الخَبَرُ قَبْلَ رُجُوعِ طَلْحَةَ وَسَعِيدٍ إِلَيْهِ فَنَدَبَ أَصْحَابَهُ وَخَرَجَ يُرِيدُ العِيرَ، فَسَاحَلَتِ العِيرُ وَأَسْرَعَتْ، وَسَارُوا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَرَقاً مِنَ الطَّلَبِ، وَخَرَجَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَعِيدُ بنُ زَيْدٍ يُرِيدَانِ المَدِينَةَ لِيُخْبِرَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَبَرَ العِيرِ وَلَمْ يَعْلَمَا بِخُرُوجِهِ، فَقَدِمَا المَدِينَةَ فِي اليَوْمِ الَّذِي التَقَى فِيهِ الجَمْعَانِ، فَخَرَجَا فِي أَثَرِهِ فَالْتَقَيَا مَعَهُ مُنْصَرِفاً مِنْ بَدْرٍ، فَلَمْ يَشْهَدَا الوَقْعَةَ، فَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَهْمَيْنِ، وَعُدَّا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، كَمَنْ شَهِدَهَا.

وَشَهِدَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ بَعْدَئِذٍ أُحُداً وَالخَنْدَقَ وَالمَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ مِنَ الغَزَوَاتِ وَلَمْ يَفُتْهُ مَشْهَدٌ أَبَداً. وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَشْرَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الجَنَّةِ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بنُ مَالِكٍ، وَسَعِيدُ بنُ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نَفِيلٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ.

فِي الفُتُوحَاتِ

لَمَّا تَجَهَّزَتِ الجُيُوشُ الإِسْلاَمِيَّةُ لِلْجِهَادِ، وَاتَّجَهَتْ إِلَى الفَتحِ أَيَّامَ الصِّدِّيقِ انْخَرَطَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ فِي هَذِهِ الجُيُوشِ وَانْضَمَّ إِلَى تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ وِجْهَتُهَا إِلَى الشَّامِ، وَكَانَ بِجَانِبِ أَبِي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ وَفِي الجَيْشِ الَّذِي يَقُودُهُ.

وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ اليَرْمُوكِ، وَقَدْ رَتَّبَ خَالِدُ الجُنْدَ فَكَانَ عَلَى المَيْمَنَةِ عَمْرُو بنُ العَاصِ وَمَعَهُ شُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ، وَعَلَى المَيْسَرَةِ يَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَفِي القَلْبِ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ وَمَعَهُ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ. ثُمَّ أَشَارَ خَالِدُ أَنْ يَكُونَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ فِي القَلْبِ وَأَنْ يَكُونَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ لِيَرُدَّ المُنْهَزِمَ. وَجَعَلَ عَلَى مَجْنَبَتِي القَلْبِ عِكْرِمَةَ بنَ أَبِي جَهْلٍ وَالقَعْقَاعَ بنَ عَمْرٍو، كَمَا قَسَّمَ الخَيْلَ إِلَى فِرْقَتَيْنِ تَكُونَانِ

رِدَاءاً وَدِرْعَاً، كَانَ هُوَ فِي فِرْقَةٍ مِنْهَا خَلْفَ المَيْمَنَةِ، وَجَعَلَ قَيْسَ بنَ هُبَيْرَةَ عَلَى الفِرْقَةِ الأُخْرَى خَلْفَ المَيْسَرَةِ. فَكَانَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ إِذَنْ عَلَى رَأس قَلْبِ الجَيْشِ وَقَدْ أَبْلَى بَلاَءً حَسَنَاً، وَأَبْدَى أَنْوَاعَاً مِنَ الشَّجَاعَةِ كَانَ لَهَا أَثَراً فِي تَحْقِيقِ النَّصْرِ - بِإِذْنِ اللَّهِ -.

وتَوَجَّهَ المُسْلِمُونَ بَعْدَ اليَرْمُوكِ إِلَى دِمَشْقَ وَتَمَّ لَهُمْ فَتْحَهَا، فَوَلَّى أَبُو عُبَيْدَةَ عَلَيْهَا سَعِيدَ بنِ زَيْدٍ فَكَانَ أَوَّلَ نَائِبٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَهَا يَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ.

وَلَمَّا انْتَهَى فَتْحُ الشَّامِ رَجَعَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ لِيَعِيشَ فِي المَدِينَةِ.

فِي المَدِينَةِ

عَاشَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ فِي المَدِينَةِ وَلَمْ يُشَارِكْ فِي الأَحْدَاثِ المُهِمَّةِ، فَلَمَّا طُعِنَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ وَاخْتَارَ رِجَالَ الشُّورَى لَمْ يُعَيِّنْ سَعِيدَ بنَ زَيْدٍ بَيْنَهُمْ لأَنَّهُ ابنُ عَمِّهِ وَهُوَ الوَحِيدُ مِنَ البَاقِينَ مِنَ العَشْرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ الَّذِي لَمْ يُسَمَّ بَيْنَ رِجَالِ الشُّورَى.

وَاعْتَزَلَ عِنْدَمَا وَقَعَتِ الفِتْنَةُ فِي المُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ،

وَبَقِيَ فِي المَدِينَةِ حَتَّى أَدْرَكَتْهُ المَنِيَّةُ سَنَـةَ خَمْسِينَ أَوْ إِحْـدَى وَخَمْسِينَ لِلْهِجْرَةِ فِي خِلاَفَةِ مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِـي سُفْيَانَ، رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَلَهُ مِنَ العُمْرِ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً. وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِالعَقِيقِ، وَحُمِلَ إِلَى المَدِينَةِ وَدُفِـنَ بِهَـا، وَنَـزَلَ فِي حُفْرَتِـهِ سَعْدُ بنُ أَبِـي وَقَّـاصٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بـنُ عُمَـرَ. وَهُنَـاكَ رِوَايَةٌ يَتَنَاقَلُهَا أَهْلُ الكُوفَةِ تَقُولُ: إِنَّهُ تُوُفِّيَ بِالكُوفَةِ وَصَلَّى عَلَيْهِ وَالِيهَا المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ.

وَكَانَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُسْتَجَابَ الدَّعْـوَةِ. فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ أَرْوَى بِنْتَ أُوَيْسٍ ادَّعَتْ أَنَّ سَعِيدَ بنَ زَيْدٍ أَخَذَ شَيْئاً مِنْ أَرْضِهَا فَخَاصَمَتْهُ إِلَى مَرْوَانَ، فَقَالَ سَعِيدُ: أَنَا كُنْتُ آخُذُ مِنْ أَرْضِهَا شَيْئاً بَعْدَ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شَيْئاً مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ إِلى سَبْعِ أَرَضِينَ». قَالَ مَرْوَانُ: لاَ أَسْأَلُكَ بَيِّنَةً بَعْدَ هَذَا، فَقَالَ سَعِيدُ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً، فَأَعْمِ بَصَرَهَا، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا، فَمَا مَاتَـتْ حَتَّى عَمِيَتْ، وَبَيْنَا هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْـرَةٍ فَمَاتَتْ.

وَرَوَى سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ، رَضِيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، ثَمَـانِيَةً وَأَرْبَعِينَ حَدِيثاً اتَّفَقَ الشَّيْخَانِ عَلَى حَدِيثَيْنِ، وانْفَرَدَ البُخَارِيُّ بِثَالِثٍ.

أُسْرَةُ سَعِيدٍ

تَزَوَّجَ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ فَاطِمَةَ بِنْتَ الخَطَّابِ وَأَنْجَبَتْ لَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الأَكْبَرِ، وَلاَ عَقِبَ لَهُ. وَفِي بَعْضِ المَصَادِرِ اسْمُهَا رَمْلَةُ بِنْتُ الخَطَّابِ وَتُكَنَّى بِأُمِّ جَمِيلٍ.

وَتَزَوَّجَ جَلِيسَةَ بِنْتَ سُوَيْدِ بنِ صَامِتٍ، وَلَهُ مِنْهَا زَيْدٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ الأَكْبَرُ وَلاَ عَقِبَ لَهُمَا. وَعَاتِكَةُ مِنَ الإِنَاثِ.

وَتَزَوَّجَ أُمَامَة بِنْتَ الدُّجَيْجِ مِنْ غَسَّانَ، وَلَهُ مِنْهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الأَصْغَرُ، وَعُمَرُ الأَصْغَرُ، وَلاَ عَقِبَ لَهُمَا، وَمِنَ الإِنَاثِ لَهُ مِنْهَا أُمُّ مُوسَى، وَأُمُّ الحَسَنِ.

وَتَزَوَّجَ حَزْمَةَ بِنْتَ قَيْسِ بنِ خَالِدِ القُرَيْشِيَّةَ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ مُحَمَّداً، وَإِبْرَاهِيمَ الأَصْغَرَ، وَعَبْدَ اللَّهِ الأَصْغَرِ، وَمِنَ الإِنَاثِ أُمَّ حَبِيبِ الكُبْرَى، وَأُمَّ الحَسَنِ الصُّغْرَى، وَأُمَّ زَيْدِ الكُبْرَى، وَأُمَّ سَلَمَةَ، وَأُمَّ حَبِيبِ الصُّغْرَى، وَأُمَّ سَعِيدِ الكُبْرَى، وَأُمَّ زَيْدٍ.

وَتَزَوَّجَ أُمَّ الأَسْوَدِ التَغْلِبِيَّةَ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ عَمْراً الأَصْغَرَ، وَالأَسْوَدَ.

وَتَزَوَّجَ صُمْخَ بِنْتَ الأُصْبَغِ الكَلْبِيَّةَ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ عَمْراً الأَكْبَرَ، وَطَلْحَةَ، وَمِنَ الإِنَاثِ زُجْلَةَ.

وَتَزَوَّجَ أُمَّ بَشِيرِ بِنْتُ مَسْعُودِ الأَنْصَارِيَّةَ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ أُمَّ زَيْدِ الصُّغْرَى.

وَتَزَوَّجَ ابْنَةَ قُرْبَةَ التَغْلِبِيَّةَ وَأَنْجَبَتْ لَهُ إِبْرَاهِيمَ الأَكْبَرَ، وَحَفْصَةَ.

وَلَهُ خَالِدُ، وَأُمُّ خَالِدِ، وَأُمُّ النِّعْمَانِ وَأُمُّهُمْ أُمُّ وَلَدٍ تُدْعَى أُمَّ خَالِدٍ.

كَمَا لَهُ عَائِشَةُ، وَزَيْنَبُ، وَأُمُّ عَبْدِ، وَأُمُّ صَالِحٍ وَأُمُّهُمْ أُمُّ وَلَدٍ.

وَبِذَا يَكُونُ سَعِيدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَدْ تَزَوَّجَ ثَمَانِي نِسَاءٍ عَدَا أُمَّهَاتِ الأَولاَدِ، وَأَنْجَبْنَ لَهُ ثَلاثَةَ عَشَرَ وَلَداً مِنَ الذُّكُورِ، خَمْسَةٌ مِنْهُمْ لاَ عَقِبَ لَهُمْ، وَعِشْرِينَ مِنَ الإِنَاثِ، مَاتَ بَعْضُهُنَّ فِي حَيَاتِهِ.

بُناة دَوْلـةِ الإسْلام

- ٢٩ -

سَـيّدُ الخَزْرَج

سَعدُ بْنُ عُبَادَة

رَضِيَ اللهُ عَنه

مُقَدِّمَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ والصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِاللَّهِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ أمابعد:

فَإِنَّ الزَّعَامَةَ قَدْ تُورَثُ، وَقَدْ تَدْفَعُ إِلَيْهَا المَوَاهِبُ أَوِ العِلْمُ أَوِ الشَّجَاعَةُ أَوِ الكَرَمُ وَرُبَّمَا مُؤَهِّلاَتٌ ثَانِيَةٌ اقْتَضَتْهَا الظُّرُوفُ أَوْ دَفَعَتْ إِلَيْهَا الحَاجَةُ كَحُسْنِ الحَدِيثِ أَوْ إِجَادَةِ الخَطَابَةِ أَوْ نَظْمِ الشِّعْرِ أَوِ البَلاَغَةِ فِي القَوْلِ، وَالزَّعَامَةُ فِي أَيَّةِ صُورَةٍ مِنْ هَذِهِ الصُّوَرِ لاَ يُمْكِنُ بَقَاؤُهَا أَوِ المُحَافَظَةِ عَلَيْهَا إِلاَّ إِذَا تَوَفَّرَ لَهَا أَحَدُ عُنْصُرَيِ الجُودِ أَوِ الشَّجَاعَةِ إِذْ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَسُودَ قَوْمَهُ بَخِيلٌ وَلاَ أَنْ يَسْمُوَ جَبَانٌ إِلاَّ فِي حَالاَتٍ نَادِرَةٍ يُعْرَفُ فِيهَا أَحَدُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ وَلَكِنْ لاَ تَكُونُ لَهُمَا سِيَادَةٌ وَلاَ يَصِلاَنِ إِلَى مَرْكَزِ الزَّعَامَةِ.

وَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى عَصْرِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، وَنَظَرْنَا إِلَى الأنْصَارِ نَبْحَثُ عَنِ الجُودِ والشَّجَاعَةِ مَا أَعْتَقِدُ أَنْ نَتَعَدَّى آلَ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، إِذْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الأَسْرَةُ لِتُبَارَى فِي الكَرَمِ، وَكَانَ مِنْهَا القَادَةُ الشُّجْعَانُ والصَّنَادِيدُ الأَبْطَالُ.

كانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ وَعِدَّةُ آبَاءٍ لَهُ قَبْلَهُ فِي الجَاهِلِيَّةِ يُنَادَى عَلَى أُطُمِهِمْ: مَنْ أَحَبَّ الشَّحْمَ وَاللَّحْمَ فَلْيَأْتِ أُطُمَ دُلَيْمِ بنِ حَارِثَةَ. وَرَوَى هِشَامُ بنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَدْرَكْتُ سَعْدَ ابنَ عُبَادَةَ وَهُوَ يُنَادِي عَلَى أُطُمِهِ: مَنْ أَحَبَّ شَحْمًا أَوْ لَحْمًا فَلْيَأْتِ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ. ثُمَّ أَدْرَكْتُ ابْنَهُ مِثْلَ ذَلِكَ يَدْعُو بِهِ.

وَكَانَ لِسَعْدِ بنِ عُبَادَةَ جَفْنَةٌ تَدُورُ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بُيُوتِ أَزْوَاجِهِ، وَفِيهَا ثَرِيدٌ بِلَحْمٍ أَوْ ثَرِيدٌ بِلَبَنٍ أَوْ ثَرِيدٌ بِخَلٍّ وَزَيْتٍ أَوْ سَمْنٍ، وَأَكْثَرُ ذَلِكَ اللَّحْمُ. وَقَالَ قَيسُ بنُ سَعْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: زَارَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَنْزِلِنَا فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتَكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ.

وَرَوَى ابن أَبِي الدُّنْيَا مِنْ طَرِيقِ ابنِ سِيرِينَ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الصُّفَّةِ إِذَا أَمْسَوْا انْطَلَقَ الرَّجُلُ بِالوَاحِدِ، وَالرَّجُلُ

بِالإِثْنَيْنِ ، وَالرَّجُلُ بِالجَمَاعَـةِ ، فَأَمَّـا سَعْـدٌ فَكَانَ يَنْطَلِـقُ بِثَمَانِينَ. وَرَوَى أَبُو يَعْلَى مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «جَزَى اللَّهُ عَنَّا الأَنْصَارَ خَيْرَاً لاَسِيَمَا عَبْدُاللَّهِ بنُ عَمْرِو بنِ حَرَامٍ وَسَعْدُ بنُ عُبَادَةَ.

وَرَوَى ابنُ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ مَاتَتْ أُمُّهُ وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ أُمِّي تُوفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا ، أَفَيَنْفَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَم ، قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّ حَائِطِي المِخْرَافَ صَدَقَةٌ عَنْهَا . وَحَدَّثَ سَعِيدُ بنُ المُسَيَّبِ: أَنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ فَسَأَلَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: اسْقِ المَاءَ.

هَذِهِ بَعْضُ جَوَانِبِ كَرَمِ سَعْدِ بن عُبَادَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَمْ تَكُنْ شَجَاعَتُهُ لِتَقِلَّ عَنْ جُودِهِ فَقَدْ حَضَرَ المَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِاسْتِثْنَاءِ بَدْرٍ ، تَخَلَّفَ عَنْهَا مُضْطَرَّاً وَأَبَلَى فِي المَعَارِكِ كُلِّهَا أَحْسَنَ البَلاَءَ ، وَقَدَّمَ نَمَاذِجَ مِنَ الشَّجَاعَةِ قَلَّ مَثِيلُهَا .

وَإِذَا كَانَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، سَيِّدُ الأَوْسِ بَلْ سَيِّدُ الأَنْصَارِ هُوَ أَفْضَلُ الأَنْصَارِ عِنْدَ المُسْلِمِينَ ، وَهُوَ بِمَثَابَـةِ

أَبِـي بَكْرٍ، رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، بَيْنَ المُهَاجِـرِينَ، وَذَلِكَ لأَنَّ سَعْدَ بنَ مُعَاذٍ كَانَ أَكْثَرَ صَفَـاءً فِي إِيمَانِـهِ، وَأَكْثَـرَ طَاعَـةً بَيْنَ قَوْمِهِ، وَلاَ مُنَافِسَ لَهُ بَيْنَهُمْ، وَعِنْدَمَا أَسْلَمَ لَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي عَبْدِالأَشْهَلِ عَنِ الإِسْلاَمِ، وَلاَ عُرِفَ فِيهِمْ نِفَاقاً، فَإِنَّ هَذَا لاَ يُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ إِذ يَبْقَى الصُّورَةَ الصَّادِقَةَ عَنِ الأَنْصَارِ، وَلِكَثْرَةِ قَوْمِهِ الخَـزْرَجِ فَإِنَّ الزَّعَامَـةَ بَيْنَهُمْ كَثِيرَةٌ، وَبِـذَا يَبْقَـى أَيْضَـاً سَيِّدَ الأَكْثَـرِيَّةِ، وَبِاسْتِشْهَـادِ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي السَّنَةِ الخَامِسَةِ بَعْدَ غَزْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ يَزْدَادُ مَرْكَزُ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ بَيْنَ الأَنْصَارِ كُلِّهِـمْ، وَيَكُونُ سَيِّدَهُمْ جَمِيعَاً بِلاَ مُنَافِسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، وَعَـنْ صَحَابَـةِ رَسُولِ اللَّـهِ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ أَجْمَعِينَ.

سَعْدُ بنُ عُبادَةَ

وُلِدَ سَعْدُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي أُسْرَةٍ ثَرِيَّةٍ عُرِفَتْ بِالكَرَمِ وَبِهِ اشْتُهِرَتْ، فَوَرِثَ هَذِهِ الصِّفَةَ، وَكَانَ أَبْرَزَ أَبْنَاءِ المَدِينَةِ فِي هَذِهِ السِّمَةِ. وَلَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ الرِّجَالِ حَتَّى تَعَلَّمَ الكِتَابَةَ، وَهِيَ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ نَادِرَةٌ لاَ فِي المَدِينَةِ فَحَسْبُ بَلْ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ كُلِّهَا، كَمَا تَعَلَّمَ العَوْمَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وُجُودِ المَدِينَةِ فِي مَنْطِقَةٍ دَاخِلِيَّةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ البَحْرِ، وَكَانَتْ مَعْرِفَةُ العَوْمِ نَادِرَةً بَيْنَ سُكَّانِ المَنَاطِقِ النَّائِيَةِ عَنِ السَّوَاحِلِ، وَأَجَادَ الرَّمْيَ أَيْضاً، وَلِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَقَدْ عُرِفَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِالكَامِلِ.

كَانَ أَبُوهُ عُبَادَةُ بنُ دُلَيْمِ بنِ حَارِثَةَ أَحَدَ رِجَالِ الخَزْرَجِ بنِ سَاعِدَةَ المَشْهُورِينَ، وَكَانَتْ أُمُّهُ عَمْرَةُ الثَالِثَةُ بِنْتُ مَسْعُودِ بنِ قَيْسِ أَحَدِ وُجَهَاءِ بَنِي النَّجَارِ بنِ الخَزْرَجِ، فَسَعْدُ بنُ عُبَادَةَ قَدْ وَرِثَ المَجْدَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ، وَقَبَضَ عَلَيْهِ مِنْ أَطْرَافِهِ.

تَزَوَّجَ سَعْدُ بنُ عُبادَةَ غُزَيَّةَ بِنْتَ سَعْدِ بنِ خَلِيفَـةَ مِنْ بَنِـي سَاعِدَةَ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ سَعِيداً، وَمُحَمَّداً، وَعَبْدَالرَّحْمَنِ.

وَتَزَوَّجَ فُكَيْهَةَ بِنْتَ عُبَيْدِ بنِ دُلَيْمٍ مِنْ بَنِي سَاعِدَةَ أَيْضَـاً، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّهِ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ قَيْساً، وَأُمَامَةَ، وَسَدُوساً. وَيُكَنَّى سَعْدٌ أَبَا ثَابِتٍ، كَمَا يُكَنَّى بِأَبِي قَيْسٍ.

وَعَاشَ سَعْدٌ مَرْحَلَةَ شَبَابِهِ فِي المَدِينَةِ كَبَاقِي أَبْنَاءِ قَوْمِهِ عَلَى حَيَاةِ الجَاهِلِيَّةِ، يَمْرَحُ كَمَا يَشَاءُ لَهُ هَوَاهُ، وَيَبْذَخُ كَمَا يَحْلُو لَهُ، وَإِنْ كَانَ يَخْتَلِفُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ فِي أَنَّهُ كَانَ مُتَفَتِّحَ الذِّهْـنِ، مُفَكِّراً فِي أُمُورِ حَيَاتِهِ، لاَ يُرْضِيهِ مَا النَّاسُ عَلَيْهِ، يَنْظُـرُ إِلَـى عِيشَةٍ أَفْضَلَ تَطْمَئِـنُّ فِيهـا النَّفْسُ، وَتَهْنَـأُ القُلُـوبُ، وَيَرْتَـاحُ الفِكْرُ، وَيَأْمَنُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

إِسْلاَمُ سَعْدٍ

لَمَّا يَئِسَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ إِسْلاَمِ قُرَيْشٍ بَدَأَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ العَرَبِ فِي كُلِّ مَوْسِـمٍ، فَيَقِفُ عَلَى مَنَازِلِهِمْ، فَيَقُولُ: يَا بَنِي فُلاَنٍ، إِنِّي رَسُولُ اللَّـهِ إِلَيْكُمْ، يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْ تَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ هَذِهِ الأَنْدَادِ، وَأَنْ تُؤْمِنُوا بِي، وَتُصَدِّقُوا

بِي، وَتَمْنَعُونِي، حَتَّى أُبَيِّنَ عَنِ اللَّـهِ مَا بَعَثَنِي بِهِ. وَعَـرَضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَفْسَهُ عَلَى كِنْدَةَ، وَكَلْبٍ، وَبَنِي حَنِيفَةَ، وَبَنِي عَامِرِ بنِ صَعْصَعَـةَ، وَلَـكِنْ لَمْ يَجِـدْ مِنْ مُجِيبٍ، وَقَدْ يَكُونُ الرَّدُّ قَبِيحاً كَمَا وَقَعَ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ.

وَجَاءَ أَبُو الحَيْسَرِ، أَنَسُ بنُ رَافِعٍ، وَمَعَهُ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ قَدِمُوا إِلَـى مَكَّةَ يَلْتَمِسُـونَ الحِلْفَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَـى قَوْمِهِمْ مِنَ الخَزْرَجِ، فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَتَاهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ فِي خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟ فَقَالُوا لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي إِلَى العِبَادِ، أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الكِتَابَ. ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمُ الإِسْلاَمَ وَتَلاَ عَلَيْهِمُ القُرآنَ، فَقَالَ إِيَاسُ بنُ مُعَاذٍ وَهُوَ أَحَدُ الفِتْيَةِ، هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ، غَيْرَ أَنَّ أَبَا الحَيْسَرَ أَنَسَ بنَ رَافِـعٍ أَخَـذَ حَفْنَـةً مِنْ تُرَابِ البَطْحَاءِ وَضَرَبَ بِهَا وَجْـهَ إِيَاسِ بـنِ مُعَـاذٍ، وَقَـالَ: دَعْنَـا مِنْكَ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ جِئْنَا لِغَيْرِ هَذَا. وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْهُمْ، وَانْصَرَفُوا إِلَى المَدِينَةِ، وَكَانَتْ وَقْعَةُ بُعَاثٍ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ.

وَفِي المَوْسِمِ عَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

نَفْسَهُ عَلَى القَبَائِلِ ، كَمَا كَانَ يَصْنَعُ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ ، فَبيْنَمَا هُوَ عِنْدَ العقَبَةِ لَقِيَ رَهْطَاً مِنَ الخَزْرَجِ أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ خَيْرَاً، وَهُمْ سِتَّةُ نَفرٍ.

فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ أَنْتُمْ؟

قَالُوا: نَفَرٌ مِنَ الخَزْرَجِ .

قَالَ: أَمِنْ مَوَالِي يَهُود.

قَالُوا: نَعَم.

قَالَ: أَفَلاَ تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ؟.

قَالُوا: بَلَى. فَجَلَسُوا مَعَهُ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الإِسْلاَمَ، وَتَلاَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا قَوْمُ، تَعْلَمُوا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدُكُمْ بِهِ يَهُودُ، فَلاَ تَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ. فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، بِأَنْ صَدَّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الإِسْلاَمِ ، وَقَالُوا: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلاَ قَوْمٌ بَيْنَهُمْ مِنَ العَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ بِكَ، فَسَنَقْدُمُ عَلَيْهِمْ، فَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ ، فَإِنْ يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلاَ رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ. ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْ رَسُولِ

اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَاجِعِينَ إِلَى بِلاَدِهِمْ، وَقَدْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا.

فَلَمَّا قَدِمُوا المَدِينَةَ إِلَى قَوْمِهِمْ ذَكَرُوا لَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَعَوْهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ حَتَّى فَشَا فِيهِمْ، فَلَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلاَّ وَفِيهَا ذِكْرٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَلَعَلَّ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ كَانَ مِنْ أَوَائِلِ الَّذِينَ أَقْبَلُوا عَلَى الإِسْلاَمِ إِذْ وَجَدَ فِيْهِ كُلَّ مَا كَانَتْ تَهْفُو إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَتَطْمَحُ بِهِ، وَالحُلُولَ لِكُلِّ التَسَاؤُلاَتِ الَّتِي تُحَدِّثُهُ بِهَا نَفْسُهُ. وَأَحَبَّ لِقَاءَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاشْتَاقَ إِلَيْهِ، وَرَغِبَ أَنْ تُسْرِعَ بِهِ الأَيَّامُ لِيَحِلَّ المَوْسِمُ، وَيَتِمَّ اللِّقَاءُ، حَيْثُ كَانَ يَرَى الأَيَّامَ كُسَالَى لاَ تَجِدُّ فِي السَّيْرِ وَلاَ تُطِيلُ الخُطَا، وَإِنَّمَا تَمُرُّ خَامِلَةً بَطِيئَةَ الحَرَكَةِ وَئِيدَةَ الخُطَا، كُلُّ حَرَكَةٍ بِتَنَهُّدٍ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ بِزَفْرَةٍ، يَتَصَبَّبُ مِنْهَا العَرَقُ، وَيُنْهِكُهَا التَّعَبُ، وَهُوَ يَدْفَعُهَا دُونَ اسْتِجَابَةٍ، وَيَحُثُّهَا دُونَ تَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ، وَهُوَ يَدْفَعُ دُونَ كَلَلٍ، وَيَحُثُّ مِنْ غَيْرِ مَلَلٍ، وَمَضَتِ الأَيَّامُ بَعْدَ مَشَقَّةٍ وَطُولِ عَنَاءٍ.

فِي العَقَبَةِ الأولَى

وَأَقْبَلَ المَوْسِمُ، وَتَجَهَّزَ الحُجَّاجُ مُسْلِمُهُم وكَافِرُهُمْ وَلاَ يَعْرِفُ الكُفَّارُ المُسْلِمِينَ بَيْنَهُمْ، وَرُبَّما كَانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ أَوَّلَهُمْ تَجَهُّزاً وَأَكْثَرهُمْ حبّاً لِلْحركَةِ. وَانْطَلَقَ الرَّكْبُ، ورُبَّمَا كَانَ سَعْدُ أَوَّلَهُمْ انْطِلاَقاً وَأَسْرَعَهُمْ سيْراً تَتقَدَّمُ رَاحِلَتُهُ غَيْرَهَا مِنَ الرَّوَاحِلِ كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغذِّيَ السَّيْرَ فَيَزْجُرُهَا فَتَنْطَلِقُ فَيَجِدُ نَفْسَهُ قَدْ تَقَدَّمَ الرَّكْبَ، فَيَعُودُ يَكْبَحُهَا وَيَشُدُّ بِعِنَانِهَا حَتَّى تُخَفِّفَ مِنْ سُرْعَتِهَا وَتَلْحَقَ بِهَا بَقِيَّةُ الرَّوَاحِلِ ، وَاسْتَمَرَّتِ الحَالَةُ هَذِهِ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ بَيْنَ المَدِينَةِ وَمَكَّةَ.

وَكَانَ كُلَّمَا نَزَلَ القَوْمُ مَنْزِلاً لِيأْخُذُوا قِسْطاً مِنَ الرَّاحَةِ، أَوْ لِيَتَزَوَّدُوا بِالمَاءِ، أَوْ لِيَتَنَاوَلُوا الطَعَامَ كَانَ سَعْدُ حَرِيصاً عَلَى اخْتِصَارِ الوَقْتِ وَمِنَ المُشَجِّعِينَ عَلَى الرَّحِيلِ بِسُرْعَةٍ، بَلْ لَمْ يَكُنْ لِيَجِدَ فِي النَّوْمِ رَاحَةً وَلاَ لَذَّةً، وَكُلَّمَا أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُفَكِّرَ بِحُبِّ اللِّقَاءِ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَنِينِهِ إِلَيْهِ، وَرَغْبَتِهِ فِيهِ، وَانْقَضَتِ الأَيَّامُ.

وَصَلَ الرَّكْبُ إِلَى مَكَّةَ، وَشَهِدَ المَوْسِمَ، وَجَاءَ مَوْعِدُ اللِّقَاءِ مَعَ الحَبِيبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِنْدَ العَقَبَةِ، وَكَانَ سَعْدُ مِنْ أَوَائِلِ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى المَكَانِ المُحَدَّدِ، وَتَمَّ

الإِجْتِمَاعُ، وَكَانَ الجَمِيعُ فِي غَمْرَةٍ مِنَ الفَرَحِ لاَ تُصَوَّرُ، وَفِي سَعَادَةٍ لاَ تُعَادِلُهَا سَعَادَةٌ، قَدْ لاَ يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِشِدَّةِ الغِبْطَةِ الَّتِي تُكَلِّلُهُ، وَلِهَيْبَةِ المُصْطَفَى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

وَكَانَ المُسْلِمُونَ فِي الرَّكْبِ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَلاَّ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً، وَلاَ يَسْرِقُونَ، وَلاَ يَزْنُونَ، وَلاَ يَقْتُلُونَ أَوْلاَدَهُمْ، وَلاَ يَأْتُونَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَلاَ أَرْجُلِهِمْ، وَلاَ يَعْصُونَهُ فِي مَعْرُوفٍ. وَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمُ الجَنَّةُ، وَإِنْ غَشَيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ. وَعُرِفَتْ هَذِهِ البَيْعَةُ بِبَيْعَةِ النِّسَاءِ، لأَنَّ الأَمْرَ بِالقِتَالِ لَمْ يَكُنْ قَدْ شُرِعَ بَعْدُ:

وَانْصَرَفَ القَوْمُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا يُرِيدُونَ الانْصِرَافَ. وَأَرْسَلَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُقْرِئَهُمُ القُرآنَ، وَيُعَلِّمَهُمُ الإِسْلاَمَ، وَيُفَقِّهَهُمْ فِي الدِّينِ، فَكَانَ يُسَمَّى بِالمَدِينَةِ المُقْرِىءَ مُصْعَبَ، وَكَانَ مَنْزِلُهُ عَلَى أَسْعَدِ بنِ زُرَارَةَ، وَكَانَ مُصْعَبُ هُوَ الَّذِي يَؤُمُّهُمْ بِالصَّلاَةِ. وَانْصَرَفَ الرَّكْبُ وَلَمْ

يَعْلَمِ الْكُفَّارُ مِنْه مَا دَارَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ مِنْهُمْ وَبَيْن رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ بَيْنَهُمْ مُسْلِمِينَ.

وَعَادَ الرَّكْبُ نَحْوَ المَدِينَةِ وَرَوَاحِلُ المُسْلِمِينَ الَّتِي كَانَتْ فِي طَرِيقِ القُدُومِ فِي الطَّلِيعَةِ أَصْبَحَتْ فِي المُؤَخِّرَةِ وَكَأَنَّ الأَرْضَ تَشُدُّ قَوَائِمَهَا لاَ تُرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَسِيرَ، تُرِيدُ أَنْ تَعُودَ بِهَا نَحْوَ مَكَّةَ مُلَبِّيَةً أَصْوَاتَ قُلُوبِ الَّذِينَ عَلَى تِلْكَ الرَّوَاحِلِ، وَوَصَلَ الرَّكْبُ إِلَى المَدِينَةِ، وَحَطَّ النَّاسُ رِحَالَهُمْ، وَاتَّجَهَ كُلٌّ إِلَى مَنْزِلِهِ، الكُفَّارُ مِنْهُمْ فِي حَرَكَةٍ وَضَجَّةٍ فَرِحِينَ بِلِقَاءِ الأَحِبَّةِ، مَسْرِعِينَ نَحْوَ البُيُوتِ رَغْمَ مُسْتَقْبِلِيهِمْ، وَالمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ فِي هُدُوءٍ وَصَمْتٍ قَدْ تَرَكُوا الحَبِيبَ فِي مَكَّةَ، يَسْأَلُهُمْ مُهَنِّئُوهُمْ بِالسَّلاَمَةِ عَنْ سِرِّ السُّكُوتِ فَيَحَارُونَ بِالجَوَابِ بَلْ لاَ يَعْرِفُونَهُ.

وَاسْتَقَرَّ كُلٌّ فِي دَارِهِ وَبَدَأَتِ السَّنَةُ تَعْصِرُ شُهُورَهَا عَصْراً لِيَمُرَّ شَهْرٌ إِثْرَ آخَرَ، وَالشُّهُورُ تَدْفَعُ أَيَّامَهَا دَفْعاً لِتَتَحَرَّكَ فَلاَ تَكَادُ تَتَزَحْزَحُ، وَالأَيَّامُ تَسْحَبُ سَاعَاتِهَا عَلَى مَسَارٍ خَشِنٍ فَلاَ تُسْحَبُ إِلاَّ بِكُلِّ مُقَاوَمَةٍ وَصَرِيرٍ، فَالمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ مِنَ الأَيَّامِ أَنْ تَتَحَرَّكَ لِيَأْتِيَ المَوْسِمُ، لِيَلْتَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنَّ الأَيَّامَ تَبْدُو لَهُمْ مُتَشَبِّثَةً فِي مَكَانِهَا لاَ تُطَاوِعُهُمْ فِي حَرَكَتِهَا وَإِنْ تَمُرَّ عَلَيْهِمْ فِيهَا سَاعَاتٌ مُضِيئَةٌ يَرَوْا فِي نُورِهَا قَبَساً

مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَا هُوَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُصَلِّي بِهِمُ الجُمْعَةَ كُلَّ أُسْبُوعٍ فِي نَقِيعِ الخَضِمَاتِ مِنْ حَرَّةِ بَنِي بَيَاضَةَ فِي هَزِمِ النَبِيتِ[1]، فَيَلْتَقِي بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَقَدْ وَصَلَ عَدَدُهُمْ إِلَى الأَرْبَعِينَ رَجُلاً، يَجْتَمِعُونَ، وَيَتْلُونَ القُرْآنَ، وَيَسْتَمِعُونَ إِلَى كَلِمَاتِ الخَيْرِ، وَيَشْعُرُونَ بِالأُخُوَةِ الصَّادِقَةِ... اللَّهُ أَكْبَرُ هَا هُوَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ سَيِّدُ الأَوْسِ يُسْلِمُ وَيَدْخُلُ مَعَهُ قَوْمُهُ بَنُو عَبْدِ الأَشْهَلِ جَمِيعَاً، لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ عَنِ الإِسْلَامِ... كَثُرَ عَدَدُ المُسْلِمِينَ، وَالْتَقَى الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ بِالأُخُوَّةِ والصَّفَاءِ فِي ظِلِّ الإِسْلَامِ.

فِي العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ

اقْتَرَبَ المَوْسِمُ، وَتَهَيَّأَ النَّاسُ لِلْحَجِّ، وَاسْتَعَدَّ المُسْلِمُونَ، وَحَانَ وَقْتُ الرَّحِيلِ، وَتَحَرَّكَ المَوْكِبُ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ المَرَّةِ أَكْثَرَ سُرْعَةً، فَعَدَدُهُمْ أَكْبَرُ إِذِ انْطَلَقَ مِنْهُمْ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ رَاكِباً، وَبَعْدَ المَوْسِمِ أَسْلَمَ أَبُو جَابِرٍ عَبْدُاللَّهِ بنُ عَمْرِو بن حَرَامٍ، وَالْتَقَى مَعَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

---

(١) هزم النبيت: مرتفع في تلك الحرة على بعد عشرة كيلومترات من المدينة.

وَسَلَّمَ، فِي العَقَبَةِ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ حَسْبَ المَوْعِدِ الَّذِي ضَرَبَهُ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كَانَ المُسْلِمُونَ يَكْتُمُونَ أَمْرَهُمْ عَمَّنْ مَعَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةَ اللِّقَاءِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَامَ المُسْلِمُونَ مَعَ قَوْمِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجُوا مِنْ رِحَالِهِمْ لِمَوْعِدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانُوا يَتَسَلَّلُونَ تَسَلُّلَ القَطَا مُسْتَخْفِينَ، حَتَّى اجْتَمَعُوا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ العَقَبَةِ، وَكَانُوا ثَلاَثَةً وَسَبْعِينَ رَجُلاً وَامْرَأَتَيْنِ. فَلَمَّا حَانَ المَوْعِدُ حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ جَاءَ مُسْتَوْثِقاً لاِبْنِ أَخِيهِ. وَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخَذَ مِنْهُمُ المَوَاثِيقَ، وَبَايَعُوهُ بَيْعَةَ الحَرْبِ. وَاخْتَارَ مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، تِسْعَةً مِنَ الخَزْرَجِ، مِنْهُمْ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَثَلاَثَةً مِنَ الأَوْسِ.

وَاسْتَعْلَى المُسْلِمُونَ مِنَ الأَنْصَارِ بِإِيمَانِهِمْ بَعْدَ تِلْكَ البَيْعَةِ، وَشَعَرُوا أَنَّهُمْ - رَغْمَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ - أَنَّهُمْ أَقْوَى مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ جَمِيعاً، وَأَثْبَتُ مِنَ الرَّوَاسِي فِي وَجْهِ خُصُومِهِمْ مَهْمَا كَثُرُوا، فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ارْفَضُّوا إِلَى رِحَالِكُمْ. قَالَ لَهُ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بن نَضْلَةَ: وَاللَّهِ الَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ: إِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنَى غَدَاً بِأَسْيَافِنَا؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَكِنِ ارْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ، فَعَادُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ فَنَامُوا عَلَيْهَا حَتَّى الصَّبَاحِ.

فَلَمَّا أَصْبَحُوا جَاءَتْهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، فَقَالُوا لَهُمْ· يَا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا مِنْ حَيٍّ مِنَ العَرَبِ أَبْغَضُ إِلَيْنَا، أَنْ تَنْشُبَ الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، مِنْكُمْ. فَانْبَرَى المُشْرِكُونَ مِنَ المَدِينَةِ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا عَلِمُوهُ ـ وَقَدْ صَدَقُوا لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا شَيْئَاً ـ.

وَسَارَ القُرَشِيُّونَ إِلَى عَبْدِاللَّهِ بنِ أَبَيٍّ بنِ سَلُولٍ، فَقَالُوا لَهُ مِثْلَ مَا قَالُوا لِقَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الأَمْرُ جَسَيمٌ، مَا كَانَ قَوْمِي لِيَتَفَوَّتُوا عَلَيَّ بِمِثْلِ هَذَا، وَمَا عَلِمْتُهُ كَانَ. فَانْصَرَفُوا عَنْهُ.

وَنَفَرَ النَّاسُ مِنْ مِنَىً، وَدَقَّقَتْ قُرَيْشٌ فِي الخَبَرِ فَوَجَدَتْهُ قَدْ كَانَ، فَخَرَجَتْ فِي طَلَبِ القَوْمِ، فَأَدْرَكَتْ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ

بِأَذَاخِرَ، ثُمَّ لَحِقَتْ بِالمُنْذِرِ بن عَمْرٍو، وَكِلاَهُمَا كَانَ مِنْ نُقَبَاءِ الأنْصَارِ. فَأَمَّا المُنْذِرُ فَأَعْجَزَ القَوْمَ، وَهَرَبَ، وَأَمَّا سَعْدٌ فَأَخَذُوهُ، فَرَبَطُوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ بِحَبْلِ رَحْلِهِ، ثُمَّ أَقْبَلُوا بِهِ حَتَّى أَدْخَلُوهُ مَكَّةَ يَضْرِبُونَهُ وَيَجْذِبُونَهُ بِجُمَّتِهِ (شَعْرِ رَأْسِهِ)، وَكَانَ ذَا شَعْرٍ كَثِيرٍ.

يَقُولُ سَعْدٌ: إِنِّي وَاللَّهِ لَفِي أَيْدِيهِمْ إِذْ طَلَعَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فِيهِمْ رَجُلٌ وَضِيءٌ أَبْيَضُ، شَعْشَاعٌ[١]، حُلْوٌ مِنَ الرِّجَالِ[٢]. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنْ يَكُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ القَوْمِ خَيْرٌ فَعِنْدَ هَذَا، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي رَفَعَ يَدَهُ فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لاَ وَاللَّهِ مَا عِنْدَهُمْ بَعْدَ هَذَا مِنْ خَيْرٍ.

فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي أَيْدِيهِمْ يَسْحَبُونَنِي إِذْ أَوَى إِلَيَّ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ مَعَهُمْ[٣]، فَقَالَ: وَيْحَكَ! أَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ قُرَيْشٍ جِوَارٌ وَلاَ عَهْدٌ؟ قُلْتُ: بَلَى. وَاللَّهِ، لَقَدْ كُنْتُ أُجِيرُ لِجُبَيْرِ بنِ مُطْعِمِ بنِ عَدِيِّ بنِ نَوْفَلِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ تِجَارَهُ، وَأَمْنَعُهُمْ مِمَّنْ أَرَادَ ظُلْمَهُمْ بِبِلاَدِي، وَلِلْحَارِثِ بنِ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ؛ قَالَ: وَيْحَكَ! فَاهْتِفْ بِاسْمِ

---

(١) الشعشاع: الطويل الحسن.
(٢) هو سهيل بن عمرو.
(٣) أبو البَختري العاص بن هشام بن الحارث بن أسد.

الرَّجُلَيْنِ ، وَاذْكُرْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمَا . قَالَ : فَفَعَلْتُ ، وَخَرَجَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَيْهِمَا ، فَوَجَدَهُمَا فِي المَسْجِدِ عِنْدَ الكَعْبَةِ ، فَقَالَ لَهُمَا : إِنَّ رَجُلاً مِنَ الخَزْرَجِ الآنَ يُضْرَبُ بِالأَبْطَحِ وَيَهْتِفُ بِكُمَا ، وَيَذْكُرُ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَكُمَا جِوَاراً ، قَالاَ : وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ : سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ ؛ قَالاَ : صَدَقَ وَاللَّهِ ، إِنْ كَانَ لَيُجِيرُ لَنَا تِجَارَنَا وَيَمْنَعُهُمْ أَنْ يُظْلَمُوا بِبَلَدِهِ . قَالَ : فَجَاءَا فَخَلَّصَا سَعْداً مِنْ أَيْدِيهِمْ ، فَانْطَلَقَ .

وَاجِبُ الكَرَمِ

وَعِنْدَمَا رَجَعَ رَكْبُ المَدِينَةِ مِنَ المَوْسِمِ إِلَى مَدِينَتِهِمْ وَأُطْلِقَ سَرَاحُ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ مِنْ أَسْرِهِ أَعْلَنَ الأَنْصَارُ الإِسلاَمَ وَبَدَؤُوا يَدْعُونَ إِلَى دِينِهِمْ ، وَيُظْهِرُونَ عِبَادَتَهُمْ .

وَفِي مَكَّةَ أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَلَى أَصْحَابِهِ بِالهِجْرَةِ إِلَى إِخْوَانِهِمُ الأَنْصَارِ فِي المَدِينَةِ ، وَبَدَأَتْ وُفُودُ المُهَاجِرِينَ تَتَوالَى مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ ، ثُمَّ تَبِعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بَيْنَ المُسْلِمِينَ ،

وَقامَتْ دَوْلَةُ الإِسْلاَمِ ، وَبَدَأَ رَسُولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُجَهِّزُ الغَزَوَاتِ وَيُرْسِلُ السَّرَايَا لِدِرَاسَةِ الأَرْضِ التِّي يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ القِتَالُ فِيهَا بَيْنَ دَوْلَتِهِ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ ، وَيَتَعَرَّفُ عَلَى القَبَائِلِ ، وَيُحَاوِلُ عَقْدَ الأَحْلاَفِ مَعَهَا، أَوْ يَضْمَنُ بَقَاءَهَا عَلَى الحِيَاد ـ عَلَى الأَقلِّ ـ فِيمَا إِذَا وَقَعَ القِتَالُ.

وَأَحَسَّ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَعْدَ وُصُولِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالمُهَاجِرِينَ بِعِبءِ الوَاجِبِ عَلَيْهِ. فَهُوَ كَرِيمٌ مِنْ غَيْرِ وَاجِبٍ، فَكَيْفَ وَقَدْ غَدَا مُسْلِمَاً، وَالإِسْلاَمُ يَأْمُرُهُ بِالكَرَمِ ؟ وَكَيْفَ، وَقَدْ هَاجَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِخْوَانُهُ الكِرَامُ وَقَدْ تَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَمْلاَكَهُمْ بِمَكَّةَ؟ إِنَّ وَضْعَهُ يَخْتَلِفُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي السَّابِقِ ، لِذَا كَانَ يَدْعُو رَبَّهُ فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ هَبْ لِي مَجْدَاً، لاَ مَجْدَ إِلاَّ بِفِعَالٍ، وَلاَ فِعَالَ إِلاَّ بِمَالٍ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لاَ يُصْلِحُنِي القَلِيلُ وَلاَ أَصْلُحُ عَلَيْهِ.

كَانَ يُقَدِّمُ الكَثِيرَ عَلَى إِخْوَانِهِ المُهَاجِرِينَ، وَذَكَرْنَا أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ جَفْنَةٌ تَدُورُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِهِ. وَكَانَ يَنْحَرُ، وَيُطْعِمُ، وَيَهَبُ الشَيْءَ الكَثِيرَ، فَكَانَ النَمُوذَجَ الحَيَّ فِي الكَرَمِ ، وَالمَثَلَ فِي العَطَاءِ. لَقَدْ كَانَ

أَخاً لِلْمُهَاجِرِينَ جَمِيعاً، كَمَا لَمْ يَنْسَ أُخُوَّتَهُ لِلأَنْصَارِ، وَبِذَا فَهُوَ أَخُو المُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

أَيَّامُ بَدْرٍ

وَلَمَّا تَمَّ مَسْحُ الأَرْضِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَدُورَ عَلَى سَاحَاتِهَا قِتَالٌ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَقُرَيْشٍ، وَانْتَهَى التَّعَرُّفُ عَلَى بَعْضِ القَبَائِلِ الَّتِي تَنْزِلُ فِي تِلْكَ الجِهَاتِ، وَالتَّحَالُفُ مَعَ بَعْضِهَا الآخَرِ، وَأَصْبَحَ المُسْلِمُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّدْرِيبِ وَالسَّيْرِ إِلَى القِتَالِ وَعَلَى قَدْرٍ كَافٍ مِنَ الرُّوحِ المَعْنَوِيَّةِ وَالرَّغْبَةِ إِلَى القِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَرَّرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الصِّدَامَ مَعَ قُرَيْشٍ.

وَصَلَ خَبَرٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ قَافِلَةً كَبِيرَةً لِقُرَيْشٍ بِإِمْرَةِ أَبِي سُفْيَانَ بنِ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ مُنْطَلِقَةٌ إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَ إِلَيْهَا، وَوَصَلَ إِلَى العُشَيْرَةِ وَلَكِنَّهُ وَجَدَ أَنَّ العِيرَ قَدْ فَاتَتْهُ، فَرَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ وَادَعَ بَنِي مُدْلِجْ وَحُلَفَاءَهُمْ مِنْ بَنِي ضَمْرَةَ.

وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ التَّيْمِيَّ، وَسَعِيدَ بنَ زَيْدٍ العَدَوِيَّ إِلَى خَارِجِ المَدِينَةِ

يَرْصُدَانِ عَوْدَةَ قَافِلَةِ أَبِي سُفْيَانَ بن حَرْبٍ، وَأخْبَارِهِ بِالمَدِينَةِ مُجُرَّدَ سَمَاعِهِما بِرُجُوعِهَا وَجَاءَ الخَبَرُ بِاقْتِرَابِ القَافِلَةِ، فَنَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُسْلِمِينَ إِلَيْهَا، وَقَالَ: هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ، فِيهَا أَمْوَالَهُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ يُنْفِلُكُمُوهَا. فَانْتَدَبَ النَّاسَ، فَخَفَّ بَعْضُهُمْ وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَلْقَى حَرْبَاً.

وَقَامَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَدْعُو قَوْمَهُ الأنْصَارَ لِلتَّحَرُّكِ وَالسَّيْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ مُتَقَدِّمُهُمْ، وَتَهَيَّأَ الجَمْعُ، وَتَحَرَّكَ الرَّكْبُ، وَلَمْ يَشَأَ اللَّهُ لِسَعْدٍ أَنْ يَسِيرَ مَعَهُمْ فَقَدْ نُهِشَ. وَطَلَبَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَمْكُثَ[1]. وَقَالَ: «لَئِنْ كَانَ سَعْدٌ لَمْ يَشْهَدْهَا لَقَدْ كَانَ حَرِيصاً عَلَيْهَا». وَرَوَى بَعْضُهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ضَرَبَ لَهُ بِسَهْمِهِ وَأَجْرِهِ[2].

---

(١) أما ما رواه مسلم، وأحمد، وآخرون من قوله: «إيانا تريد يا رسول الله، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا». فذلك قبل المسير إلى بدر التي لم يشهدها سعد بن عبادة، أما الذي تكلم قبيل المعركة بما يشبه هذا المعنى فهو سعد بن معاذ.

(٢) لم يثبت ذلك.

وَلَمْ يَتَخَلَّفْ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ عَنْ مَشْهَدٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدَ بَدْرٍ أَبَداً، وَإِنَّمَا حَضَرَهَا جَمِيعَهَا. وَيُرْوَى أَنَّ رَايَةَ رَسُولِ اللَّهِ تَكُونُ بِيَدِّ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَرَايَةَ الأَنْصَارِ مَعَ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِي دَوْمَةِ الجَنْدَلِ

وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى دَوْمَةِ الجَنْدَلِ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الخَامِسَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا، إِذْ لَمْ يَلْقَ كَيْداً، فَرَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ. وَكَانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ مَعَهُ فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ، فَلَمَّا عَادَ وَجَدَ أُمَّهُ قَدْ تُوفِّيَتْ، وَهِيَ مِنَ اللَّوَاتِي بَايَعْنَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَتَى سَعْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ وَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهَا، فَصَلَّى عَلَيْهَا وَقَدْ أَتَى لَهَا شَهْرٌ.

وَاسْتَفْتَى سَعْدٌ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي نَذْرٍ كَانَ عَلَى أُمِّهِ فَتُوفِّيَتْ قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْضِهِ عَنْهَا.

وَأَتَى سَعْدٌ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ وَلَمْ تُوصِ فَهَلْ يَنْفَعُهَا أَنْ أَصَّدَّقَ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟. قَالَ: اسْقِ المَاءَ. فَجَعَلَ سِقَايَةً فِي المَسْجِدِ.

وَرُوِيَ أَنَّ سَعْداً قَد أَتَى النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي تُوفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا أَفَيَنْفَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّ حَائِطِي المِخْرَافَ صَدَقَةٌ عَنْهَا.

فِي غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ (١)

عِنْدَمَا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ وَاقْتَرَبَ مِنَ المَدِينَةِ، وَارْتَحَلَ بَعْدَ مَبِيتٍ،

---

(١) حدث خلاف في روايات تاريخ هذه الغزوة، تقول بعضها: إنها وقعت في شهر شعبان من العام الرابع للهجرة، وهو بعيد، حسب رأيي، ويقول بعضها: في شهر شعبان من العام الخامس للهجرة، وهو الأصح ـ حسب رأيي ـ ومنها ما يقول: في شعبان من العام السادس، وما أظن ذلك، فإن كان الرأي الأخير على غير ما أظن فإن المنازعة التي وقعت إنما هي بين أُسيد بن الحضير سيد الأوس وبين سعد بن عبادة سيد الخزرج لأن سعد ابن معاذ كان قد استشهد في أواخر السنة الخامسة إثر غزوة بني قريظة.

خَرَجَتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لِبَعْضِ حَاجَتِهَا، فَتَأَخَّرَتْ عَنِ الرَّكْبِ، وَكَانَتْ حَادِثَةُ الإِفْكِ، وَتَكَلَّمَ بَعْضُ النَّاسِ، وَتَوَلَّى كِبَرَ المَوْضُوعِ كَبِيرُ المُنَافِقِينَ عَبْدُاللَّهِ بنُ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَطَبَ فِي النَّاسِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ مَا بَالُ رِجَالٍ يُؤْذُونَنِي فِي أَهْلِي، يَقُولُونَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الحَقِّ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُمْ إِلاَّ خَيْرَاً، وَيَقُولُونَ ذَلِكَ لِرَجُلٍ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ إِلاَّ خَيْرَاً، وَمَا يَدْخُلُ بَيْتَاً مِنْ بُيُوتِي إِلاَّ وَهُوَ مَعِي.

فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تِلْكَ المَقَالَةَ، قَالَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ يَكُونُوا مِنَ الأَوْسِ نَكْفِكَهُمْ، وَإِنْ يَكُونُوا مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ فَمُرْنَا بِأَمْرِكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُمْ لأَهْلٌ أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ، فَقَامَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، لاَ تَضْرِبُ أَعْنَاقَهُمْ، أَمَا وَاللَّهِ مَا قُلْتَ هَذِهِ المَقَالَةَ إِلاَّ أَنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُمْ مِنَ الخَزْرَجِ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ قَوْمِكَ مَا قُلْتَ هَذَا! قَالَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، وَتَسَاوَرَ[1]

---

(١) تساور: قام بعضهم إلى بعض.

النَّـاسُ، حَتَّـى كَادَ يَكُونُ بَيْنَ هَذَيْنِ الحَيَّيْنِ مِنَ الأوْسِ وَالخَزْرَجِ شَرٌّ[1].

وَجَاءَ الوَحْيُ فَبَرَّأَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ

حَزَّبَ اليَهُودُ الأحْزَابَ لَغَزْوِ المَدِينَـةِ، فَخَرَجَـتْ قُرَيْشٌ، وَقَائِدُهَا أَبُو سُفْيَانَ بـنُ حَرْبٍ، وَخَرَجَـتْ غَطَفَـانُ، وَقَائِدُهَـا عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ فِي فَزَارَةَ، وخرج الحَارِثُ بنُ عَوْفٍ فِي بَنِي مُرَّةَ. فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا أَجْمَعُوا لَهُ مِنَ الأمْرِ، ضَرَبَ الخَنْدَقَ عَلَى المَدِينَةِ.

---

(١) كان عبدالله بن أبي بن سلول سيد الخزرج في الجاهلية، وكان قومه قبل الهجرة ينظمون له الخرز ليتوجوه، فلما جاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مهاجراً إلى المدينة ضاع عبدالله بن أبي وأمثاله، فكأنه يرى أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد استلبه ملكه، وهـذا ما أخـرّه عن إظهار الإسلام، وجعله كبير المنافقين.

وأصبح سعد بن عبادة، رضي الله عنه، سيد الخزرج الذين دخلوا في الإسلام، فلما أظهر ابن أبي الإسلام أصبح من أتباع سعد بن عبادة، وإن كان يرى في نفسه أكبر من سعد.

ومن واجب السيد أن يدافع عن أتباعه، ولذا اجتهد سعد ودافع عنه، وهو اجتهاد في غير محله، وليفوّت على أبي ادعاء الزعامة، ولذا فقد اتهم بما ذكرت، وجعل عائشة، رضي الله عنها، تقول في حديثها الذي روته عن حادثة الإفك: وكان يرى قبل ذلك رجلاً صالحاً.

وَجَاءَ الأحْزَابُ، وَنَقَضَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَهْدَهَا مَعَ المُسْلِمِينَ، وَاشْتَدَّ البَلاَءُ وَعَظُمَ المَوْقِفُ، وَعِنْدَهَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلى عُيَيْنَةَ بنِ حِصْنٍ، وَإِلَى الحَارِثِ بنِ عَوْفٍ المُرِّيِّ، وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ، فَأَعْطَاهُمَا ثُلُثَ ثِمَارِ المَدِينَةِ عَلَى أَنْ يَرْجِعَا بِمَنْ مَعَهُمَا عَنْهُ وَعَنْ أَصْحَابِهِ، فَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا الصُّلْحُ، حَتّى كَتَبُوا الكِتَابَ وَلَمْ تَقَعِ الشَّهَادَةُ وَلاَ عَزِيمَةُ الصُّلْحِ، إلاّ المُرَاوَضَةُ فِي ذَلِكَ. فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَفْعَلَ، بَعَثَ إِلَى سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُمَا، وَاسْتَشَارَهُمَا فِيهِ؛ فَقَالاَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمْراً تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْئاً أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ، لاَ بُدَّ مِنَ العَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْئاً تَصْنَعُهُ لَنَا؟ قَالَ: بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاللَّهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلاَّ لأَنَّنِي رَأَيْتُ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالبُوكُمْ[1] مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا؛ فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهؤُلاَءِ القَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِاللَّهِ، وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، لاَ نَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لاَ يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلاَّ قِرىً أَوْ بَيْعاً، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِالإِسْلاَمِ، وَهَدَانا لَهُ وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ، نُعْطِهِمْ أَمْوَالَنَا!

---

(١) كالبوكم: اشتدّوا عليكم.

وَاللَّهِ مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللَّهِ لاَ نُعْطِيهِمْ إِلاَّ السَّيْفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَنْتَ وَذَاكَ. فَتَنَاوَلَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ الصَّحِيفَةَ، فَمَحَا مَا فِيهَا مِنَ الكِتَابِ، ثُمَّ قَالَ: لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا.

ثُمَّ نَصَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ.

فِي فَتْحِ مَكَّةَ

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِفَتْحِ مَكَّةَ فِي العَاشِرِ مِنْ رَمَضَانَ لِلسَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ. وَكَانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ يَحْمِلُ لِوَاءَ الأَنْصَارِ، وَشَعَرَ أَنَّ قُرَيْشاً الَّتِي أَخْرَجَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ ذَلَّتْ، وَأَنَّ الرِّجَالَ الَّذِينَ قَدْ آذَوْا إِخْوَانَهُ المُسْلِمِينَ قَدْ خَنَعُوا، فَقَالَ: اليَوْمُ يَوْمُ المَلْحَمَةِ، اليَوْمُ تَسْتَحَلُّ الحُرُمَةُ، فَسَمِعَهَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْمَعْ مَا قَالَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، مَا نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي قُرَيْشٍ صَوْلَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ: أَدْرِكْهُ، فَخُذِ الرَّايَةَ مِنْهُ، فَكُنْ أَنْتَ الَّذِي تَدْخُل بِهَا. وَقِيلَ: بَلْ أُخِذَتِ الرَّايَةُ مِنْهُ وَأُعْطِيَتْ لابْنِهِ قَيْسِ بنِ سَعْدٍ.

فِي حُنَيْنٍ

لَمَّا سَمِعَتْ هَوَازِنُ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ مَكَّةَ، عبأت جموعها مع ثقيفٍ، ونصرٍ، وجُشَمَ كُلَّهَا، وَبَعْضِ بَنِي هِلاَلٍ. وَقَرَّرُوا السَّيْرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَلَمَا أُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِذَلِكَ سَارَ إِلَيْهِمْ بِاثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَاً، مِنْهُمْ عَشْرَةُ آلاَفٍ جَاءُوا مَعَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ لِلْفَتْحِ، وَأَلْفَانِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ. وَقَدْ أُعْجِبَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ بِكَثْرَتِهِمْ.

سَبَقَ الْمُشْرِكُونَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى حُنَيْنٍ وكَمَنُوا لَهُمْ، فَمَا أَنْ وَصَلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى ذَلِكَ الشِّعْبِ حَتَّى انْقَضَّ عَلَيْهِمُ الْمُشْرِكُونَ وَفَاجَؤُوهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَفَرَّ الْمُسْلِمُونَ وَثَبَتَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ مَنْ ثَبَتَ، وَأَمر عَمَّهُ العَبَّاسَ أَنْ يُنَادِيَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يَثُوبُوا إِلَى رُشْدِهِمْ فَانْتَبَهُوا وَعَادُوا إِلَى رَسُولِهِمُ الكَرِيمِ، وَحَمَلُوا عَلَى الْمُشْرِكِينَ حَمْلَةً عَنِيفَةً أَزَاحَتْهُمْ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ فَهُزِمُوا وَانْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ وَحَازُوا غَنَائِمَ كَثِيرَةً جِدَّاً. ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئَاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ

سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلى المُؤْمِنِينَ وَأَنْـزَلَ جُنُـوداً لَمْ تَرَوْهَـا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾[1] .

جُمِعَتِ السَّبَايَا وَالأَمْوَالُ وَالغَنَائِمُ كَافَّةً لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَارَ بَعْدَهَا إِلَى الطَّائِفِ فَحَاصَرَهَا، وَقَاتَلَ أَهْلَهَا ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهَا، وَسَارَ حَتَّى نَزَل (الجِعْرَانَةَ) فَجَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، وَاسْتَبْقَى الأَمْوَالَ، ثُمَّ وَزَّعَهَا فَأَعْطَى المُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ فِي قُرَيْشٍ وَفِي قَبَائِلِ العَرَبِ عَطَايَا كَثِيرَةً، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، فَوَجَدَ هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُمُ القَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُـولَ اللَّـهِ، إِنَّ هَذَا الحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ، لِمَا صَنَعْـتَ فِي هَذَا الفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِـكَ، وَأَعْـطَيْتَ عَطَايَا عِظَاماً فِي قَبَائِلِ العَرَبِ، وَلَـمْ يَكُ فِي هَذَا الحَـيِّ مِنَ الأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ. قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلاَّ مِنْ قَوْمِي. قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَـكَ فِي هَذِهِ الحَـظِيرَةِ. فَخَـرَجَ سَعْـدٌ، فَجَمَـعَ الأَنْصَـارَ فِي تِلْكَ

(١) سورة التوبة ٢٥ ـ ٢٦.

الحَظِيرَةِ. فَجاءَ رِجالٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ فتركَهُمْ، وَجاء آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ. فلَمَّا اجْتَمَعُوا لَهُ أَتَاهُ سَعْدٌ، فقَالَ: قَدِ اجْتَمعَ لَكَ هَذا الحَيُّ مِنَ الأنْصَارِ، فَأَتَاهُـمْ رَسُـولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ: مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُـوهَـا عَلَـيَّ فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ! قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّـهِ أَمَـنُّ وَأَفْضَلُ. ثُمَّ قَالَ: أَلاَ تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ؟ قَالُوا: بِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ المَنُّ وَالفَضْلُ. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ قُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَـاكَ، وَمَخْـذُولاً فَنصَرْنَـاكَ، وَطَـرِيداً فَآوَيْنَـاكَ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ. أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَـرَ الأنْصَـارِ فِي أَنْفُسِـكُمْ في لُعَاعَةٍ[1] مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمـاً لِيُسْلِمُـوا، وَوَكَلْتُـكُمْ إِلَـى إِسْلاَمِكُمْ، أَلاَ تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، أَنْ يَذْهَـبَ النَّـاسُ بِالشَّاةِ وَالبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِـكُمْ؟ فَوَالَّـذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْـرَأً مِنَ الأنْصَـارِ، وَلَـوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَسَلَكَتِ الأنْصَـارُ شِعْبـاً، لَسَلَـكْتُ شِعْـبَ

(١) بقلة خضراء ناعمة، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

الأنْصَارِ. اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأنْصَارِ، وَأبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأنْصَارِ.

فَبَكَى القَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قَسْمَاً وَحَظَّاً. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرَّقُوا.

فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ

تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ رَاضٍ عَنْ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ. وَشَعَرَ الأنْصارُ أَنَّهُ قَدْ غابَ عَنْهُمُ المُطَاعُ، الَّذِي يُوحَى إِلَيْهِ، الَّذِي نَظَّمَ الدَّوْلَةَ، وَشَعَرَ الأنْصَارُ أَنَّ مَدِينَتَهُمْ مُهَدَّدَةٌ مِنَ الأعْرَابِ وَرِجَالِ القَبَائِلِ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلِ الإيمَانُ إِلى قُلُوبِهِمْ، وَإِنَّمَا أَسْلَمُوا خَوْفَاً مِنَ القُوَّةِ، وَيَتَرَبَّصُونَ الدَّوَائِرَ بِالمَدِينَةِ، وَيَتَحَيَّنُونَ بِهَا الفُرَصَ، وَأَنَّ الرِّدَّةَ قَدْ ظَهَرَتْ فِي بَعْضِ المَنَاطِقِ قَبْلَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَشَعَرَ الأنْصارُ أَنَّهُمْ مُهَدَّدُونَ قَبْلَ غَيْرِهِمْ مِنْ قِبَلِ الأعْرَابِ وَرِجَالِ القَبَائِلِ لأِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَيَّدُوا المُهَاجِرِينَ، وَكَانُوا دَعَامَةَ الدَّوْلَةِ

الإِسْلاَمِيَّة الَّتِي أَخْضَعَتِ الأعْرَابَ وَخَضَدَتْ شَوْكَتَهُمْ.

وَشَعَرَ الأنْصَارُ أَنَّ المُهَاجِرِينَ رُبَّمَا عادُوا إِلى مَكَّةَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِهِمُ الكَرِيمِ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ، وَقَدْ ظَنُّوا هَذَا بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَكَلَّمُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكُلُّ هَذَا جَعَلَ الأنْصَارَ يَلْتَقُونَ وَيَبْحَثُونَ فِي هَذَا الأمْرِ، وَقَدِ اجْتَمَعُوا فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ وَاخْتَارُوا سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَمِيْرَاً عَلَيْهِمْ لِمُعَالَجَةِ المُشْكِلاَتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَنْجُمَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَتَعَرَّضَ لَهَا المَدِينَةُ.

أَمَّا المُهَاجِرُون فَقَدْ كَانُوا أَكْثَرَ بُعْدَاً عَنْ هَذَا المَوْضُوعِ، بَعْضُهُمْ شُغِلَ بِوَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَفْنِهِ، وَبَعْضُهُمْ لاَ تَزَالُ وَفَاةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَمْلأُ نَفْسَهُ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُفَكِّرْ فِي اخْتِيَارِ خَلِيفَةٍ بَعْدُ، إِذْ أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يُدْفَنْ بَعْدُ، وَلَمْ يُفَكِّرْ بِمَوْضُوعٍ رُبَّمَا يَقَعُ فِيْهِ خِلاَفٌ، أَوْ لَمْ يَكُنْ المُهَاجِرُونَ عَلَى تِلْكَ الحَسَاسِيَّةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الأنْصَارُ مِنْ حَيْثُ الخَوْف مِنَ الأعْرَابِ وَرِجَالِ القَبَائِلِ وَالخَوْفِ عَلَى المَدِينَةِ.

وَعَلِمَ المُهَاجِرُونَ بِاجْتِمَاعِ الأنْصَارِ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ

فَسَارَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بـنُ الخَطَّـابِ، وَأَبُـو عُبَيْدَةَ بـنُ الجَرَّاحِ ، وَجَرى حِوَارٌ وَنِقَاشٌ فِي مَوْضُوعِ الإمارة، وَرَأى الأَنْصَارُ أَنَّ الحَـقَّ لِلْمُهَاجِـرِينَ، وَأَنَّ وُجُـودَ الخِلاَفَـةِ فِيهِـمْ يُبْقِيهِـمْ فِي المَدِينَـةِ، وَفِـي بَقَائِهِـمْ قُوَّةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَوَحْـدَةٌ لِكَلِمَتِهِمْ، وَقُوَّةٌ لِلْمَدِينَةِ، وَمَنَعَـةٌ لَهَـا، وَإِخَافَـةٌ لِلأَعْـرَابِ، وَمَنْعِهِمْ مِنْ أَنْ يَعْتَدُوا عَلَيْهَا، وَلِذَا فَمِنَ الوَاجِبِ وَالمَصْلَحَـةِ التنازلُ عنِ الخِلاَفَةِ لِلْمُهَاجِرِينَ وَمُبَايَعَةُ أَحَدِهِمْ.

وَتَمَّتِ البَيْعَةُ لأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَبَـايَعَ الأَنْصَارُ كُلُّهُمْ سِوَى سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صَاحِبِ الحَسَاسِيَّةِ الخَاصَّةِ، وَالْغِيرَةِ الشَّدِيدَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُبْـدِ شَيْئَـاً، وَلَمْ يَقِفْ مَوْقِفاً مُخَالِفاً، وَإِنَّمَا بَقِيَ صَامِتاً، وَانْقَضَتْ خِلاَفَـةُ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَتْ مَوَاقِفُ سَعْدِ بـنِ عُبَـادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِيجَابِيَّةً، فِي بَعْثِ أُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَفِي حُرُوبِ الرِّدَّةِ، وَفِي كُلِّ المَوَاقِفِ، وَلَكِنَّـهُ بَعِيداً عَنِ الاحْتِكَاكِ بالأُمُورِ فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى شِبْهِ العُزْلَةِ.

وَفَاةُ سَعْدٍ

كَانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَجُـلاً صَرِيحَـاً، لاَ يَعْرِفُ المُسَايَرَةَ، وَشَدِيدَ التَّشَبُّثِ فِيمَـا يَرى أَنَّـهُ حَقٌّ، وَهَـذِهِ

الشِّدَّةُ قَدْ دفَعَتْهُ إِلَى مَوَاقِفَ كَانَتْ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ لَهُ، وَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَهَا، وَلَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ إِلاَّ إِعْلاَنَ مَا يَعْتَقِدُ دُونَ أَنْ يَحْمِلَ فِي نَفْسِهِ شَيْئاً آخَرَ.

وَتَوَلَّى عُمَرُ بنُ الخَطَّاب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الخِلاَفَةَ، وَرَأَى سَعْدُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الجِهَادِ، رَغْمَ تَقَدُّمِ السِّنِّ بِهِ، لِيَتَخَلَّصَ مِنْ شِبْهِ العُزْلَةِ الَّتِي يَحْيَاهَا، وَتَاقَتْ نَفْسُهُ لِلْجِهَادِ، وَرَغِبَ فِيْهِ حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَرَى سِوَاهُ أَمَامَهُ. وَالْتَقَى بِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِيهِ يَا سَعْدُ! فقَالَ لَهُ: إِيهِ يَا عُمَرُ! فقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ صَاحِبُ مَا أَنْتَ صَاحِبُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَقَدْ أَفْضَى إِلَيْكَ هَذَا الأَمْرُ، وَكَانَ صَاحِبُكَ وَاللَّهِ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْكَ، وَقَدْ أَصْبَحْتُ كَارِهاً لِجِوَارِكَ[1]. قَالَ لَهُ عُمَرُ: مَن كَرِهَ جِوَارَ جَارِهِ، تَحَوَّلَ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ: إِنِّي مُتَحَوِّلٌ إِلَى جِوَارِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ[2].

وَسَارَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ إِلَى الشَّام، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ بِحَوْرَانَ مِنْ أَعْمَالِ بِلاَدِ الشَّامِ جَنُوبِ دِمَشْقَ، وَذَلِكَ فِي السَّنَةِ الخَامِسَةِ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ، وَشَاعَتْ الرِّوَايَاتُ بِمَوْتِهِ وَعَنْ

---

(١) راغباً في الجهاد.

(٢) شعر بدنو الأجل، ويقصد أنه متحول إلى جوار ربه.

مَوْتِهِ، فَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّهُ بَالَ وَاقِفاً فِي جَحْرٍ، فَقَتَلَتْهُ الجِنُّ، وَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّهُ لَمْ يُعْلَمْ بِمَوْتِهِ بِالمَدِينَةِ حَتَّى سَمِعَ غِلْمَانٌ يَسِيرُونَ فِي نَصْفِ النَّهَارِ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الحَرِّ قَائِلاً فِي بِئْرٍ يَقُولُ:

قَدْ قَتَلْنَا سَيِّدَ الخزْ
رَجِ سَعْدَ بنَ عُبَادَهْ
وَرَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْـ
ـنِ فَلَمْ نُخْطِ فُؤَادَهْ

وَتُنْسَبُ لَهُ قَرْيَةُ «الشَّيْخِ سَعْدٍ» فِي حَوْرَانَ إِلى الجَنُوبِ مِنْ بَلْدَةِ «نَوى» بَيْنَهَا وَبَيْنَ دَرْعَا، وَيُقَالَ: إِنَّهُ مَاتَ فِيهَا، وَدُفِنَ هُنَاكَ. كَمَا يُنْسَبُ لَهُ قَبْرٌ فِي قَرْيَةِ المُنَيْحَةِ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ دِمَشْقَ، وَفِي غُوطَتِهَا، إِلَى الشَّرْقِ مِنْهَا.

وَكَانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ إِلَى الشَّامِ قَدْ قَسَّمَ أَمْوَالَهُ وَأَمْلاَكَهُ بَيْنَ أَوْلاَدِهِ.

كَانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِضَافَةً إِلى صَرَاحَتِهِ، يَقُولُ مَا يَجُولُ فِي خَاطِرِهِ بِسُرْعَةٍ، وَيُعَلِّلُ ذَلِكَ، وَيَتَمَسَّكُ بِهِ، هَذَا إِضَافَةً إِلَى الغِيرَةِ الكثيرة لَدَيْهِ، وَالدِّفَاعِ عَنْ قَوْمِهِ، وَمُحَاوَلَةِ إِيجادِ المُبَرِّرَاتِ.

يُرْوى أَنَّهُ لَمَا نَزلَتْ آيَةُ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُـونَ المُحْصَنَـاتِ﴾[1] قَالَ سَعْدُ سَيِّدَ الأنْصَارِ: هَكَذَا أُنْزِلَتْ يَا رَسُولَ اللَّـهِ؟ فقـال النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، أَلاَ تَسْمَعُونَ إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدِكُمْ؟ قَالُوا: لاَ تَلُمْهُ! فَإِنَّـهُ غَيُورٌ، وَاللَّـهِ مَا تَزَوَّجَ امْرَأَةً قَطُّ إِلاَّ بِكْرَاً، وَلاَ طَلَّقَ امْرَأَةً قَطُّ فَاجْتَرَأَ أَحَـدٌ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا[2]. فَقَالَ سَعْدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّـهِ لأعْلَـمُ أَنَّهَـا حَقٌّ، وَأَنَّهَا مِنَ اللَّهِ، وَلَكِنِّي قَدْ تَعَجَّبْتُ أَنْ لَوْ وَجَدْتُ لَكَاعِ قَدْ تَفَخَّذَهَا رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ لِي أَنْ أُهَيِّجَهُ وَلاَ أُحَرِّكَهُ حَتَّى آتِيَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، فَلاَ آتِي بِهِمْ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ.

رَوَى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تِسْعَةَ أَحَادِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) سورة النور: الآية ٤: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلُدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَـادَةً أَبَـدَاً وَأُولَئِـكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾.

(٢) لا يمكن أن يتصوّر رجلاً سبقه على امرأة، ولا أن يحلّ مكانه آخر.

بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام
- ٣٠ -

الجوادُ بْنُ الجَواد

قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَة

رَضِيَ الله عنهما

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّـهِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ، وَخَاتَـمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَـامِ المُتَّقِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ إِلَـى يَوْمِ الـدِّينِ

أما بعد:

فَإِنَّ صِفَةً وَاحِدَةً فِي المَرْءِ قَدْ تَكُونُ بَارِزَةً فِيهِ فَتُظْهِرُهُ سَوَاء أَكَانَتْ فِي الخُلُقِ أَمْ فِي الخِلْقَةِ، فَكَمْ مِنْ قَصِيرٍ عُرِفَ؟ وَكَمْ مِنْ طَوِيلٍ اشْتُهِرَ؟ وَكَمْ مِنْ جَوَادٍ ذَاعَ صِيتُهُ؟ وَكَمْ مِنْ شُجَاعٍ سَجَّلَتِ الرِّوَايَاتُ قَصَصَ بُطُولَتِهِ؟ وَكَمْ مِنْ دَاهِيَةٍ مَلأَتْ أَخْبَارُ ذَكَائِهِ الكُتُبَ فَبَرَزَ بَيْنَ الأَعْلاَمِ. أَمَّا قَيْسُ بنُ سَعْدٍ فَقَدِ امْتَازَ بِعِدَّةِ صِفَاتٍ تَكْفِي كُلُّ صِفَةٍ أَنْ تَجْعَلَ مِنَ الرَّجُلِ عَظِيماً.

لَقَدْ كَانَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ سَيِّدَ الأَنْصَارِ مِنْ غَيْرِ مُدَافِعٍ وَابْـنَ سَيِّدِهِمْ مِنْ غَيْرِ مُنَازِعٍ.

وَكَانَ أَحَدَ الأَجْوَادِ المَشْهُورِينَ حَتَّى سَارَتِ الرُّكْبَانُ بِكَرَمِهِ،

وَلَمْ يكُنْ أَحَـدٌ إلاَّ وَيَعْـرِفُ هَذِهِ السِّمَـةَ فِيهِ، وَفِـي أَبِيهِ. فَيأْتِيهِ أَصْحَابُ الحَاجَةِ، وَيَنْحَرُ لِلجَّائِعِينَ، وَيُعْطِي مَنْ يَطْلُبُ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ بِكَرَمِهِ.

وَكَانَ دَاهِيَةً يَعْجزُ أَهْلُ الدَّهَاءِ عَنْ مُجَارَاتِهِ، وَيَقِفُ أَهْـلُ المَكْرِ حَيَارَى أَمَامَ حِيَلِهِ، وَأَهْلُ الخِدَاعِ مُفَكِّرِينَ فِي خِطَطِهِ.

وَيُعَدُّ مِنَ الأَبْطَالِ المَشْهُورِينَ يَخَافُـهُ الخُصُـومُ، وَيَرْهَبُـهُ الأَعْدَاءُ وَتَحْسَبُ الجُيُوشُ لَهُ حِسَاباً، يَتَقَدَّمُ الجَحَافِلَ غَيْرَ مُبَالٍ بِالَّذِينَ أَمَامَهُ يَفِلُّ حَدَّهُمْ، وَيَخْضُـدُ شَوْكَتَهُـمْ، فَيَتَرَاجَعُـونَ، وَيَعُودُ بِالغُنْمِ.

وَيُعَدُّ مِنَ القَادَةِ المُوَفَّقِينَ، قَادَ السَّرَايَا، وَتَقَدَّمَ الجُمُوعَ، وَهَزَمَ الرِّجَالَ، وَتَرَاجَعَتْ أَمَامَهُ القُوَاتُ. وَتَوَلَّى الإِمَارَةَ فَضَبَطَ المِصْرَ، وَنَجَحَ فِي كَسْبِ وُدِّ الرَّعِيَّةِ.

خَطِيبٌ مُفَوَّهٌ، وَشَاعِرٌ سَعِيدٌ، وَمَهْمَـا أَعْطَيْتُـهُ مِنْ صِفَـاتِ الخَيْرِ فَلَنْ أُوَفِّيَهُ حَقَّهُ، وَمَا نَظَرْتُ فِي سِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَخُلُقٍ كَرِيمٍ إلاَّ رَأَيْتُ أَنَّهُ قَدِ امْتَازَ بِذَلِكَ.

فَهُوَ سَيِّدٌ، أَمِيرٌ، خَطِيبٌ، بَطَلٌ، كَرِيمٌ، طَوِيلُ الجِسْمِ، طَوِيلُ اليَدِ فِي العَطَـاءِ، طَوِيلُ النِّجَـادِ فِي الحَـرْبِ، طَوِيلُ

البَاعِ فِي الكَلاَمِ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

وَرِثَ قَيْسٌ الجُودَ وَالشَّجَاعَةَ، وَجَاءَ الإِسْلاَمُ فَشَحَذَ طِبَاعَهُ، وَأَلاَنَ دَهَاءَهُ، وَوَضَعَ جُودَهُ وَشَجَاعَتَهُ فِي مَوْضِعِهِمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَكَانَ هَذَا الرَّجُلَ العَظِيمَ قَيْسَ بنَ سَعْدٍ.

جِسْمُ قَيْسٍ

كَانَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ رَجُلاً ضَخْمَاً جَسِيماً، صَغيرَ الرَّأْسِ، لَهُ لِحْيَةٌ فِي ذَقْنِهِ وكَانَ إِذَا رَكِبَ الحِمَارَ العَالِي خَطَّتْ رِجْلاهُ بِالأَرْضِ.

● وَفدَ عَلَى مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَأَكْرَمَهُ مُعَاوِيَةُ، وَقَدَّمَهُ، وَحَظِيَ عِنْدَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ مَعَ الوُفُودِ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ إِذْ قَدِمَ كِتَابُ مَلِكِ الرُّومِ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفِيهِ: أَنِ ابْعَثْ إِليَّ بِسَرَاوِيلَ أَطْوَلِ رَجُلٍ فِي العَرَبِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا أَرَانَا إِلاَّ قَدِ احْتِجْنَا إِلَى سَرَاوِيلِكَ؟ ـ وَكَانَ قَيْسٌ مَدِيدُ القَامَةِ جِدَّاً لاَ يَصِلُ أَطْوَلُ الرِّجَالِ إِلى صَدْرِهِ ـ فَقَامَ قَيْسٌ فَتَنَحَّى ثُمَّ خَلَعَ سَرَاوِيلَهُ فَأَلْقَاهَا إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَوْ ذَهَبْتَ إِلَى مَنْزِلِكَ ثُمَّ أَرْسَلْتَ بِهَا إِلَيْنَا، فَأَنْشَأَ قَيْسٌ يَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ:

أَرَدْتُ بِهَا كَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا
سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالوُفُودُ شُهُودُ

وَأَلاَّ يَقُولُـوا غَابَ قَيْسٌ وَهَذِهِ
سَـرَاوِيلُ عَادِيٍّ نَمَتْـهُ ثَمُودُ
وَإِنِّـي مِنَ الحَـيِّ اليَمَانِـيِّ لَسَيِّدٌ
وَمَـا النَّـاسُ إِلاَّ سَيِّدٌ وَمَسُودُ
فَكِدْهُـمْ بِمِثْلِـي إِنَّ مِثْلِـي عَلَيْهِمُ
شَـدِيدٌ وَخَلْقِـي فِي الرِّجَـالِ مَدِيدُ
وَفَضَّلَنِـي فِي النَّـاسِ أَصْـلٌ وَوَالِدٌ
وَبَـاعٌ بِهِ أَعْلُـو الرِّجَـالَ سَدِيدُ

فَأَمَرَ مُعَاوِيَةُ أَطْوَلَ رَجُلٍ فِي الوَفْدِ فَوَضَعَهَا عَلَى أَنْفِهِ فَوَقَعَتْ بِالأَرْضِ.

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ مَلِكَ الرُّومِ بَعَثَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِرَجُلَيْنِ مِنْ جَيْشِهِ يَزْعُمُ أَنَّ أَحَدَهُمَا أَقْوَى الرُّومِ، وَالآخَرَ أَطْوَلُ الرُّومِ، فَانْظُرْ فِي قَوْمِكَ مَنْ يَفُوقُهُمَا فِي قُوَّةِ هَذَا وَطُولِ هَذَا؟ فَإِنْ كَانَ فِي قَوْمِكَ مَنْ يَفُوقُهُمَا بَعَثْتُ إِلَيْكَ مِنَ الأَسَارَى كَذَا وَكَذَا، وَمِنَ التُّحَفِ كَذَا وَكَذَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي جَيْشِكَ مَنْ هُوَ أَقْوَى وَأَطْوَلُ مِنْهُمَا فَهَادِنِي ثَلاَثَ سِنِينَ. فَلَمَّا حَضَرَا عِنْدَ مُعَاوِيَةَ قَالَ: مَنْ لِهَذَا القَوِيِّ؟ فَقَالُوا: مَا لَهُ إِلاَّ أَحَدَ رَجُلَيْنِ إِمَّا مُحَمَّدُ بنُ الحَنَفِيَّةِ، أَوْ عَبْدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ. فَجِيءَ

بِمُحَمَّدِ بن ِ الحَنَفِيَّةِ ـ وَهُوَ ابنُ عَلِيٍّ بن ِ أَبِـي طَالِـبٍ، فَلَمَّـا اجْتَمعَ النَّاسُ عِنْدَ مُعاوِيَةَ قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: أَتعْلَمُ فِيمَ أَرسَلْتُ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لاَ! فَذَكَرَ لَهُ أَمْـرَ الرُّومِـيِّ وَشِـدَّةَ بَأْسِـهِ، فَقَـالَ لِلرُّومِيِّ: إِمَّا أَنْ تَجلِسَ لِي أَوْ أَجْلِسَ إِلَيْكَ، وَتُنَاوِلُنِي يَدَكَ أَوْ أُنَاوِلُكَ يَدِي، فَأَيُّنَا قَدِرَ عَلَى أَنْ يُقِيمَ الآخَرَ مِنْ مَكَانِهِ، غَلَبَهُ، وَإِلاَّ غُلِـبَ. فَقَـالَ لَهُ: مَاذَا تُرِيدُ؟ قَالَ: تَجلِسُ أَوْ أَجلِسُ؟ فَقَالَ لَهُ الرُّومِيُّ: بَلْ اجْلِسْ أَنْتَ، فَجَلَسَ مُحَمَّدُ بنُ الحَنَفِيَّةِ، وَأَعْطَى الرُّومِيَّ يَدَهُ فَاجْتَهَدَ الرُّومِيُّ بِكُلِّ مَا يقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ القُوَّةِ أَنْ يُزِيلَهُ مِنْ مَكَانِهِ أَوْ يُحَرِّكَهُ لِيُقِيمَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ، وَلاَ وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، فَغُلِبَ الرُّومِيُّ، عِنْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ لِمَـنْ مَعَـهُ مِنَ الوُفُودِ مِنْ بِلاَدِ الرُّوم ِ أَنَّهُ قَدْ غُلِبَ. ثُمَّ قَامَ مُحَمَّدُ بنُ الحَنَفِيَّةِ فَقَالَ لِلرُّومِيِّ: اجْلِسْ لِي، فَجَلَسَ وَأَعْطَـى مُحَمَّـداً يَدَهُ فَمَـا أَمْهَلَهُ أَنْ أَقَامَهُ سَرِيعَـاً، وَرَفَعَـهُ فِي الهَـوَاءِ ثُمَّ أَلْقَـاهُ عَلَـى الأَرْض ِ فَسُرَّ بِذَلِكَ مُعَاوِيَةُ سُرُوراً عَظِيماً. وَنَهَضَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ فَتَنَحَّى عَن ِ النَّاس ِ، ثُمَّ خَلَعَ سَرَاوِيلَهُ وَأَعْطَاهَـا لِذَلِكَ الرُّومِيِّ الطَوِيل ِ فَلَبِسَهَا، فَبَلَغَتْ إِلَى ثَدْيَيْهِ، وَأَطْرَافُهَـا تَخُـطُّ بِالأَرْض ِ، فَاعْتَرَفَ الرُّومِيُّ بِالغُلْبِ، وَبَعَـثَ مَلِكُهُـمْ مَا كَانَ الْتَزَمَهُ لِمُعَاوِيَةَ. وَعَاتَـبَ الأَنْصَـارُ قَيْسَ بـنَ سَعْـدٍ فِي خَلْعِـهِ سَرَاوِيلَهُ بِحَضْرَةِ النَّاس ِ، فَقَالَ: ذَلِكَ الشِّعْرَ المُتَقَدِّمَ مُعْتَـذِراً

بِهِ إِلَيْهِمْ، ولِيكُونَ ذَلِكَ أَلْزَمَ لِلْحِجَّةِ الَّتِي تَقومُ عَلَى الرُّومِ، وَأَقْطَعَ لَوْ حَاوَلُوه[1].

وَكَانَ قَيْسٌ مَوْصُوفاً مَعَ جَمَاعَةٍ قَدْ بَذُّوا النَّاسَ طُولاً وَجَمالاً مِنْهُمْ: العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَوَلَدُهُ، وَجَرِيرُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ البَجَلِيُّ، وَالأَشْعَثُ بنُ قَيْسٍ الكِنْدِيُّ، وَعَدِيُّ بنُ حَاتِمٍ الطَّائِيُّ، وَابْنُ جِذْلِ الطَّعَّانُ الكِنَانِيُّ، وَأَبُو زُبَيْدٍ الطَّائِيُّ، وَزَيْدُ الخَيْلِ بنُ مُهَلْهَلٍ الطَّائِيُّ. وَكَانَ أَحَدُ هَؤُلاءِ يُقَبِّلُ المَرْأَةَ عَلَى الهَوْدَجِ، وَكَانَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ مُقَبِّلُ الظُّعُنِ[2].

وَكَانَ قَيْسٌ سِنَاطاً[3] فَكَانَتِ الأَنْصَارُ تَقُولُ: لَوَدِدْنَا أَنَّا اشْتَرَيْنَا لَهُ لِحْيَةً بِأَنْصَافِ أَمْوَالِنَا[4].

جُودُ قَيْسٍ

● بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبَا عُبَيْدَةَ فِي

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) الكامل للمبرد المتوفي ٢٨٥.

(٣) السِناط والسنَوط: أن يكون في الذقن شيء من الشعر، ولا يكون في العارضين شيء، فإن لم يكن فيهما جميعاً شيء فهو الثط.

(٤) الكامل المصدر نفسه.

سَرِيَّةٍ فِيهَا المُهَاجِرونَ وَالأَنْصَارَ، وَهُمْ ثَلاثُمِائَةٍ، إِلَى سَاحِلِ البَحْرِ إِلَى حَيٍّ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَصَابَهُمْ جُوعٌ شَدِيدٌ. فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِالزَّادِ، فَجُمِعَ؛ حَتَّى كَانُوا يَقْتَسِمُونَ التَّمْرَةَ. فَقَالَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ: مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي تَمْراً بِجُزُرٍ، يوَفِّينِي الجُزُرَ هَا هُنَا وَأُوفِّيهِ التَّمْرَ بِالمَدِينَةِ. فَجَعَلَ عُمَرُ يَقُولُ: يَا عَجَباً لِهَذَا الغُلاَمِ يَدَّيَّنُ فِي مَالِ غَيْرِهِ. فَوَجَدَ رَجُلاً مِنْ جُهَيْنَةَ، فَسَاوَمَهُ، فَقَالَ: مَا أَعْرِفُكَ! قَالَ: أَنَا قَيْسُ بنُ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ بنِ دُلَيمٍ. فَقَالَ: مَا أَعْرَفَنِي بِنَسَبِكَ، أَمَا إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدٍ خُلَّةً سَيِّدِ أَهْلِ يَثْرِبَ، فَابْتَاعَ مِنْهُ خَمْسَ جَزَائِرَ، كُلُّ جَزُورٍ بِوَسَقَيْنِ مِنْ تَمْرٍ، وَأَشْهَدَ لَهُ نَفَراً. فَقَالَ عُمَرُ: لاَ أَشْهَدُ يَدَّيَّنُ وَلاَ مَالَ لَهُ، إِنَّمَا المَالُ لأَبِيهِ، فَقَالَ الجُهَنِيُّ: وَاللَّهِ مَا كَانَ سَعْدُ لِيُخْنِيَ بِابْنِهِ فِي شِقَّةٍ مِنْ تَمْرٍ، وَأَرَى وَجْهاً حَسَناً، فَنَحَرَهَا لَهُمْ فِي ثَلاَثَةِ مَوَاطِنَ. فَلَمَّا كَانَ فِي اليَوْمِ الرَّابِعِ نَهَاهُ أَمِيرُهُ، وَقَالَ: تُرِيدُ أَنْ تَخْرِبَ ذِمَّتَكَ وَلاَ مَالَ لَكَ.

وَيُرْوَى أَنَّهُ أَقْبَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ وَمَعَهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ لِقَيْسٍ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ أَلاَّ تَنْحَرَ، أَتُرِيدُ أَنْ تَخْفِرَ ذِمَّتَكَ وَلاَ مَالَ لَكَ؟ فَقَالَ قَيْسٌ: يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، أَتُرَى أَبَا ثَابِتٍ وَهُوَ يَقْضِي دَيْنَ النَّاسِ،

وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيُطْعِمُ فِي المَجَاعَةِ، لاَ يَقْضِي سِقَةَ تَمْرٍ لِقَوْمٍ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ! فَكَادَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنْ يَلِينَ لَهُ وَيَتْرُكُهُ حَتَّى جَعَلَ عُمَرُ يَقُولُ: اعْزِمْ عَلَيْهِ! فَعَزَمَ عَلَيْهِ فَأَبَى عَلَيْهِ أَنْ يَنْحَرَ. فَبَقِيَتْ جَزُرَانِ مَعَهُ، حَتَّى وَجَدَ القَوْمُ الحُوتَ(١)، فَقَدِمَ بِهِمَا قَيْسٌ المَدِينَةَ ظَهْراً يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهَا.

وَبَلَغَ سَعْدٌ مَا كَانَ أَصَابَ القَوْمَ مِنَ المَجَاعَةِ فَقَالَ: إِنْ يَكُنْ قَيْسٌ كَمَا أَعْرِفُهُ فَسَوْفَ يَنْحَرُ لِلْقَوْمِ. فَلَمَّا قَدِمَ قَيْسٌ لَقِيَهُ سَعْدٌ فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ فِي مَجَاعَةِ القَوْمِ حَيْثُ أَصَابَهُمْ؟ قَالَ نَحَرْتُ. قَالَ: أَصَبْتَ، انْحَرْ! قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: نَحَرْتُ. قَالَ: أَصَبْتَ! ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: نَحَرْتُ. قَالَ: أَصَبْتَ، انْحَرْ! قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: نُهِيتُ. قَالَ: وَمَنْ نَهَاكَ؟ قَالَ: أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ أَمِيرِي. قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: زَعَمَ أَنَّهُ لاَ مَالَ لِي، وَإِنَّمَا المَالُ لأَبِيكَ. فَقُلْتُ: أَبِي يَقْضِي عَنِ الأَبَاعِدِ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيُطْعِمُ فِي المَجَاعَةِ، وَلاَ يَصْنَعُ هَذَا بِي! قَالَ: فَلَكَ أَرْبَعُ حَوَائِطَ. وَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ كِتَاباً، وَأَتَى بِالكِتَابِ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ فَشَهِدَ فِيهِ، وَأَتَى عُمَرَ فَأَبَى أَنْ يَشْهَدَ فِيهِ، وَأَدْنَى حَائِطٍ مِنْهَا يَجُذُّ خَمْسِينَ وَسَقاً. وَقَدِمَ البَدَوِيُّ مَعَ قَيْسٍ فَأَوْفَاهُ

---

(١) ألقى لهم البحر حوتاً كبيراً أكل منه القوم اثنتي عشرة ليلة.

سِقَتَهُ وَحِمْلَهُ وَكَسَاهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِعْلُ قَيْسٍ فَقَالَ: إِنَّهُ فِي بَيْتِ جُودٍ[1].

● يَرْوِي ابنُ عَسَاكِرَ أَنَّ قَيْساً كَانَ يَسْتَدِينُ وَيُطْعِمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ: إِنْ تَرَكْنَا هَذَا الفَتَى أَهْلَكَ مَالَ أَبِيهِ، فَمَشَيَا فِي النَّاسِ، فَقَامَ سَعْدُ عِنْدَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: مَنْ يَعْذِرُنِي مِن ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ وابْنِ الخَطَّابِ، يُبَخِّلاَنِ عَلَيَّ ابْنِي.

● وَقَفَتْ عَلَى قَيْسٍ عَجُوزٌ، فَقَالَتْ: أَشْكُو إِلَيْكَ قِلَّةَ الجِرْذَانِ. فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذِهِ الكِنَايَةَ، امْلَؤُوا بَيْتَهَا خُبْزاً وَلَحْماً وَسَمْناً وَتَمْراً.

● كَانَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ يُطْعِمُ النَّاسَ فِي أَسْفَارِهِ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ إِذَا نَفِذَ مَا مَعَهُ آسْتَدَانَ، وَكَانَ يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ، هَلُمُّوا إِلَى اللَّحْمِ وَالثَّرِيدِ.

● بَاعَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ مَالاً مِنْ مُعَاوِيَةَ بِتِسْعِينَ أَلْفاً، فَأَمَرَ مَنْ نَادَى فِي المَدِينَةِ، مَنْ أَرَادَ القَرْضَ، فَلْيَأْتِ. فَأَقْرَضَ

---

(١) انظر المغازي للواقدي، والسيرة الحلبية، وسير أعلام النبلاء.

أَرْبَعِينَ أَلْفاً، وَأَجَازَ بِالبَاقِي، وَكَتَبَ عَلَى مَنْ أَقْرَضَهُ. فَمَرِضَ مَرضاً قَلَّ عُوَّادُهُ، فَقَالَ لَزَوْجَتِهِ قُرَيْبَةَ أُخْتِ الصِّدِّيقِ: لِمَ قَلَّ عُوَّادِي؟ قَالَتْ: لِلدَّيْنِ، فَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ بِصَكِّهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي مَالاً وَفَعَالاً، فَإِنَّهُ لاَ تَصْلُحُ الفَعَالُ إِلاَّ بِالمَالِ.

● قَسَّمَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ مَالَهُ بَيْنَ وَلَدِهِ، وَخَرَجَ إِلَى الشَّامِ، فَمَاتَ، وَوُلِدَ لَهُ وَلَدٌ بَعْدُ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ إِلَى ابْنِهِ قَيْسٍ، فَقَالاَ: نَرَى أَنْ تَرُدَّ عَلَى هَذَا، فَقَالَ: مَا أَنَا بِمُغَيِّرٍ شَيْئاً صَنَعَهُ سَعْدٌ، وَلَكِنْ نَصِيبِي لَهُ.

● اخْتَلَفَ ثَلاَثَةٌ عِنْدَ الكَعْبَةِ فِي أَكْرَمِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بنُ جَعْفَرٍ، وَقَالَ الآخَرُ: قَيْسُ بنُ سَعْدٍ، وَقَالَ الثَّالِثُ: عَرَابَةُ الأَوْسِيُّ، فَتَمَارُوا فِي ذَلِكَ حَتَّى ارْتَفَعَ ضَجِيجُهُمْ عِنْدَ الكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُمْ رَجُلٌ: فَلْيَذْهَبْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ إِلَى صَاحِبِهِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ أَكْرَمُ مِنْ غَيْرِهِ، فَلْيَنْظُرْ مَا يُعْطِيهِ وَلْيَحْكُمْ عَلَى العَيَانِ. فَذَهَبَ صَاحِبُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ جَعْفَرٍ إِلَيْهِ فَوَجَدَهُ قَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الغَرْزِ لِيَذْهَبَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ! ابنُ سَبِيلٍ وَمُنْقَطِعٌ بِهِ، قَالَ: فَأَخْرَجَ رِجْلَهُ مِنْ الغَرْزِ وَقَالَ: ضَعْ رِجْلَكَ وَاسْتَوِ عَلَيْهَا

فَهِيَ لَكَ بِمَا عَلَيْهَا، وَخُذْ مَا فِي الحَقِيبَةِ، وَلاَ تَحِدْ عَنِ السَّيْفِ فَإِنَّهُ مِنْ سُيُوفِ عَلِيٍّ، فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِنَاقَةٍ عَظِيمَةٍ وَإِذَا فِي الحَقِيبَةِ أَرْبَعَةُ آلاَفِ دِينَارٍ، وَمَطَارِفَ مِنْ خَزٍّ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَأَجَلُّ ذَلِكَ سَيْفُ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَمَضَى صَاحِبُ قَيْسٍ فَوَجَدَهُ نَائِماً، فَقَالَتْ لَهُ الجَارِيَةُ: مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: ابنُ سَبِيلٍ وَمُنْقَطِعٌ بِهِ، قَالَتْ: فَحاجَتُكَ أَيْسَرُ مِنْ إِيْقَاظِهِ، هَذَا كِيسٌ فِيهِ سَبْعُمِائَةِ دِينَارٍ مَا فِي دَارِ قَيْسٍ مَالٌ غَيْرُهُ اليَوْمَ، وَاذْهَبْ إِلَى مَوْلاَنَا فِي مَعَاطِنِ الإِبِلِ فَخُذْ لَكَ نَاقَةً وَعَبْداً، وَاذْهَبْ رَاشِداً. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ قَيْسٌ مِنْ نَوْمِهِ أَخْبَرَتْهُ الجَارِيَةُ بِمَا صَنَعَتْ، فَأَعْتَقَهَا شُكْراً عَلَى صَنِيعِهَا ذَلِكَ، وَقَالَ: هَلاَّ أَيْقَظْتِينِي حَتَّى أُعْطِيهُ مَا يَكْفِيهِ أَبَداً، فَلَعَلَّ الَّذِي أَعْطَيْتِيهِ لاَ يَقَعُ مِنْهُ مَوْقِعَ حَاجَتِهِ.

وَذَهَبَ صَاحِبُ عَرَابَةَ الأَوْسِيِّ إِلَيْهِ فَوَجَدَهُ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ يُرِيدُ الصَّلاَةَ، وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَبْدَيْنِ لَهُ ـ وَقَدْ كَفَّ بَصَرُهُ ـ فَقَالَ: يَا عَرَابَةُ! فَقَالَ: قُلْ، فَقَالَ: ابنُ سَبِيلٍ وَمُنْقَطِعٌ بِهِ، قَالَ: فَخَلَّى عَنِ العَبْدَيْنِ ثُمَّ صَفَّقَ بِيَدَيْهِ، بِاليُمْنَى عَلَى اليُسْرَى، ثُمَّ قَالَ: أَوَّه أَوَّه، واللَّهِ مَا أَصْبَحْتُ وَلاَ أَمْسَيْتُ وَقَدْ تَرَكَتِ الحُقُوقُ مِنْ مَالِ عَرَابَةَ شَيْئاً، وَلَكِنْ خُذْ

هَذَيْنِ العَبْدَيْنِ ، قَالَ: مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ، فَقَالَ: إِنْ لَمْ تَأْخُذْهُمَا فَهُمَا حُرَّانِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَعْتِقْ، وَإِنْ شِئْتَ فَخُذْ. وَأَقْبَلَ يَتَلَمَّسُ الحَائِطَ بِيَدِهِ، قَالَ: فَأَخَذَهمَا وَجَاءَ بِهِمَا إِلَى صَاحِبَيْهِ، قَالَ: فَحَكَمَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ ابنَ جَعْفَرٍ قَدْ جَادَ بِمَالٍ عَظِيمٍ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ لَهُ، إِلاَّ أَنَّ السَّيْفَ أَجَلُّهَا. وَأَنَّ قَيْساً أَحَدُ الأَجْوَادِ، حَكَّمَ مَمْلُوكَتَهُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ وَاسْتَحْسَنَ فِعْلَهَا وَشَكَرَ لَهَا عَلَى مَا فَعَلَتْ. وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ أَسْخَى الثَّلاَثَةِ عَرَابَةُ الأَوْسِيُّ؛ لأَنَّهُ جَادَ بِجَمِيعِ مَا يَمْلِكُهُ، وَذَلِكَ جَهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ[1].

وَيَجِبُ أَنْ نُلاَحِظَ أَنَّ أُعْطِيَةَ قَيْسٍ لَمْ تَكُنْ أُعْطِيَةً مِنْهُ مُبَاشَرَةً، وَإِنَّمَا إِعْطَاءُ مَمْلُوكَتِهِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَعطى لَقَدَّمَ لَهُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، بِحَيْثُ يَكْفِيهِ أَبَداً.

● اقْتَرَضَ رَجُلٌ مِنْ قَيْسِ بنِ سَعْدٍ ثَلاَثِينَ أَلْفاً، فَلَمَّا جَاءَ لِيُوفِّيَهُ إِيَاهَا قَالَ لَهُ قَيْسٌ: إِنَّا قَوْمٌ مَا أَعْطَيْنَا أَحَداً شَيْئاً فَنَرْجِعَ فِيهِ.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ وفيات عام ٥٩.

شَجَاعَةُ قَيْسٍ

● بَعْدَ مُغَادَرَةِ قَيْسٍ مِصْرَ اتَّجَهَ نَحْوَ المَدِينَةِ فَتوامَرَ فِيهِ الأَسْوَدُ بنُ أَبِي البَخْتَرِيِّ ، وَمَرْوَانُ أَن يُبَيِّتَاهُ، وَبَلَغَ ذَلِكَ قَيْساً، فقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ هذَا لَقَبِيحٌ أَنْ أُفَارِقَ عَلِيّاً وَإِنْ عَزَلَنِي، وَاللَّهِ لأَلْحَقَنَّ بِهِ، وَحَدَّثَهُ بِمَا كَانَ يَعْتَمِدُ بِمِصْرَ. فَعَرَفَ عَلِيٌّ أَنَّ قَيْساً كَانَ يُدَارِي أَمْرَاً عَظِيماً بِالمَكِيدَةِ، فَأَطَاعَ عَلِيٌّ قَيْساً فِي الأَمْرِ كُلِّهِ، وَجَعَلَهُ عَلَى مُقَدِّمَةِ جَيْشِهِ. وَبَعَثَ مُعَاوِيَةُ يُؤَنِّبُ مَرْوَانَ وَالأَسْوَدَ، وَقَالَ: أَمْدَدْتُمَا عَلِيّاً بِقَيْسٍ؟ وَاللَّهِ لَوْ أَمْدَدْتُمَاهُ بِمَائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، مَا كَانَ بِأَغْيَظَ عَلَيَّ مِنْ إِخْرَاجِكُمَا قَيْساً إِلَيْهِ.

● وَاسْتَشْهَدَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَوَقَفَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مَعَ الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، غَيْرَ مُبَالٍ بِالأَخْطَارِ، وَقَادَ قَيْسٌ خَمْسَةَ آلافٍ مِنَ الرِّجَالِ كَانُوا قَدْ حَلَقُوا رُؤُسَهُمْ بَعْدَ وَفَاةِ عَلِيٍّ، وَقَاتَلُوا أَهْلَ الشَّامِ قِتَالاً عَنِيفاً.

وَيُؤْثِرُ الحَسَنُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنْ يُضَمِّدَ جِرَاحَ المُسْلِمِينَ الَّتِي طَالَ نَزِيفُهَا، وَيَضَعَ حَدّاً لِلْقِتَالِ الَّذِي أَفْنَى الكَثِيرَ مِنَ

الْمُسْلِمِينَ وَالَّذِينَ يَجِبُ أَنْ يُوجِّهُوا جُهُودَهُمْ لِلْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمُجَالَدَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَيَدْخُلَ فِي مُفَاوَضَةٍ مَعَ مُعَاوِيَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ يُبَايِعُهُ.

وَيَأْبَى قَيْسٌ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْبَيْعَةِ، وَيَقُولُ لأَصْحَابِهِ: إِنْ شِئْتُمْ جَالَدْتُ بِكُمْ أَبَداً حَتَّى يَمُوتَ الأَعْجَلُ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَخَذْتُ لَكُمْ أَمَاناً، فَقَالُوا: خُذْ لَنَا أَمَاناً، وَلَمْ يَأْخُذْ لِنَفْسِهِ خَاصَّةً. وَلَمَّا ارْتَحَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ، جَعَلَ يَنْحَرُ لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ جَزُوراً حَتَّى بَلَغَ الصِّرَارَ[1].

دَهَاءُ قَيْسٍ

كَانُوا يَعُدُّونَ قَيْساً مِنْ دُهَاةِ الْعَرَبِ، وَكَانَ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ، وَقَالُوا: دُهَاةُ الْعَرَبِ حِينَ ثَارَتِ الْفِتْنَةُ خَمْسَةٌ: مُعَاوِيَةُ، وَعَمْرٌو، وَقَيْسٌ، وَالْمُغِيرَةُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ بُدَيْلِ بنِ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ.

وَكَانَ قَيْسُ وَابْنُ بُدَيْلٍ مَعَ عَليٍّ، وَعَمْرُو بنُ العاصِ مَعَ مُعَاوِيَةَ، وَكَانَ الْمُغِيرَةُ مُعْتَزِلاً بِالطَّائِفِ حَتَّى حَكَمَ الْحَكَمَانِ.

---

(١) الصرار: موضع على بعد ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق.

● عَيَّنَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ قَيْسَاً أَمِيرَاً عَلَى مِصْرَ وكانَ حازِمَاً، كَانَ يَقُولُ: لَوْلاَ أَنَّ المَكَرَ فُجُورٌ لَمَكَرْتُ مكْرَاً تَضْطَرِبُ مِنْهُ أَهْلُ الشَّامِ بَيْنَهُمْ، فَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ وَعَمْرُو إِلَيْهِ يَدْعُوَانِهِ إِلَى مُبَايَعَتِهِمَا. فَكَتَبَ إِلَيْهِمَا كِتَاباً فِيهِ غِلْظٌ. فَكَتَبَا إِلَيْهِ كِتَاباً فِيْهِ عُنْفٌ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمَا كِتَاباً فِيْهِ لِينٌ. فَلَمَّا قَرَآهُ، عَلِمَا أَنَّهُمَا لاَ يَدَانِ لَهُمَا بِمَكْرِهِ. فَأَذَاعَا بِالشَّامِ أَنَّهُ قَدْ تَابَعَنَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيَّاً، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: أَدْرِكْ مِصْرَ فَإِنَّ قَيْسَاً قَدْ بَايَعَ مُعَاوِيَةَ. فَبَعَثَ مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ وَمُحَمَّدَ بنَ أَبِي حُذَيْفَةَ إِلَى مِصْرَ، وَأَمَّرَ ابْنَ أَبِي بَكْرٍ. فَلَمَّا قَدِمَا عَلَى قَيْسٍ بِنَزْعِهِ، عَلِمَ أَنَّ عَلِيَّاً قَدْ خُدِعَ، فَقَالَ لِمُحَمَّدٍ: يَا ابْنَ أَخِي احْذَرْ، يَعْنِي أَهْلَ مِصْرَ، فَإِنَّهُمْ سَيُسَلِمُونَكُمَا فَتُقْتَلاَنِ. فَكَانَ كَمَا قَالَ.

تَقَوَى قَيْسٍ

● كَانَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ لاَ يَزَالُ هَكَذَا رَافِعَاً أُصْبُعَهُ المُسَبِّحَةَ، يَعْنِي يَدْعُو.

● قَالَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ: لَوْلاَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «المَكْرُ وَالخَدِيعَةُ فِي النَّارِ»[1]. لَكُنْتُ مِنْ أَمْكَرِ هَذِهِ الأُمَّةِ.

---

(١) أخرجه الطبراني، والحاكم، وإسحاق بن راهويه.

● قَالَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ: لَوْلاَ الإِسْلاَمُ، لَمَكَرْتُ مَكْرَاً لاَ تُطِيقُهُ العَرَبُ.

● كَانَ كَثِيرَ الخَشْيَةِ لِلَّهِ، مَا يَقُومُ بِتَصَرُّفٍ حَتَّى يَحْسِبَهُ بِمِيزَانِ الإِسْلاَمِ.

إِمْرَةُ قَيْسٍ

● لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ مُهَاجِرَاً مِنْ مَكَّةَ، أَخَذَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ بِيَدِّ ابْنِهِ قَيْسٍ، وَقَدَّمَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: هَذَا خَادِمُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي قَيْسٍ سِمَةَ الشَّجَاعَةِ وَأَمَارَاتِ القُوَّةِ وَالصَّلاَحِ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ، وَبَقِيَ يَخْدُمُهُ عَشْرَ سَنَوَاتٍ، هِيَ حَيَاةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالمَدِينَةِ. وَيَقُولُ أَنَسٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: إِنَّ قَيْسَ بنَ سَعْدٍ كَانَ يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَنْزِلَةِ صَاحِبِ الشُّرَطِ مِنَ الأَمِيرِ[1].

● كَانَ صَاحِبَ لِوَاءِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ.

---

(١) رواه البخاري في الأحكام.

● تَسَلَّمَ رَايَةَ الأَنْصَارِ مِنْ أَبِيهِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ قَالَ وَالِدُهُ: اليَوْمُ يَوْمُ المَلْحَمَةِ اليَوْمُ تُسْتَحَلُّ الحُرُمَةُ.

● تَوَلَّى أَمْرَ مِصْرَ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلاَثِينَ مِنْ قِبَلِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، ثُمَ عُزِلَ عَنْهَا.

● كَانَ عَلَى مُقَدِّمَةِ عَلِيٍّ يَوْمَ صِفِّينَ وَالنَّهْرَوَانِ.

● أَبَى الدُّخُولَ فِيمَا دَخَلَ فِيْهِ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَادَ خَمْسَةَ آلافٍ ضِدَّ مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ثُمَّ أَخَذَ الأَمَانَ لِجَمَاعَتِهِ مِنَ الخَلِيفَةِ الجَدِيدِ، مُعَاوِيَةَ، وَسَارَ بَعْدَهَا إِلَى المَدِينَةِ.

حَيَاةُ قَيْسٍ

وُلِدَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِالمَدِينَةِ حَوَالِي العَامِ الثَّامِنِ عَشَرَ قَبْلَ هِجْرَةِ المُصْطَفَى عَلَيْهِ، أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ، وَعَاشَ حَيَاةَ الأَثْرِيَاءِ الأَجْوَادِ، وَشَعَّ نُورُ الإِسْلاَمِ فِي المَدِينَةِ، وَأَسْلَمَ أَبُوهُ سَعْدُ أَحَدُ سَادَةِ الخَزْرَجِ، وَأَسْلَمَ وَلَدُهُ قَيْسُ، وَانْطَلَقَ سَعْدُ إِلَى مَكَّةَ وَشَهِدَ المَوْسِمَ مَعَ حُجَّاجِ قَوْمِهِ وَالْتَقَى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالعَقَبَةِ

وَبَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْعَةَ الحَرْبِ مَعَ مُسْلِمِي قَوْمِهِ، وَاخْتَارَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ، مِنْ مُسْلِمِي المَدِينَةِ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، كَانَ سَعْدُ أَحَدَهُمْ.

وَابْتَدَأَ المُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ وَقَدِ اشْتَدَّ أَذَى قَوْمِهِمْ عَلَيْهِمْ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ إِلَى إِخْوَانِهِمُ المُسْلِمِينَ هُنَاكَ، وَتَلَقَّاهُمُ الأَنْصَارُ بِالتَّرْحِيبِ، وَفَتَحُوا بُيُوتَهُمْ لَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُمْ كُلَّ إِمْكَانَاتِهِمْ وَطَاقَاتِهِمْ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاسْتَقْبَلَهُ المُسْلِمُونَ كَأَحْسَنِ مَا يَكُونُ الاسْتِقْبَالُ فَرِحِينَ مَسْرُورِينَ.

وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَوَادَعَ يَهُودَ، وَأَقَامَ بُنْيَانَ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ. وَجَاءَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ بِابْنِهِ قَيْسٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدَّمَهُ لَهُ، وَقَالَ لَهُ: هَذَا خَادِمُكَ قَيْسٌ، وَوَجَدَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَخَايِلَ الذَّكَاءِ، وَعَلاَمَاتِ القُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَتَفَرَّسَ فِيهِ النَّبَاهَةَ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ، وَأَضْفَى عَلَيْهِ العَطْفَ، فَكَانَ عِنْدَهُ كَصَاحِبِ الشُّرَطِ عِنْدَ الأَمِيرِ.

وَخَدَمَ قَيْسُ بنُ سَعْدٍ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَشْرَ سَنَوَاتٍ تَقْرِيباً، شَارَكَ أَثْنَاءَهَا فِي بَعْضِ المُهِمَّاتِ، فَقَدْ حَمَلَ لِوَاءَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بَعْضِ الغَزَوَاتِ، وَجَاهَدَ فِي بَعْضِ السَّرَايَا الَّتِي كَانَ يُرْسِلُهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى هَذِهِ الجِهَةِ وَتِلْكَ، فَقَدِ انْخَرَطَ فِي السَّرِيَةِ الَّتِي قَادَهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ إِلَى بَعْضِ بُطُونِ جُهَيْنَةَ وَالَّتِي شَارَكَ فِيهَا أَيْضاً أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ. وَاسْتَعْمَلَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى الصَّدَقَةِ. وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ.

وَشَارَكَ أَيَّامَ خِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي حِمَايَةِ المَدِينَةِ، وَبَعْضِ الأَحْدَاثِ، وَلَمْ يَنْطَلِقْ إِلَى الجِهَادِ، وَلَمْ يُشَارِكْ بِصُورَةٍ وَاسِعَةٍ لِمَوْقِفِ وَالِدِهِ مِنْ البَيْعَةِ.

وَفِي عَهْدِ الخَلِيفَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، انْطَلَقَ وَالِدُهُ سَعْدُ إِلَى الجِهَادِ بِالشَّامِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنِ اسْتُشْهِدَ. وَسَارَ بَعْدَهَا قَيْسٌ إِلَى الجِهَادِ فَشَارَكَ فِي فَتْحِ مِصْرَ، وَاخْتَطَّ لَهُ دَاراً فِيهَا. وَعَادَ إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ مُدَّةٍ.

وَلَمْ يَشْتَرِكْ فِي الأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي أَوَاخِرِ عَهْدِ الخَلِيفَةَ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ، وَإِنَّمَا وَقَفَ عَلَى جَانِبٍ خَاصٍّ مَعَ

الأَنْصَارِ، يَحْرَصُ عَلَى الدِّفَاعِ عَنِ الخَلِيفَةِ وَيَعْمَلُ عَلَى الشَّدِّ مِنْ أَزْرِهِ.

وَلَمَّا آلَتِ الخِلاَفَةُ إِلَى عَليٍّ بـنِ أَبـي طَالِـبٍ، بَعَثَـهُ أَمِيرُ المُؤمِنِينَ وَالِيَاً مِنْ قِبَلِهِ عَلَى مِصْرَ، فَسَارَ إِلَيْهَا وَدَخَلَهَا مِنْ غَيْرِ جَهْدٍ، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ مِنْهَا الوَالِي السَّابِقُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ سَعْدِ ابن أَبِي سَرَحٍ، وَتَسَلَّمَهَا مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حُذَيْفَةَ إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قُتِلَ. وَأَخَذَ قَيسُ البَيْعَةَ لِعَلِيٍّ مِنْ عَامَّةِ أَهْلِهَا إِلاَّ فَرِيقَاً اعْتَزَلُوا النَّاسَ، وَآوَوْا إِلَى (خَرْبَتَا) يَطْلُبُونَ بِثَأْرِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ، وَلَكِنْ لاَ يُقَاتِلُونَ أَحَدَاً، وَلاَ يَشُقُّونَ عَصَا الطَّاعَةِ، فَأَمْهَلَهُمْ قَيسُ وَسَـارَ فِي البِـلاَدِ سِيرَةً حَسَنَـةً وَضَبَـطَ أَمْرَهَا. إِلاَّ أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ عَلِيٍّ كَانُوا يُصِرُّونَ عَلَيهِ أَنْ يَأْمُرَ قَيساً بِقِتَالِهِمْ أَوْ إِعْطَاءِ البَيْعَةِ حَتَّى لاَ يَبْقَى فِي مِصْرَ مُعَارِضٌ، فَطَلَبَ مِنْـهُ عَلِـيٌّ ذَلِكَ، فَرَأَى أَنَّ رَأْيَهُ هُوَ الأَصْـوَبُ، فَتَـرَكَ مِصْرَ، أَوْ أَنَّ عَلِيَّاً عَزَلَهُ، وَبَعَثَ مَكَانَهُ الأَشْتَرَ النَّخْعِيَّ، وَلَكِنَّهُ مَاتَ فِي الرَّمْلَةِ مَسْمُومَـاً قَبْـلَ أَنْ يَصِـلَ إِلَيْهَـا، وَاضْطَرَّ أَمِـيرُ المُؤْمِنِينَ أَنْ يُثْبِتَ مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ عَلَى مِصْرَ، رَيْثَمَـا يَرَى رَأْيَهُ، وَانْتَدَبَ أَهْلَ الكُوفَةِ لِمُسَاعَدَةِ إِخْوَانِهِمْ أَهْلَ مِصْرَ وَلَكِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا، وَعِنْدَمَا أَصرَّ عَلَيْهِمْ سَارَ مِنْهُمْ جُنْدٌ قَلِيلٌ، وَمَـا

وَصَلُوا إِلَيْهَا حَتَّى كَانَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي بَكْرٍ قَدْ قُتِلَ وَدَخَلَهَا عَمْرُو بنُ العَاصِ .

اتَّجَهَ قَيْسٌ مِنْ مِصْرَ إِلَى المَدِينَةِ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ مِنَ الوَفَاءِ التَّوَجُّه إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ طَاعَتَهُ وَاجِبَةٌ، فَسَارَ إِلَيْهِ، وَكَانَ مَعَهُ فِي حُرُوبِهِ، فِي صِفِّينَ، وَفِي النَّهْرَوَانِ، وَكَانَ أَحَدَ الأَبْطَالِ، وَيَحْمِلُ لِوَاءَ الأَنْصَارِ فِي تِلْكَ المَعَارِكَ، وَيَقُولُ:

هَذَا اللِّوَاءُ الَّذِي كُنَّا نَحُفُّ بِهِ
مَعَ النَّبِيِّ، وَجِبْرِيلٌ لَنَا مَدَدُ
مَا ضَرَّ مَنْ كَانَتِ الأَنْصَارُ عَيْبَتَهُ
أَلاَّ يَكُونَ لَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ أَحَدُ

وَاسْتُشْهِدَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، إِذْ غَدَرَ بِهِ أَحَدُ الخَوَارِجِ ، وَهُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مُلَجْمٍ - قَبَّحَهُ اللَّهُ - وَعَلِيٌّ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ. وَالْتَفَّ النَّاسُ حَوْلَ الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَسَارَ لِقِتَالِ مُعَاوِيَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ قَيسُ بنُ سَعْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَلَى مُقَدَّمَةِ الحَسَنِ . غَيْرَ أَنَّ الحَسَنَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ آثَرَ وَقْفَ نَزِيفِ الدَّمِ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَصَالَحَ مُعَاوِيَةَ وَبَايَعَهُ.

لَمْ يَقْبَلْ قَيْسٌ مَا قَامَ بِهِ الحَسَنُ، وَرَفَضَ الدُّخُولَ فِي طَاعَةِ

مُعَاوِيَةَ، ثُمَّ اسْتَشَارَ جُنْدَهُ فِي العَمَلِ ، أَمُتَابَعَةُ القِتَالِ أَمْ طَلَبُ الأَمَانِ؟ فَرَأَوْا الأَمَانَ، فَأَخَذَ لَهُمُ الأَمَـانَ ، وَسَارَ بَعْدَهَا إِلَى المَدِينَةِ .

سَارَ قَيْسٌ مَعَ وَفْدٍ مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى الشَّامِ ، فَبَايَعُوا الخَلِيفَةَ بَعْدَ عِتَابٍ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَقَيْسٍ وَصَلَ إِلَى الغِلْظَةِ أَحْيَانَاً، وَقَـدْ أَكْرَمَ مُعَاوِيَةُ قَيْسَاً وَالوَفْدَ، وَاسْتَمَرَّ فِي تَقْـدِيرِهِ لَهُ حَتَّـى تُوفِّـيَ قَيْسٌ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِ مُعَاوِيَةَ، وَأَغْلَبُ الظَنِّ فِي سَنَـةِ تِسْـعٍ وَخَمْسِينَ ـ واللَّهُ أَعْلَمُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ قَيْسِ بنِ سَعْدٍ وَعَنْ بَقِيَّةِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

المحتوى

الموضوع	الصفحة
٢١ ـ العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه	٥
٢٢ ـ سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ	٦١
٢٣ ـ عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ	٧٧
٢٤ ـ عبدالله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ	١١٥
٢٥ ـ أبو حذيفة بن عتبة ـ رضي الله عنه ـ	١٤٩
٢٦ ـ سالم مولى أبي حذيفة ـ رضي الله عنه ـ	١٦٩
٢٧ ـ أبو عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ	١٨١
٢٨ ـ سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ	٢١٩
٢٩ ـ سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ	٢٣٧
٣٠ ـ قيس بن سعد ـ رضي الله عنه ـ	٢٧٥

كتبُ لِلمؤلّف

بُنَاة دَوْلَـةِ الإسْلام ١ - ٦

المجموعة الأولى:

١ - أبو سُبرة ابن أبي رُهْم.
٢ - أبو سلمة عبدالله المخزومي.
٣ - عبدالله بن جحش.
٤ - الزبير بن العوام.
٥ - زهير ابن أبي أمية.
٦ - سهيل بن عمرو.
٧ - سعد بن معاذ.
٨ - عباد بن بشر.
٩ - محمد بن مسلمة.
١٠ - أسيد بن الحضير.

المجموعة الثانية:

١١ - الفضل بن العباس.
١٢ - جعفر ابن أبي طالب.
١٣ - عبدالله بن الزبير.
١٤ - عبدالله بن حذافة.
١٥ - المقداد بن عمرو.
١٦ - عقيل ابن أبي طالب.
١٧ - صخر بن حرب.
١٨ - زيد بن حارثة.
١٩ - أبو العاص ابن ربيع.
٢٠ - ثابت بن قيس.

المجموعة الثالثة:

٢١ ـ العباس بن عبدالمطلب.
٢٢ ـ سعد بن الربيع.
٢٣ ـ عبادة بن الصامت.
٢٤ ـ عبدالله بن رواحة.
٢٥ ـ أبو حذيفة ابن عتبة.
٢٦ ـ سالم مولى أبي حذيفة.
٢٧ ـ أبو عبيدة ابن الجراح.
٢٨ ـ سعيد بن زيد.
٢٩ ـ سعد بن عبادة.
٣٠ ـ قيس بن سعد.

المجموعة الرابعة:

٣١ ـ مصعب بن عمير.
٣٢ ـ كعب بن مالك.
٣٣ ـ أبو أيوب الأنصاري.
٣٤ ـ سعد ابن أبي وقاص.
٣٥ ـ حمزة بن عبدالمطلب.
٣٦ ـ عاصم بن ثابت.
٣٧ ـ عبدالله بن عبدالله.
٣٨ ـ طلحة بن عبيدالله.
٣٩ ـ أبو طلحة زيد بن سهل.
٤٠ ـ أبو دجانة سماك بن خرشة.

المجموعة الخامسة:

٤١ ـ عمرو بن العاص.
٤٢ ـ عكرمة بن عمرو بن هشام.
٤٣ ـ شرحبيل بن حسنة.
٤٤ ـ أبو موسى الأشعري.
٤٥ ـ عياض بن غنم.
٤٦ ـ جرير بن عبدالله البجلي.
٤٧ ـ المثنى بن حارثة الشيباني.
٤٨ ـ خالد بن الوليد المخزومي.
٤٩ ـ عدي بن حاتم الطائي.
٥٠ ـ ثمامة بن أثال.

المجموعة السادسة:

٥١ ـ خبّاب بن الأرتّ.
٥٢ ـ صُهيب بن سنان.
٥٣ ـ بلال بن رباح.
٥٤ ـ عمار بن ياسر.
٥٥ ـ عامر بن فُهيرة.
٥٦ ـ مرثد ابن أبي مرثد.
٥٧ ـ سلمان الفارسي.
٥٨ ـ أبو ذر الغفاري.
٥٩ ـ عبدالله بن مسعود.
٦٠ ـ عبدالرحمن بن عوف.

التاريخ الإسلامي:

١ - ٢ قبل البعثة والسيرة.
٣ - ٤ الخلفاء الراشدون والعهد الأموي.
٥ - ٦ الدولة العباسية (١ - ٢).
٧ - العهد المملوكي.
٨ - العهد العثماني.
٩ - مفاهيم حول الحكم الإسلامي.

التاريخ الإسلامي المعاصر:

١٠ - بلاد الشام.
١١ - بلاد العراق.
١٢ - جزيرة العرب.
١٣ - وادي النيل.
١٤ - بلاد المغرب.
١٥ - غربي إفريقية.
١٦ - وسط وشرقي إفريقية.
١٧ - تركيا.
١٨ - إيران وأفغانستان.
١٩ - بلاد الهند.
٢٠ - جنوب شرقي آسيا.
٢١ - المسلمون في الأمبراطورية الروسية.
٢٢ - الأقليات المسلمة في العالم.